

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أحمد دراية - أدرار - الجزائر



قسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات

التراث الثقافي في أدب الرحلة عند أبي القاسم سعد الله
"دراسة مقارنة لنماذج"

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة والأدب العربي

تخصص دراسات جزائرية في اللغة والأدب العربي

إشراف الأستاذة الدكتورة:

شابي سعاد

إعداد الطالبة:

رحموني نورة

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
أ.د جعفري احمد	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة أدرار
أ.د سعاد شابي	أستاذة التعليم العالي	مشرفا	جامعة أدرار
أ.د إدريس بن خويا	أستاذ التعليم العالي	عضوا	جامعة أدرار
د. عبد الله كروم	أستاذ محاضر - أ -	عضوا	جامعة أدرار
د. احمد راجع	أستاذ محاضر - أ -	عضوا	جامعة ادرار
د. شريف بن دحان	أستاذ محاضر - أ -	عضوا	جامعة بشار

الموسم الجامعي: 1442-1443 هـ / 2021-2022 م



الإهداء

إليكِ أُمِّي

إلى روح أبي الطاهرة

إلى زوجي

وإلى أبنائي وأخواتي

إلى أستاذتي المحترمة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تعتبر الرحلة فنا من الفنون النثرية القديمة، عرفها الإنسان منذ عصور قديمة واهتم بها وأكثر فيها من التأليف، فتنوعت أسبابها ومقاصدها العلمية والدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتنوعت اتجاهاتها، وكثرت أسبابها ما بين أسباب اختيارية وأخرى اضطرارية، ولهذا كانت عناية العرب والمسلمين بأدب الرحلة قد بدأت منذ المراحل المبكرة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

ويمثل أدب الرحلة رافدا من روافد الأدب العربي على مر التاريخ، إذ يحمل في ثناياه عناصر التشويق في الحكى، والجنوح إلى الغرابة، مما جعله مجالا للتحليل الأدبي؛ إلا أنّ مادة الرحلات اكتسبت قبولا وتداولاً واسعاً بين القراء فالرحلة من أكثر الأجناس الأدبية ثراءً وغنى وانفتاحاً، وتعدداً في الآراء والخطابات.

إنّ المطلع على أدب الرحلة الجزائري يلمس تميّز الرحالة فيه؛ وذلك بوجود مادة جيدة وكثيرة تنافس أدب الرحلة العربي، فهو مصدر من مصادر الموروث الثقافي والتاريخي وبفضله تعرفت الأجيال اللاحقة على الكنوز الثقافية التراثية الجزائرية، ومن ثمّ فإنّ الرحلة باتت تُشكّل وحدها وثيقةً مهمّةً، يجد فيها الباحثون كثيراً من الإجابات عن تساؤلات عديدة و كانت تراودهم حيناً من الدهر، ومع هذه الأهمية التي يحظى بها أدب الرحلات؛ إلا أنّ اهتمام الباحثين الجزائريين بدراسته وتحليله قليل إذا ما قُورنَ بما ألف في هذا المجال وتركيزهم في دراسته وتحليله غالباً على المضمون الاجتماعي، دون النظر إلى الجوانب الأخرى.

لقد كان للحوادث والجرائم التي تكبدها الشعب الجزائري إبان الفترة الاستعمارية تأثيراً واضحاً على الساحة الأدبية الإبداعية، لأنه حرك العقول الواعية لتثبت وتشحذ الهمم من جهة، ولتخلد بطولات ومآثر الأمجاد من جهة أخرى.

إنّ التنقيب عن الأدب الجزائري القديم أمر مكلف باعتباره استرجاعا لجهود ضاع الكثير منها خلال فترة الاستعمار الفرنسي وبعده، إلا أن جهود أبي القاسم سعد الله ظلت متواصلة خصوصا في مجال التراث الثقافي الجزائري، وبهذا ترك لنا زخما معرفيا عظيما في شتى مجالات المعرفة، منها التاريخ والأدب والنقد والفكر....الخ.

ونحن في هذا البحث رأينا أن نقف عند جهود أبي القاسم سعد الله في مجال الرحلة فهو رمزا من رموز الثقافة الجزائرية من خلال علمه المتنوع واتجاهاته الفكرية في مختلف جوانب المعرفة، وسعة أفقه، ووفرة مؤلفاته التي شملت ألوان الفكر الإسلامي، بحدوده المترامية، وأبحاثه العلمية والموسوعية، كرّس زهرة شبابه وشيخوخته للجزائر وللإنسانية، وألف الشعر وتفنّن في كتابة القصة القصيرة، كما كانت له دراسات في النقد الأدبي الجزائري، وبهذا ترك بصمة قويّة بأعماله المتميّزة، إنّه صاحب تجربة طويلة، أفنى عمره في البحث والتنقيب مرتحلا إلى جهات مختلفة في أنحاء العالم مكونا بذلك جيلا من الباحثين في مجال العلوم الإنسانية كالتاريخ، والآداب والرحلات وغيرها.

ورغم أنّ جزءا كبيرا من جهد أبي القاسم سعد الله اتّجه إلى التاريخ، إلاّ أنّه عشق الأدب شعرا ونثرا وإبداعا ونقدا بل كان عالما موسوعيا من زمرة العلماء الكبار، قدّم أبحاثا علمية جادة في شتى مجالات المعرفة، ولم يتوقف عن الكتابة حتى توفى رحمة الله عليه.

فلا يمكن إغفال قيمة سعد الله المعرفية في إطار الكل المعرفي في الأدب الجزائري عموما وأدب الرحلة خصوصا، حيث تنوع إنتاجه في مجال الرحلة بين الرحلات الداخلية والخارجية، وقدم في -مجال الرحلة- عملا كبيرا ومهما جدا للأدب الجزائري وللباحثين فيهاد رجوع فيه إلى الكثير من الآثار والمخطوطات والخزانات ومتاحف وزوايا في شتى أنحاء الجزائر، وخارجها.

وما من شكّ في أنّ الغيرة على تراثنا الجزائري القديم، هي الدافع الأوّل إلى محاولة بعث هذا التراث من جذوره، ونفض غبار الزمن عنه، ولفت الانتباه للاهتمام بهذا الجانب المهمّ من الأدب الجزائري، كي نُحدِثَ التوازن بين القديم والحديث، مُحافظين بذلك على ثروتنا اللغوية، ونحمي ما تُحاول الأيامُ والرّوافدُ مَحْوَهُ وتعويضه، أضف إلى ذلك قيمة نثرنا الجزائري، بصفته نثراً أدّى رسالته في الإصلاح والنهوض بالمجتمع، فأردنا أن نُثبِتَ كفاءة النّصّ النثريّ الجزائري، ومدى مسابرة للآداب المعاصرة له.

إنّ التميّز الذي لمسناه في رحلات أبي القاسم سعد الله؛ شجعنا أكثر على الاهتمام بهذا الفن، ونمّي لدينا رغبة جامحة غماره مادة وقضايا، وغدّي عندنا حرصاً على استنطاق مضامين نصوصه وقيّمه المختلفة، وكشف بعض جوانب التراث الثقافي التي يحويها، والبحث في الجوانب الأدبية والفنية فيه، ومحاولة إبرازه فناً قائماً بذاته له منطقه وبنائه الفني، ومكوناته وآليات دراسته التي تميزه عن غيره من الفنون الأخرى.

وتحقيقاً لهدف البحث؛ فقد ارتأينا أن يقتصر مجال بحثنا على الرّحلة الجزائرية عند أبي القاسم سعد الله، وقد آثرنا أن يكون موسوماً بالعنوان التالي: **التراث الثقافي في أدب الرّحلة عند أبي القاسم سعد الله دراسة مقارنة لنماذج.**

وسنركز في هذه البحث على الجماليات الفنية، والمضامين الإبداعية لرحلات سعد الله وذلك بوقوفنا على الحياة الثقافية، والفكرية، والدينية، والاجتماعية للبلدان التي مر بها.

وعلى هذا الأساس فقد ارتأينا في باكورة مشوارنا البحثي أن نجيب على مجموعة من التساؤلات التي كانت تُؤرقنا، وكنا نبحث لها عن أجوبة موضوعية في هذا الفن، ولعل أهم هذه التساؤلات هي: ما هو حظ الرحلة من الأدب الجزائري؟ وكيف كان نصيب الرحلة في أدب أبي القاسم سعد الله؟ وهل استطاع الرحالة أن يحفظ تراث الأمة التي قصدها؟

وقد وضعنا بحثنا في خطة رسمناها كالاتي: قسمنا بحثنا إلى ثلاثة فصول مسبوقة بمدخل، فأما المدخل فوضّحنا فيه بعض المصطلحات كمفهوم الرحلة، والتراث والثقافة، والأدب المقارن، وفي نهاية المدخل قدمنا ترجمة موجزة عن حياة سعد الله.

أما الفصل الأول والموسوم بعنوان الرحلة في الأدب العربي؛ وتركز الحديثي العنصر الأول عن التعريف بأدب الرحلة، نشأته ومراحل تطور الرحلة، وفي العنصر الثاني تحدثنا عن دواعي تدوين الرحلة وأهميتها وأنواعها، وأهم الرحالة الجزائريين في القديم والحديث.

أما الفصل الثاني والموسوم بعنوان: الجماليات الفنيّة والمضامين الثقافية في رحلات سعد الله دراسة مقارنة؛ وأفردناه للجانب التطبيقي، إلا أننا استهللنا العنصر الأول بالحديث عن ماهية الرحلة عند أبي القاسم سعد الله، وعن خصائص ودوافع وأهداف الرحلة عنده، أما العنصر الثاني فتحدثنا عن جماليات توظيف التراث الثقافي في رحلات سعد الله: دراسة مقارنة ثم عرجنا إلى الحديث عن جماليات الشخصيات، في رحلات سعد الله والشخصية في الرحلة تختلف عن الأعمال السردية الأخرى فهي فردية مركزية تمثل صاحبها الذي يتمتع بسيرة ذاتية خارج النص، ولها اهتماماتها وأبعادها الدينية والاجتماعية، ثم انتقلنا لحديث عن جماليات المكان فلا يمكن للشخصية أن تتحرك بمعزل عن الفضاء المكاني فالقارئ يمكنه معرفة نفسية الشخصية والحكم عليها من خلال تواجدها في المكان ثم جماليات الزمان لتداخله مع المكان وأخيراً جماليات اللغة.

أما الفصل الثالث والموسوم بـ: أشكال التراث الثقافي في رحلات سعد الله؛ وهو فصل تطبيقي أيضاً، ففي العنصر الأول تحدثنا عن التراث الثقافي الفكري، والتراث الثقافي الاجتماعي، أما العنصر الثاني فتحدثنا عن المعتقدات وعن الموروثات المادية والشفوية وانتهى البحث بخاتمة كانت عبارة عن حوصلة لأهم النتائج المستخلصة منه.

واقترضت طبيعة الموضوع اعتماد المنهج الوصفي؛ الذي مكننا من الوقوف على وصفية النصوص الرحلية كظاهرة أدبية، ثم أخذنا بالمنهج التاريخي، لتتبع حياة أبي القاسم سعد الله، ومطيةً لتتبع مراحل تطور الرحلة، عبر العصور واستعنا بالمنهج التحليلي كآلية إجرائية، إضافة إلى المنهج المقارن للمقارنة بين رحلات سعد الله.

وهناك عدة دراسات التفتت إلى الكتابة في هذا الموضوع، و منها: الموروث الثقافي في أدب الرحلة الجزائري نماذج من رحلات القرن العشرين، رسالة ماجستير للباحثة يسمينة شرابي، جامعة البويرة 2013/2012م.

الكتابة الأدبية عند أبي القاسم سعد الله، دكتوراه دولة في الأدب الحديث، للباحث عبد السلام ضيف. 2005/2004م.

ومن أهم المراجع المعتمد عليها في هذا البحث:

الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية لسميرة أنساعد.

تجارب في الأدب والرحلة: أبو القاسم سعد الله

هموم حضارية، أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة الجزائر.

في الأدب الجزائري الحديث، تاريخاً، وأنواعاً، وقضايا وأعلاماً، عمر بن قينة.

رحلات ورحالون في النثر العربي الجزائري الحديث، عمر بن قينة.

ولم يكن دربنا سهلاً بل اعترته صعابٌ وعثرات عديدة؛ منها قلّة الدراسات التي تناولت موضوع أدب الرحلة عند الجزائريين تاريخاً وتحليلاً ونقداً.

وفي الأخير نتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالشكر على توفيقه لنا في إتمام هذا البحث، كما أتقدم بشُكرٍ مملوءٍ إكبارٍ وتقديرٍ لأستاذتي المشرفة سعاد شابي، التي أشارت لي بعين الرضا عن الموضوع والموافقة، وشُكرٍ خالصٍ لكل من أعانني في مسيرة بحثي ولو بالمرافقة، كما أشكر لجنة المناقشة، وأتمنى أن أحقق المبتغى من الموضوع، وأن أكون في اختياره مُوفِّقَةً.

أدرار في ديسمبر 2021

رحموني نورة

مدخل: تحديد مصطلحات البحث.

تمهيد:

نريد في هذه المدخل أن نصل إلى دلالة واضحة للمصطلحات التي وردت في عنوان البحث ونشير بداية إلى أن أدب الرحلة من أجمل أنواع الآداب إذ إنه يعكس ويوثق جل ما صادفه الرحالة عبر رحلته، كما أنّ التصانيف التي صدرت عن الرحالة تعد من الموضوعات المهمة التي طبعت الفكر العربي خلال قرون عدة، وقد وُجِدَتْ الرّحلة منذ وجد الإنسان، حيث كانوا يضربون فجاج الأرض من أجل نشر دعوة التوحيد، وتبعهم في ذلك السلف الصالح فكانوا يرتحلون من أجل إيقاظ الأمم ونشر تعاليم الدين الحنيف.

والرّحالة في رحلته يبرز وجوده من خلال الأنا، ويفتح من خلال الآخر في تناغم وتفاعل مع الرّحلة، وهو ما يسمح له بنقل حركته، والواقع المحيط به، إلى كتابة رحلته التي تختلف عن غيرها من الرّحلات، كما يسمح له بحرية اختيار المشاهد ورصد الحوادث، مما يمكنه من تلوين أساليبه، وموضوعاته الرّحلية، والإفادة من الثقافات المختلفة، والقدرات الإبداعية شعرا ونثرا، وقد خلف العرب والمسلمون تراثا ضخما نحو الآخر، يستدعي اهتمام الطبقة المثقفة به وصيانتها من الضياع، وهذا ما جعل بعض الدارسين يتجهون للحفر في الذاكرة والتنقيب في هذا التراث، وإخراج المهمل من الكنوز.

إن لفظة التراث تحمل في طياتها معاني مختلفة، فهناك من ينظر إليه على أنه علما قائما بذاته، يختص بقطاع معين من الثقافة المادية واللامادية، ويلقي الضوء عليها من زوايا مختلفة تاريخية، وجغرافية، واجتماعية، فما هو مفهوم التراث لغة واصطلاحاً؟

1. مفهوم التراث في اللغة والاصطلاح.

1.1 التراث لغة:

عرّف اللغويون التراث في مصنفاتهم على النحو الآتي :

إنّ لفظة التراث في اللغة مشتق من «مادة» وَرَثَ ويرادف لفظ التّراث، الإرثُ والورث والميراثُ في المعاجم العربية، وتدل هذه الألفاظ على ما يرثه الإنسان من والديه من مالا وحسب»¹، وفي القرآن الكريم وردت في قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾². والتراث هنا بمعنى المال الذي يتركه الهالك وراءه، والمقصود بقوله "أكلًا لَمًّا" كما يقول الزمخشري هو: الجمع بين الحلال والحرام، أي أنهم كانوا يجمعون بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم.³

كما أن مادة ورت تدل على الجانبين المادي والمعنوي، وهذا يتجلى في قوله تعالى على لسان عبده زكرياء: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبَ﴾⁴. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة إنما يأكل آل محمد صلى الله عليه وسلم في هذا المال».⁵ رواه البخاري

وفي معجم الصحاح للجوهري أشارت كلمة التراث إلى مدلولين: «أحدهما الوراثة المادية، حيث تقول: ورثت أبي وورثت الشيء من أبي أرثه ورثا ووراثه وإرثا، فالدلالة هنا تعني وراثة الإنسان عن أبيه المال، أما المدلول الثاني؛ فيشير إلى الوراثة المعنوية

¹ ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط2 لبنان، 1419هـ/1999م مادة (ورث)، 190/15.

² سورة الفجر، الآية 19-20.

³ ينظر الزمخشري: الكشاف، المكتبة البهية، ط1 القاهرة، 1925م، 2/ 543.

⁴ سورة مريم، الآية 6.

⁵ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار التأسيس مصر، ط1 القاهرة، 1433هـ/2012م، 5/355.

نحو قوله: «توارثوه كابر عن كابر». ¹، وقد تعني المجد وهو شيء معنوي فيقال: «هو في إرث مجد، والمجد متوارث بينهم» ²

وفي معجم المصطلحات العربية دلت على وراثته المال «ورث الشيء من أبيه يرثه، ووارثه بكسر الواو، وإرثا بكسر الهمزة، وأورثه أبوه الشيء ورثه إياه، ورث فلان فلانا توريثا، أدخله في ماله» ³

وقد اقترن مفهوم التراث بالجانب الفكري والثقافي، فأصبح مفهوم التراث «بمعنى ورث منه علما، أي ورثه بعض عن بعض قُدماً» ⁴، وبهذا أصبحت كلمة التراث تدل على الموروث الثقافي الأدبي والديني والتاريخي والكتابي القديم، ومن هنا نخلص إلى أن المعنى اللغوي لكلمة تراث تطوّر دلاليًا، غير أنه لا يخرج عن المعنى العام وهو ما يرثه الخلف عن السلف، سواء تعلق الأمر بأشياء مادية كالأموال والمباني، أو أشياء معنوية كالأخلاق والعلم والمعارف وغيرها من أشكال التعبير، كما أخذت لفظة التراث صفة الاستمرارية لتنتقله من سابق إلى لاحق.

2.1. التراث اصطلاحاً:

اختلف الدارسون في وضع تعريف محدد للتراث مع اتفاقهم على المعنى العام، فقد اكتسب مصطلح التراث مضامين جديدة لم يحملها في أي وقت مضى، وذلك تبعاً للتطور الزمني والحضاري، ويشير مصطلح التراث إلى «مجموع ما وصل إلينا عن الفكر العربي قبل الإسلام وبعده، ذلك التراث الذي يحمل إلينا أشياء من جوانب الحضارة

¹ - إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين ط2 بيروت 1979م، مادة (ورث)، 1/ 298.

² - الزمخشري جار الله محمود بن عمر: أساس البلاغة، دار الكتب العلمية بيروت، ط3 لبنان، 1419هـ/1998م (ورث)، 2/ 327.

³ - مجدي وهبة كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح ط2 بيروت، 1984م ص298.

⁴ - أحمد رضا: معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، ط1، 1960م، 5/ 735.

العربية القديمة وما بعدها»¹ فهو بمثابة الخلفية، والمرجعية الثقافية لهذه الأمة، لكن ارتباطه بالماضي لا يعني أنه يمثل الماضي فقط، دون الحاضر لأنه لا يمكن لأيّ أمة من الأمم أن تتقدّم دون الرجوع إلى تراثها ومحاولة إحيائه، لأنّ مجموع ما وصل إلينا على مرّ العصور من إنتاج الأجيال السالفة يعد جزءاً لا يتجزأ من حياتهم اليومية، ويشمل معظم مناحي الحياة السياسية، والتاريخية، والثقافية... الخ.

وهذا ما أشار له حسن حنفي حين عرفه بأنّه «مجموع التفسير التي يعطيها كل جيل بناء على متطلباته، وليس التراث مجموعة العقائد النظرية في ظرف معين، وفي موقف تاريخي محدد وعند جماعة خاصة تضع رؤيتها وتكون تصوراتها للعالم»². والتراث والتجديد يعبران عنده عن الماضي والحاضر، وكلاهما معاشان في الشعور الذي هو مخزون مرجعي متراكم من الموروث في ظل تفاعله من الواقع، فتحليل التراث هو في الوقت نفسه تحليل لعقليتنا المعاصرة وبيان أسباب معوقاتنا، وتحليل عقليتنا المعاصرة هو في الوقت نفسه تحليل للتراث أي: تراثنا القديم مكون في عقليتنا المعاصرة، مما يسهل علينا رؤية الحاضر في الماضي، ورؤية الماضي في الحاضر وهكذا فالتراث والتجديد يؤسسان معا علما جديدا وهو وصف الحاضر وكأنه ماض يتحرك، ووصف الماضي على أنه حاضر معاش³ فالعلاقة بين التراث والتجديد على حسب رأي حسن حنفي هي علاقة تكامل، ذلك أنّ الحاضر هو امتداد للماضي، مما يستدعي ضرورة تجديد التراث ليكون رؤية صائبة للواقع فهو جزء من مكونات واقعنا المعيش.

¹ - محمود أحمد حسن المراغي: دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث، دار العلوم العربية بيروت، ط1

لبنان، 1411هـ/1991م

ص14.

² - حسن حنفي: التراث والتجديد، موقفنا من التراث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط4، لبنان،

1412هـ/1992م، ص14/13.

³ - المرجع نفسه، ص19.

أما سعيد يقطين فيعرفه بقوله «كل ما خلفه لنا العرب والمسلمون من جهة؛ ويتحدد زمنياً بكل ما خلفوه لنا قبل النهضة من جهة ثانية»¹ أي: إنه متداول بين أفراد المجتمع الواحد وعناصره متنقلة من جيل إلى آخر، وهذا ما يُكسبه صفة الامتداد والاستمرارية.

وهناك من حاول أن يعطي التراث مفهوماً أوسع، بحيث تتجلى فيه صفة الفاعلية والتأثير والشمول، فيعرفه غالي شكري «بأنه جماع التاريخ المادي والمعنوي للأمة منذ أقدم العصور إلى الآن»²، والتراث ظاهرة اجتماعية قادرة على تقديم تجارب وخبرات الأجيال السابقة في تعاملها مع مواقف الحياة اليومية³، وبهذا يصبح بإمكان التراث الاستمرار في الحاضر وبنائه والتطلع للمستقبل، وهذا لا يتحقق إلا بقراءة التراث وإعادة صياغته وفق ما تتطلبه الحياة، وفي هذا الصدد طرحت على الساحة النقدية إشكالية الأصالة والمعاصرة فالعلاقة بينهما هي علاقة تكامل ذلك أن الحاضر هو امتداد للماضي، ومظاهر التراث موجودة في كل نظام من حياة الأفراد، سواء أعلق الأمر ببقايا أثرية كالأواني الفخارية أم المعالم الدينية، أو أنماط سلوك ومعتقدات ظلت باقية عبر الزمن. وفي ما يتعلق بالموضوعات التي تندرج تحت عنوان التراث؛ فيرى بعضهم أن التراث هو المكتوب فقط، وبهذا يحذف كل ما هو شفوي من عناصر التراث الشعبي الذي وصل إلينا شفهيًا، ويرى آخرون أن التراث الشفوي جزء لا يتجزأ من التراث العام، ولا يمكن الوقوف عند مرحلة تاريخية معينة، فالتراث يشمل كل ما هو متوارث سواء أكان مكتوب أو شفويًا.

¹ - سعيد يقطين: الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، ط1 الدار البيضاء المغرب، 1997م، ص47.

² - سعيد سلام: التناص التراثي في الرواية الجزائرية نموذجاً، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 1431هـ/2010م، ص22.

³ - ينظر محمد عباس إبراهيم: الثقافة الشعبية والثبات والتغير، دار المعرفة الجامعية، دط، الإسكندرية، 2009م، ص69.

ومهما تعددت التعريفات المقترحة للتراث؛ فإنه يعني في نهاية الأمر كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة، إذن هو قضية موروث، وفي الوقت نفسه قضية مُعطًى حاضر على مستويات عديدة.¹

فالتعريفان اللغوي والاصطلاحي يشيران إلى أنّ معنى التّراث ما تركه السلف للخلف، وعليه يبقى معنا لا ينضب ليشمل بهذا كل ما خلفه السابقون سواء أكان مكتوباً أم غير مكتوب، وفي مختلف الجوانب الدينية، والفنية والأدبية، والعلمية والمعرفية، والفكرية والتاريخية، وما تضمن من عادات، وتقاليد وغيرها، فهو بمثابة الخزانة الأمانة للأمة، لهذا كان لا بدّ للشعوب أن تُعنى بتراثها وتسعى إلى إحيائه وحمايته من الضياع، خاصة في ظل تحديات العولمة والتطور التكنولوجي الكبير الذي شهده العالم.

هذا وقد تعددت الاتجاهات الفكرية التي بحثت في مسألة التّراث؛ فهناك الاتجاه الديني المحافظ، والاتجاه العصري، والاتجاه التوفيقى بين الأصالة والمعاصرة. ففي الاتجاه الديني ينظر إلى التّراث بوصفه تراكماً دينياً أو فكرياً قائماً على الدين وبهذا يكون التّراث قائماً على الشريعة الإسلامية فحسب، «حيث يرفض الموقف السلفي كل ما هو جديد، ويدعو إلى الوقوف بوجهه بحجة أنه من نتاج مجتمع وحضارة غربيين عن المجتمع العربي، منطلقاً في موقفه من رؤيتين:

الأولى دينية: تقسم العالم إلى مسلم وكافر، وتنسب الكفر إلى الغرب وحضارته. والثانية قومية: تضع عنصر الجنس في أولى اهتماماتها، ويرى أن قمة الحضارة وُجدت في الماضي، ولذا يجب على الحاضر لكي يكون جميلاً وزاهراً أن يعود إلى الماضي ويحاكيه»²، وعليه يعتقد هذا الاتجاه أن ما في التّراث هو كل الخير، وأن ما أنجزه الماضي هو الموجه والمسير للحاضر والمستقبل.

¹ - حسن حنفي: التراث والتجديد، (مرجع سابق) ص 09.

² - محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد كتاب العرب دمشق 2002، ص 24.

أما الاتجاه العصري فينظر إلى التّراث نظرة تاريخية تميل إلى الاعتداد بالوجه الفلسفي والعلمي للتّراث، وبالجانب السياسي للصراعات الاجتماعية التي نشأ في ظلها، ويتجه الاهتمام هنا نحو إعمال العقل لا النقل، «حيث يرفض الماضي رفضاً كلياً، ويرفض العودة إلى التّراث ويقرأ الحاضر في ضوء المستقبل فقط، وأن التّراث بوصفه ينتمي إلى زمن مضى لا يمكن أن يستمر في الحاضر، ويرون أن تغيير الثقافة العربية لا يتم إلا ضمن إنتاج سياق جديد وشامل للحياة العربية»¹

وفي الاتجاه التوفيقى؛ يدخل التّراث في دائرتي العروبة والإسلام، ويتضمن هذا الاتجاه الدعوة إلى إحياء التّراث والبحث فيه، ثم دمجها في الحاضر ليؤدي وظيفته المقصودة، «وقد واجه هذا التيار الموقف السلفي بنزع القداسة عن التّراث، والنظر إليه على أنه نتاج الوعي البشري في التاريخ والمجتمع، وواجه الموقف العصري بضرورة الربط بين الماضي والحاضر عبر دراسة العناصر الحية في التّراث ودراسة علاقة التاريخ بقضايا الماضي، ومثل هذه القراءة تمكنا من أن نضع أيدينا على عناصر الأصالة في التّراث؛ والقادرة على الاستمرار والتفاعل.»²

ومما سبق يتضح لنا أن هذا الاختلاف القائم حول وضع تعريف شامل للتّراث، واختلاف الاتجاهات؛ دليل على أنّ هناك اهتماماً بالغاً بالتّراث والبحث فيه، وهذا ما يبين الأثر الكبير للتّراث في العديد من الأعمال الأدبية المختلفة، كالرواية القصة الرحلة.... الخ.

لذلك؛ لابدّ من العودة إلى التّراث لكونه أساس تقدم الأمم وتحضرها، «فالأدب العربي لم يكن لينهض نهضته الحديثة بعد ركوده الطويل خلال العصر المملوكي والتركي لو لم يرتد به البارودي، وأدباء مدرسة الإحياء إلى منابعه الأولى الأصلية المتمثلة في

¹ - محمد رياض وتار توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، ص 25.

² - المرجع نفسه، ص 25-26.

تراثه الغني خلال عصور الازدهار ابتداء بالعصر الجاهلي وانتهاء بفترة القوة في العصر العباسي مرورا بصدر الإسلام والعصر الأموي».¹

فلا بد من توظيف عناصر التراث توظيفا فنيا للتعبير عن الآراء المعاصرة كما لا بد له أن يمزج بتاريخ الأمة، لأنّ توظيف التراث وحده لا يكفي إذا لم يكن هناك تسجيل تاريخي لهذه الأمة، «لأنّ إحياء التراث من خلال الكتب وحدها لا يمكن أن يكون هو العملية الوحيدة، إذ أنّ عملية الإحياء تتطلب استلهام التاريخ ونفث روح الحياة في شخصياته، لحملها على تخطي زمنها الذي عاشت فيه، لتكون حضورا عظيما في حياتنا ومستقبلنا».²

التراث ملازم للثقافة ومرتبطة بها، فإذا كان لكل أمة تراث تعتر به وترجع إليه؛ فإنّ تراث أمتنا العربية عميق الجذور، فهو يرتبط في منبعه بالأصالة وفي امتداده بالرواية، وهو بذلك من أهم مصادر ثقافتنا، فالتراث الثقافي منبع لا يجف من المعرفة، ومصدر مهم للإبداع المعاصر، فماذا تعني الثقافة؟

¹ - علي عشري زايد: الرحلة الثامنة للسندباد: دراسة فنية عن شخصية السندباد في شعرنا المعاصر، دار ثابت، ط1، 1404هـ/

1984م، ص14.

² - المرجع نفسه، ص22.

2. مفهوم الثقافة في اللغة والاصطلاح:

1.2. الثقافة لغة:

تعددت تعريفات الثقافة، لكنها تشير إلى معنى واحد، فابن منظور يعرفها على أنها تعني: العمل بالسيف وتسوية الاعوجاج، فيقول: «الثَّقَافُ والثَّقَافَةُ العمل بالسيف، والثقاف حديدة تكون مع القوَّاس والرماح يُقَوِّمُ بها الشيء المعوجَّ، وتثقيفها تسويتها، وفي حديث عائشة تصف أباهما رضي الله عنهما وأقام أوده بثقافته؛ تريد أنه سوَّى عوج المسلمين»¹. ويقال «ثَقَّفَ الشيءَ»، وهو سرعة التعليم، وثَقَّفْتُ الشيءَ: حَدَّقْتُهُ، وثَقَّفَ الرجلُ أي صار حاذقا فطنا، وغلَامٌ لَقِنَ ثَقْفَ أي ذو فطنة وذكاء»²، فالثقافة إذن بحسب رأي ابن منظور هي تسوية الاعوجاج وإقامة الشيء، كما تدل على الفطنة والذكاء، كما تعني الظفر بالشيء، أو الظفر بالمعلومة وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقَّفْتُمُوهُمْ﴾³، وفي قوله تعالى أيضا ﴿إِن يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾⁴

وفي معجم أساس البلاغة ورد معنى الثقافة «ثَقَّفَ القناة وعضَّ بها الثقاف، وطلبناه فنثقفناه في مكان كذا أي أدركناه في مكان كذا وكذا، وثَقَّفَتِ العلم أو الصناعة في أقل مدة إذا أسرع أخذها، وفلان من أهل المثاقفة، وهو مثاقف حسن الثقافة بالسيف»⁵، ومن المجاز: أدبه وثقفه، ولولا تثقيفك لما كنت شيئا، وهل تهذبت وتثقت إلا على يدك⁶، فهي بمعنى التهذيب والتعليم.

وفي مختار الصحاح: «ثَقَّفَ الرجل من باب ظرْفٍ صار حاذقا خفيفا، فهو ثَقْفٌ مثل ضَخْمٍ، ومنه المثاقفة وثَقَّفَ من باب طَرِبَ لغة، والثقاف ما تسوى به الرماح وتثقيفها

¹ ابن منظور: لسان العرب مادة(ثقف)،(مصدر سابق) 2/ 112.

² المصدر نفسه، ص112.

³ سورة البقرة الآية 191.

⁴ سورة الممتحنة الآية 2.

⁵ الزمخشري: أساس البلاغة، (مصدر سابق) ص110.

⁶ المصدر نفسه، ص110.

تسويتها، وثقف من باب فَهَمَ¹. فالتعريف اللغوي يشير إلى أن معنى الثقافة لا يخرج عن التمكن من الشيء كما يشير إلى العلم بالصناعة في أوجز مدة.

2.2. الثقافة اصطلاحاً:

هي خبر يجمع ويحافظ عليه المجتمع وتتناقله المجتمعات الإنسانية، والثقافة الإنسانية كونية مطبوعة بالممارسة العلمية والتقنية وكذا بإيديولوجية مشتركة.² كما تعتبر الثقافة رياضة المَلَكات البشرية، بحيث تصبح أتم نشاطاً واستعداداً للإنجاز وترقية العقل والأخلاق، وتنمية الذوق السليم في الأدب والفنون الجميلة، كما تمثل السمات المميزة لإحدى مراحل التقدم في حضارة من الحضارات.³

ويعرفها ابن سلام الجمحي في معرض حديثه عن صناعة الشعر فيقول: «إن للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات منها ما يتفقه العين، ومنها ما يتفقه الأذن، ومنها ما يتفقه اليد، ومنها ما يتفقه اللسان»⁴

كما تعرّف على أنها «مجموع كَمِّيٍّ من المعرفة البشرية وسلوكها المكتسب، ضمن الإطار الاجتماعي للفرد الواحد، ويستخدم تعبير النمط الثقافي ليعني ترتيباً متجانساً للسلوك البشري، والعادات الاجتماعية، ومنظومة القيم المرتبطة بها تنتشر وتتطور عناصر الثقافة من مجتمع إلى آخر بالاتصال المباشر أو غير المباشر بين الأفراد والجماعات، وبعملية يمكن تسميتها بالانتشار، وضمن التطور المتواصل في وسائل الاتصال وسبل السفر كلما ازداد تبادل عناصر الثقافة ازدياداً مطّرداً.»⁵

¹ - محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، ط4 الجزائر 1990م، ص84/85.

² - ينظر سعد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، 1405هـ/1985م، ص57.

³ - ينظر مجدي وهبة كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية (مرجع سابق) ص129.

⁴ - ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، قراءة محمود شاكر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، 2000 م، 5/1

⁵ - معتصم الحاج عوض الكريم: مدينة بربر السودانية والروابط الثقافية للرحلة الحجازية دراسة وثائقية لرسائل السادة الكنتية، مجلة رفوف، جامعة أدرار العدد الحادي عشر، مارس 2017م، ص163.

وعلى هذا الأساس؛ تبدو الثقافة متعدّدة الوجوه فهي تجمع بين المادي والمعنوي والمكتسب والفطري، ويصعب تحديدها لكونها من الألفاظ المعنوية، ومن المصطلحات الحديثة ذات الأبعاد الكبيرة والدلالات المتعددة، فالثقافة ليست فيما استقر من معارف، وإنما هي متجدّدة بتجدد احتياجات الفرد إلى مزيد من المعارف التي تتطلبها مستجدات العصر الذي يعيش فيه.

وتشير إلى أنها نظام متكامل من المعرفة بالعلوم والفنون والعادات والتقاليد وغيرها والتي يتميز بها مجتمع عن آخر وتناقلها الأجيال عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي وعن طريق التواصل اللغوي.

انطلاقاً مما سبق نخلص إلى أن الثقافة نظام متكامل يتكون من مجموعة من المعارف والسلوكيات التي تتكوّن ضمن الجماعة البشرية المنتجة لها.

3.2. مفهوم الموروث الثقافي:

بعد تحديد التراث والثقافة؛ يتيسر لنا ضبط مفهوم التراث الثقافي، وهو مفهوم واسع يشمل مختلف مناحي الحياة، فيشمل التاريخ والقطع الأثرية، والكتب والمخطوطات وغيرها من المنتجات التي صنعها البشر، والتي تعد ذات قيمة مهمة للتراث الثقافي الخاص بكل أمة من الأمم، والتراث الثقافي هو مجموع الأشكال الثقافية «السائدة في مجتمع ما، والمتواجدة في أشكال مختلفة من الحياة اليومية في تصرفاتنا وتعبيرنا وطرائق تفكيرنا، ومهما حاولنا القطيعة معه- الموروث الثقافي- أو إعلان موته نظرياً أو شعورياً؛ تظل خطاطاته وأنساقه وأنماطه العليا مرشحة في الوجدان ومتمركزة في المخيلة»¹

ويُعرّف على أنه كل ما ينتقل من عادات وتقاليد وعلوم وآداب ومختلف أنواع الفنون والمأثورات الشعبية وقصص وحكايات وأمثال؛ تجري على ألسنة العامة من الناس،

¹ - سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي- من أجل وعي جديد بالتراث- دار رؤية للنشر، ط1 القاهرة، 2006م، ص 226.

وعادات الزواج والمناسبات المختلفة وما تتضمنه من طرق موروثة في الأداء والأشكال ومن ألوان الرقص والألعاب والمهارات، وعليه فالتراث مرتبط بالفكر والثقافات والفنون بشتى أنواعها وأشكالها المادية والمعنوية، وهو مادة غزيرة تحمل تجارب الأمم والحاضرات السابقة التي تصب في وعي الحضارة لفهم الواقع ورسم سبيل المستقبل.

يمكن القول إنّ التّراث الثقافي هو مجموع خبرات أسلافنا الثقافية والفكرية والاجتماعية أي: «الموروث الثقافي والاجتماعي والمادي، المكتوب والشفوي الرسمي والشعبي، اللغوي وغير اللغوي الذي وصل إلينا من الماضي القريب والبعيد»¹ وعليه فالمطلوب ضرورة استثمار التراث لفهم الحاضر، باعتبار أنه إنتاج حقبة زمنية ماضية فهو يحمل سياقات فكرية مختلفة.

إنّ المقصود بالتّراث الثقافي العربي هو الجانب الفكري في الحضارة العربية الإسلامية (العقيدة، الشريعة، اللغة، الأدب، الفن، الفلسفة والتصوف)، ويشمل التّراث أيضا المعالم التاريخية ومجموعات القطع الفنية والأثرية في بلدان العالم العربي، كما يشمل التقاليد وأشكال التعبير الحية الموروثة من جيل الأسلاف التي تداولها الناسُ جيلا بعد جيل حتى وصلت إلينا²، والتّراث الثقافي هو الذي يمثل ثروة البلد وعمقه الحضاري وبعدها الإنساني.

وتمثل الرّحلة شكلا من أشكال التواصل الثقافي بين الشعوب، ونوعا من الأدب الذي يجعل كل رحلة صورة للتواصل الثقافي مع شعوب أخرى، حيث يعيد الرّحالة اكتشاف ذاته إلى جانب اكتشافه للآخر، ومن المواضيع المهمة التي تشتمل عليها الرّحلة هي نقل ثقافات البلدان المزارّة، كما تعتبر الرّحلة من الفنون التّراثية المتجذرة في الأدب العربي، والتي تأخذ أهميتها من كونها وسيلة من وسائل التواصل مع الآخر والمثاقفة معه، يعطي فيها

¹ محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية المعاصر اتحاد الكتاب العرب، ط1 دمشق 2002م، ص21.

² مثنى العبيدي التراث الثقافي العربي تحديات عدة، مقال منشور إلكترونياً على الرابط : WWW.ALEPH

الرحالة نموذجاً من ثقافته المحلية وناقلاً إلى أصوله الثقافية نماذج أخرى أجنبية، فهي شكل من أشكال التواصل الثقافي بين الشعوب ولهذا ننتقل إلى تعريف الرحلة.

3. مفهوم الرحلة في اللغة والاصطلاح:

الرحلة من المظاهر الاجتماعية القديمة، عرفها العربي حين انتقل بين الأقطار شرقاً وغرباً، ولذا ارتبط هذا الجنس الأدبي بالموروث العربي عموماً، وذلك بالتنقل من مكان إلى آخر، أو بالجغرافيا الطبيعية بنحو عام، وبهذا اختلف الدارسون في تحديد مفهومها وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، وكل نظر إليها من جانب تخصصه، فالمؤرخ يرى فيها الجانب التاريخي، والجغرافي نظر فيها إلى كل ما له علاقة بالجغرافيا، بينما رأى فيها الكاتب الأدبي الجانب الفني والأدبي، وبهذا استطاعت الرحلة أن تواكب الواقع بمختلف تغيراته، وتفاعلت معه بأساليبها الراقية ومضامينها المختلفة.

3.1. التعريف اللغوي:

حظيت مادة رحل بشرح وافٍ في المعاجم العربية؛ فقد جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس في مادة رحل «رحل الرّاء والحاء واللام: أصل واحد يدل على مضى في سفر يقال رحل يرحل رحلة، وجمل رحيل إذا كان قويا على الرحلة. ورحله إذا أطعنه من مكانه ومعنى الرّحلة والرّحلة: القوة على السير»¹.

وفي القاموس المحيط للفيروز آبادي: «ارتحل البعير سار ومضى، والقوم عن المكان انتقلوا كترحلوا، والرحلة بالضم والكسر، وبالضم: الوجه الذي تقصده، والسفرة الواحدة»².

وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة «الرحلة في اللغة من رحل يرحل رحيلاً وترحلاً ورحلة فهو راحل، رحل الشخص عن بلده سار ومضى، مكث هنا بعض الوقت

¹ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر التوزيع، ط1، 1411-1991 مادة رحل، 297/2-298.

² مجد الدين الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، لبنان، 2005م، ص1005.

ثم رحل إلى بلده وغيره، والرحلة بالضم والكسر؛ القوة على السير وارتحل الشخص إلى بلد ما انتقل إليه»¹.

إذن معاجم اللغة تجمع على أنّ الرحلة تدل على فعل الانتقال والحركة من جهة، وبذل الجهد والقوة من جهة ثانية، ومن هنا نستشف أن دلالة كلمة رحل في لغة العرب تدل على السير والانتقال والحركة، لأن الرحلة في الحقيقة ما هي إلا حركة وانتقال.

2.3. التعريف الاصطلاحي:

تعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح إلا أنها في الأخير تصب في قالب واحد فقد عرفها أحمد مختار عمر بأنها «مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوكيات وأخلاق»².

ويعرفها أبو حامد الغزالي بأنها «نوع من المخالطة مع زيادة تعب ومشقة»³، فالرحلة في نظره هي مخالطة الغير مع جهد وتعب، لأنّ السفر في كل الأحوال يحتاج إلى جهد من خلال التنقل والترحال من مكان إلى آخر.

مما سبق؛ يتضح لنا أن المفهومين اللغوي والاصطلاحي لكلمة الرحلة متقاربان فكلاهما يشتركان في معنى واحد وهو الحركة، وهذه الحركة يحقق منها الإنسان فوائد كثيرة، وهو ما يجعله يختلف عن غيره من الناس، فالشخص الذي يرتحل يحقق أهدافا كثيرة، وهذا ما ذكره المسعودي في مٌروجه بقوله: «ليس من لزم وطنه وقنع بما أتى إليه من الأخبار عن إقليمه؛ كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه، وإنارة كل نفيس من مكمّنه»⁴ ويصف الرحالة ما

¹ — أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب ط1 القاهرة، 1429هـ/2008م، 869/2-870.

² — أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ص871.

³ — أبو حامد أحمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، 1986م، 273/2.

⁴ — المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تقديم محمد السويدي، موفم للنشر، دط، الجزائر

1989م، ص03.

يشاهده من عادات، وتقاليد، وأعراف بلد ما دون الإقامة في مكان واحد لأنّ أساس هذا الوصف هو التنقل وعدم الاستقرار والثبوت في مكان واحد وهذا ما يجعل الرحلة أكثر انفتاحا في المعرفة والثقافة العربية، لأنها اتخذت من التجربة والمشاهدة المباشرة أساسا لتدوينها، وإن أكثر ما يميز الرحلة هو الواقعية والدقة في تصوير المشاهد ونقل الوقائع التي تحدث خلالها.

هذا وتختلف الرّحلات باختلاف الأغراض البشرية التي تستدعي القيام بها، لأنّ هناك أغراضا أخرى استدعت كتابتها بعد ذلك، وإن طغى في كثير من البحوث الاتجاه الذي يرى أن ارتباط الرحلة بالفن والأدب أكثر وضوحا، فتصنيفها ضمن الأجناس الأدبية له ما يُسوِّغُهُ ويذكره من صيغها التعبيرية وأساليبها الفنية، إلّا أنّنا نرى أن حصرها في حقل معين وجنس مخصوص هو إهمال لطبيعة وخصوصية هذا النوع من الكتابة الذي يزخر بالمضامين والموضوعات العديدة علميةً وأدبيةً وفنيةً من حيث بناؤه ومكوناته وعناصره، ويتبع العادات والتقاليد والتأثيرات الإقليمية، ويحتوي على معارف وعلوم متعلقة بالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع والأدب.¹

«والرّحّالون لم يهتموا برحلاتهم إلا في القرن التاسع الميلادي، واستمر التأليف فيها حتى أصبحت فنا أدبيا متميزا، حدّده الباحثون حديثا و صنفوه ضمن أنماط السرد، غير أنّ الباحثين حددوا لهذا الفن قيمتين؛ الأولى: علمية تختص بالجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وغيرها، والثانية: أدبية تختص بمؤرخي الأدب والأديان والأساطير، فالرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور»².

¹ - ينظر جميلة روباش، أدب الرحلة في المغرب العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2014/ 2015، ص8-9.

² - حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 1983م ص6-7.

أما القيمة العلمية فقد تأتت لها بما تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية وغيرها؛ مما يدونه الرحالة تدوين المعايين في غالب الأحيان من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة والناس وبالحياء من خلال رحلته، ومن ثمّ فإنه يسجل الظواهر المختلفة، ويُجز عمل الناقل لتلك الظواهر ليضعها بين أيدي الجغرافيين، أو المؤرخين، أو علماء الاجتماع¹.

أما القيمة الأدبية للرحلات؛ فتتجلى في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني، وقد أفاد أدب الرحلة بغنى موضوعاته في صرف أصحابه في غالب الأحيان عن اللهو والعبث اللفظي، كما أثارت الرحلات اهتماما بالغا بسبب تنوعها وغنى مادتها².

وهذا يعني أن أيّ رحلة حتى تعدّ فناً؛ لا بدّ أن تحمل في الوقت نفسه هاتين القيمتين العلمية والأدبية، وبما أننا سوف نقارن بين رحلات سعد الله لذا ننتقل للحديث عن مفهوم المقارنة.

¹— ينظر حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص 07.

²— ينظر المرجع نفسه، ص ن.

4. مفهوم المقارنة:

4.1. المقارنة لغة:

جاء في معجم لسان العرب: «قارن الشيءُ الشيءَ مقارنةً وقِرَانًا؛ اقترن به وصاحبه وقرنت الشيءَ بالشيء وصلته، والقرين هو المصاحب»¹ وقرن الشيءَ بالشيء جمع بينهما أو

وازن بين الشئيين فهو مقارن؛ ويقال الأدب المقارن، واقترن الشيءَ بغيره اتصل به وصاحبه.²

4.2. المقارنة اصطلاحاً:

هي مجموعة من الطرق الإدراكية التي تستهدف إقامة علاقات شكلية بين موضوعين أو أكثر، كما تكون المقارنة نموذجاً مثالياً لمتغيرات الموضوعات المعالجة.³ ومن هنا نخلص إلى أن مفهوم المقارنة لا يخرج عن معنى إيجاد العلاقات بين شئيين أو أكثر والتقريب بين الوقائع المختلفة والمتباعدة في غالب الأحيان.

5. نبذة عن حياة أبي القاسم سعد الله

5.1. مولده وتعلمه:

أبو القاسم سعد الله من مواليد 1930/07/01م بضواحي «قمار» بواد سوف باحث أدبي ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه، ودين، من رجالات الإصلاح الاجتماعي والديني، عايش جمعية العلماء المسلمين، وياشر الحركة التعليمية في مدارسها⁴، نشأ فقيراً في أسرة تعيش على زراعة التبغ والنخيل، وبها حفظ القرآن الكريم إلى جانب اشتغاله بالفلاحة، التحق بجامع الزيتونة في تونس عام 1947م وقضى فيها سبع

¹ ابن منظور: لسان العرب، (مصدر سابق)، ص336.

² ينظر إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط تحقيق مجمع اللغة العربية، مكتبة مؤسسة الصادق للنشر، ط6 إيران 1384هـ، ص730-731.

³ ينظر سعد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، (مرجع سابق)، ص176.

⁴ ينظر رابح خدوسي: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، ط1، 2003م، ص187.

سنوات، تحصل خلالها على شهادة الأهلية عام 1951، وعلى التحصيل الدراسي عام 1954¹.

وتحمل خلال هذه الدراسة كثيرا من الأعباء والمتاعب، إذ كان يعمل ويدرس، وقد تأثر سعد الله بالأحداث التي كانت تجري في تونس آنذاك، ولهذا نشر العديد من المقالات والقصص في جرائد ومجلات مختلفة، ويعترف أنه تأثر بثلاثة اتجاهات أثناء دراسته بتونس، حيث يقول: «غير أن هناك ثلاثة اتجاهات أثرت في حياتي أثناء دراستي في تونس:

الأول: هو التربية الدينية والأخلاقية التي تلقيتها بالزيتونة.

الثاني: هو التربية الوطنية التي اكتسبها عن طريق مشاركتي في نشاط جمعية الطلبة الجزائريين منذ 1948.

الثالث: هو التربية الأدبية التي حصلت عليها بفضل مطالعتي لإنتاج المشرق العربي وخصوصا قراءتي للرسائل والآداب اللبنانية»².

وأثناء إقامته بتونس؛ نشر سعد الله مقالات وقصائد وقصصا في عدة جرائد ومجلات حيث نشر في "النهضة والأسبوع" التونسيين، كما كتب في جريدة البصائر الجزائرية، وأسهم سنة 1952م في تأسيس رابطة القلم الجديد مع أعضاء تونس من بينهم الشاذلي زوكار ومنور صمادح³.

ثم اضطر للعمل والتعليم في مدرسة البنات بالجزائر العاصمة، تحت إدارة الشهيد الربيع بوشامة، وأحس في العاصمة بالغرابة والضيق الشديد قال حينها: «لقد شعرت أول مرة بالاحتلال يجثم على صدري ويخنقني، لقد فقدت علاقتي بالعالم، لأنني لم أكن وقتها أجد الفرنسية التي كانت كل شيء، لقد كان المستعمرون في الجزائر يتحدثون ويكتبون

¹ - ينظر محمد الأمين بلغيث: رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين، أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع الجزائر، 1436هـ/2014م، ص 140.

² - أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، طر، تونس 1982م، ص 46.

³ - محمد الأمين بلغيث: رحيل شيخ المؤرخين، أبو القاسم سعد الله، (مرجع سابق)، ص 140.

بلغة غير لغتي، ويلبسون ثيابا غير ثيابي، ويلهون بما لا ألهو، وهكذا شعرت بأن أفواههم كانت قبورا مفتوحة في طريقي، وبأن عيونهم كانت سهاماً ضاربة موجهة إلى صدري، وأن قاماتهم كانت أشباحاً مرعبة تطاردني بوحشية في غابة مظلمة»¹

وفي عام 1955 سافر سعد الله بمساعدة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى القاهرة، فسافر إلى تونس ثم إلى ليبيا جواً، ومنها إلى القاهرة وذلك في أكتوبر 1955 وبمصر تمكن من التسجيل بكلية العلوم بجامعة القاهرة، وبها تبلورت لديه العاطفة الوطنية السياسية وكذلك القومية العربية، درس الفرنسية عن طريق الدراسة الحرّة، وفي سنة 1959 تحصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وبعد عام تحصل على سنة أولى ماجستير في النقد الأدبي، وبهذا بدأ يحضر أطروحته للماجستير تحت إشراف الشيخ البشير الإبراهيمي بعنوان: محمد العيد آل خليفة رائد التجديد في الأدب الجزائري الحديث.² وعن الإبراهيمي قال أبو القاسم سعد الله: «لم أكن أعرف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلا عن طريق البصائر والسماع... وحين عازمت السفر إلى المشرق للدراسة حملت إلى الشيخ الإبراهيمي رسائل من الشيخين العربي تبسي وأحمد توفيق المدني، ولا أدري ما حملني على النزول عند الشيخ الإبراهيمي في مكتبه بمركز جمعية العلماء بالقاهرة ليلاً، حيث أقمت عنده خمسة عشر يوماً»³، ومما زاده دعماً في فهم أحداث الثورة الجزائرية إضافة إلى علاقته مع هؤلاء الفاعلين هو الاطلاع اليومي على الصحافة المحلية بمصر وما تنشره من أحداث الثورة الجزائرية خاصة وأن مصر كانت مدعماً للثورة الجزائرية وناصرة لها، وكذلك ما تنشره تلك اليوميات المصرية من مقالات دولية تعالج الوضع الثوري بالجزائر من طرف كاتب عالميين، إضافة إلى الصحف والمجلات التي كان يطالعها سعد الله مثل صحيفة روز اليوسف، ومجلة الآداب

¹ أحمد دوغان: في الأدب الجزائري الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب ط1، دمشق، 1996م، ص362.

² ينظر أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية، (مرجع سابق)، ص46.

³ مصطفى عبيد: النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله، 1960/1940م، مجلة عصور الجديدة في عددها الخاص بأبي القاسم سعد الله، مخبر البحث التاريخي جامعة وهران، العدد 13 أبريل 1435هـ/2014م، ص242.

التي كان يرأسها، والتي نشرت له أعمالا تعرف بالجزائر وبأدبها وتاريخها وحضارتها، وتاريخ الاستعمار فيها.¹

وبعد ذهابه إلى دار العلوم بالقاهرة تفتت قرائحه الإبداعية وراحت تشق طريقها نحو عالم النشر، وبالموازاة مع دراسته استطاع هذا الشاب الذي جاء إلى القاهرة بطريقة فيها الكثير من المغامرة والمخاطرة؛ أن يجمع بين الحُسْنَيْنِ فكان الأول في الترتيب دائما، متفهما لوضعه وكيف وصل إلى القاهرة بقليل من الزاد متحديا كل المخاوف في الالتحاق بركب العلو والعلماء، وفي دار العلوم التي تحققت طموحاته بالانتساب إليها، وجد نخبة من العلماء المحققين الذين أخذ عنهم أصول العلم وحقائق المعرفة، فكان من أساتذته في دار العلوم المحقق الكبير الأستاذ عبد السلام محمد هارون، والأستاذ الدكتور سامي الدهان، والأستاذ الدكتور عمر الدسوقي وغيرهم.²

وفي تلك الأثناء؛ اشترك في العديد من النشاطات الثقافية شعرا ونثرا وإبداعا في القصة والرواية والنقد، وكثف من مطالعاته المتنوعة، فكانت مرحلة خصبة توازي فيها التكوين العلمي الرصين وإشباع الرغبة من المطالعة، وتمكن في نهاية المطاف من الانتصار لثورته بطبع باكورة إنتاجه الشعري (النصر للجزائر) في دار الفكر بالقاهرة سنة 1957م.³

وفي عام 1960م تقدم سعد الله بطلب منحة للدراسة في الخارج إلى وزارة الثقافة الجزائرية، والتي قبلت طلبه وقدمت له منحة للدراسة في أمريكا، وفي 9 نوفمبر 1960 توجه إلى تونس لإتمام إجراءات السفر، أين تحصل هناك على جواز السفر التونسي، ومنها رحل إلى الولايات المتحدة، حيث يقول سعد الله عن نفسه: «كانت هذه أول مرة

¹ - ينظر: مصطفى عبيد: النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله، 1960/1940م، مجلة عصور الجديدة في عددها الخاص بأبي القاسم سعد الله، ص 242.

² - ينظر: عاشوري قمعون: أعمال الملتقى الدولي حول سعد الله مؤرخا ومفكرا بقلم يومي 14/13 ديسمبر (2015م)، جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي، ص 25.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 26.

أُعرِّف فيها على بلد غير عربي، غير أنّ أهم مشكلة كان علي أن أحلها بسرعة هي اللغة»¹.

وفي ربيع عام 1961 سجل بجامعة منيسوتا بأمريكا بقسم التاريخ تحت إشراف الدكتور "هارولد سي دويتش"، حيث قضى سعد الله بهذه الجامعة خمس سنوات توجت بحصوله على شهادة الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية سنة 1962، ثم على شهادة الدكتوراه في التخصص ذاته سنة 1965، وأثناء تواجده بأمريكا انضم إلى فرع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، جمعية الطلبة العرب بأمريكا وكندا، وجمعية الطلبة الأفريقيين بمنيوتا.²

وفي العام نفسه عمل أستاذا للتاريخ في جامعة "ويسكن بأوكليفر"، إلا أن إقامته لم تطل في أمريكا، ليعود إلى الجزائر إلى هيئة التدريس في قسم التاريخ بجامعة الجزائر كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

ولعل المتتبع لحياة سعد الله يجد فيها نوعا من العصامية، حيث جمع بين القديم والحديث، وبين العربي والغربي، وبين الأدب والتاريخ حيث يقول بهذا الصدد: «كنت كثير القراءة، أجب كتابا أدبيا صغير الحجم أو متوسطا، ولا أنام إلا إذا أكملته»³ وعندما أخذت أتعلم في الدراسات التاريخية لم أهمل المطالعة في المدرسة الفرودية لأن معظم المؤرخين المعاصرين الذين وضعوا أسس المدرسة التاريخية الحديثة؛ كانوا متأثرين بأدبيات عصر الصناعة والعلوم الفرعية "كعلم الاجتماع"، وعلم النفس⁴ وغيرها.

ثم يؤكد أن التاريخ لا ينفصل عن الأدب، فهو مرتبط به ارتباطا وثيقا ذلك أنه «من الخطأ أن نحصر التاريخ في قيام الدولة وسقوطها وتصادم الجيوش وسير الملوك

¹ ينظر: عاشوري قمعون: أعمال الملتقى الدولي حول سعد الله مؤرخا ومفكرا، ص 47/46.

² ينظر: أحمد دوغان: في الأدب الجزائري الحديث، (مرجع سابق)، ص 366.

³ أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية، (مرجع سابق)، ص 51.

⁴ ينظر: أبو القاسم سعد الله: حوارات، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت 2000م، ص 107.

والعلاقات الدبلوماسية، إن التاريخ اليوم أصبح يشمل ميادين الفنون وتاريخ الآداب، وأعرف اليوم في بعض الجامعات الأجنبية أنهم يدرسون التاريخ عن طريق الشعر¹. ثم يدعو الباحث إلى أن يكون متعدّد التخصصات ولا يحصر نفسه في مجال واحد لأنّ «تراجم العلماء منذ القديم تزدهم بالنماذج، ونحن نعرف أنّ ابن خلدون مؤرخ وعالم الاجتماع وفيلسوف، ولكن قلّ من يعرف أن له ديوان شعر»²، كما أنّ علماء الإغريق والرومان، والعرب، وعلماء أوروبا أثناء عصر النهضة وحتى العصور الحديثة كانوا يجمعون بين عدة اختصاصات فيكون الواحد منهم مؤرخاً، ومحدثاً وفقهياً ومفكراً وشاعراً، وهكذا فالحدود قد تكون منعدمة بين العلوم والآداب والفنون ولكن عصرنا ابتلي بظاهرة التخصص حيث أقمنا الحدود الفولاذية بين أنواع المعرفة حتى أنّ الواحد منا لا يكاد يعرف شيئاً خارج موادّه الدراسية³، وفي هذا توجيه إلى ضرورة الاقتداء بالعلماء القدامى و الانفتاح على العلوم الأخرى والاستفادة منها وهو ما عرف عن كتابة العلماء القدامى بالكتابة النثرية الموسوعية.

ثم يضيف: لا أدعي أنني جمعت بين علوم الأرض وبرعت فيها، ولكن أدعي أنني أحب الشعر وأتذوّقه، وتستهويني الموسيقى الجميلة الراقية، ولي أحكام نقدية على ما أقرأ من شعر ونثر، وأهوى التاريخ، وسير الأمم وشعوبها، وأستعذب القراءة في العلوم الحديثة علم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة ولعلني أبعد ما أكون عن علم الطب والرياضيات وما شابهها، وإذا كان في ذلك إلغاء للحدود الفكرية فإنني من دُعائِهِ، وإذا كان تخصصاً رغم ذلك فإنني من هُوَاتِهِ⁴.

¹— أبو القاسم سعد الله: حوارات، دار الغرب الإسلامي، ص209.

²— المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³— ينظر: أبو القاسم سعد الله: قضايا شائكة، دار العرب الإسلامي، دط، بيروت لبنان 1989م، ص86.

⁴— ينظر: المرجع نفسه، ص47.

كما أنّ الثّورة الجزائريّة أثّرت على شخصيّة سعد الله، وكانت له دافعا لدراسة التاريخ والبحث فيه، والتّعرف على انجازات الأجداد، ومقارنة ما فعله السلف بما وصل إليه الخلف في الحروب والعلوم والحاضرات.

هذا؛ وقد ساعدته كثرة المطالعة على تكوين شخصيته المتنوعة المواهب، فقد كان دائما ملازما لمحفظته لتسجيل أي معلومة دقيقة حصل عليها، ولكن هذه المحفظة ضاعت منه وحزن حزنا شديدا لفقدائها، لأنها كانت تضم جهد عشرين سنة من البحث والتنقيب، فقال عنها: « يتعازى الناس عند فقد الولد والحبیب، ويتواسون عن المصاب في المال والمتاع، ولكنهم قلّمًا يتواسون عند ضياع ثروة ثقافية جُمعت بعرق الجبين وكتبت بعصارة العيش، ففي غفلة من الزّمن ضاعت مني محفظتي اليدوية التي يعرفها كل من يعرفني من عشرين سنة؛ محفظتي المتآكلة الأطراف، التي أصبحت تنافسني في تقدم العمر والتآكل أيضا».¹

2.5. ثقافته ونشاطاته:

وعلى المستوى الثقافي؛ فإنّ سعد الله نذر نفسه للتعريف بالفكر الوطني، ونضال الشعب الجزائري الثقافي، وفي هذا الصدد نشر عدة أبحاث عن الأدب الجزائري ورجاله في الدوريات العربية، كما نشر كثيرا من الشعر الوطني، منه: (شعارات)، التي ألقيت في مهرجان الذكرى الثانية للثّورة، و(الطين) التي كانت آخر قصيدة تنشرها البصائر قبل اجتياحها و(المروحة) عن قصة الاحتلال، وإصرار عن إضراب 1957 ومجموعته النصر للجزائر (1957م)، ودراسته الأدبية عن محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري سنة (1961م)، ولنا في هذه الأسطر الموجزة عن أبي القاسم سعد الله مقتطفات عن أهم إبداعاته ونشاطاته في مختلف الميادين:

¹ - أبو القاسم سعد الله: في الجدل الثقافي، عالم المعرفة الجزائر في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، دط، 2011م، ص 29.

1.2.5. القصة:

مما هو معروف أنّ أبا القاسم سعد الله قبل أن يتجه إلى مجال التاريخ درس الأدب وأبدع فيه، لاسيما خلال سنوات الثورة التحريرية حيث برز كتاب كثيرون منهم أبو القاسم سعد الله، إذ بدأ اهتمامه بالقصة في وقت مبكر، منها ما نشر ومنها ما لم ينشر، من أشهرها (سعة خضراء) 1954م، والتي ألّفها خدمة للأدب الجزائري الحديث.

والسبب في تأليفه للقصة هو خلو الأدب الجزائري من الكتابة في هذا الجنس الذي أصبح مادة أولى لفهم الآداب العالمية، ورائده في ذلك خدمة أدبنا الحديث ليتمكن من مواكبة النهضة العربية في مختلف الأقطار.¹

2.2.5. الشعر:

يؤكد معظم الدارسين على أنّ البداية الفعلية والجادة للاتجاه الحرّ في الشعر الجزائري كانت مع ظهور أول نص من الشعر الحرّ في الصحافة الوطنية، وهو قصيدة طريقي لأبي القاسم سعد الله المنشورة في جريدة البصائر عام 1955م، فبتمرده على القوالب الجامدة طرق باب الشعر الحر، ولعلّ الدافع الذي دفعه إلى ذلك هو رغبته الجامحة في تقريب الشعر الجزائري من الشعر الإنساني، ويقول عن ذلك: كنت أتابع الشعر الجزائري منذ سنة 1947م باحثا فيه عن نفحات جديدة وتشكيلات تواكب الذوق الحديث، ولكنني لم أجد سوى صنم يركع أمامه كل الشعراء بنغم واحد وصلاة واحدة، ومع ذلك فقد بدأت أول مرة أنظم الشعر بالطريقة التقليدية؛ أي كنت أعبد ذات الصنم وأصلي في نفس المحراب... غير أنّ اتصالي بالإنتاج العربي القادم من الشرق واطلاعي على المذاهب الأدبية والمدارس الفكرية والنظريات النقدية حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلص من الطريقة التقليدية في الشعر الجزائري²، وهو ما جعل القصيدة الجزائرية تتخلص من قيود الوزن والقافية، كما جعل سعد الله يحمل لواء الريادة في كتابة الشعر

¹ - ينظر أبو القاسم سعد الله، سعة خضراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1986م، ص05.

² - ينظر أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد، ط5، الجزائر 2007م ص50-51.

الحرّ فكان أول من نشر الشعر باللون الجديد في الجزائر وهو ما قاله محمد ناصر: «إنّ الشّاعر الجزائري الوحيد الذي اتجه إلى الشعر أي-الشعر التجديدي- عن وعي واقتدار وحاول التجديد في الإشكالية الموسيقية في بنيتها التعبيرية هو أبو القاسم سعد الله»¹، وهو ما ذهب إليه الكاتب عبد الملك مرتاض حين قال: «وأيا ما كان الشأن؛ فإنّ لأبي القاسم سعد الله فضل سبق والريادة وهو محمود المسعى على ما بادر إليه من هز القصيدة العمودية»²، لذلك فهو من الأصوات الشعريّة البارزة إبان حقبة زمنية من تاريخ الجزائر، ولعلّ أبرز ما يميز هذا الصوت الشعري أنّ ديوانه يمثل مظهرا فكريا معاكسا لغيره، بحيث يجد فيه الباحث صوتا شعريا متميزا، إضافة إلى القصائد التي تنتمي إلى الشعر الحرّ التي وضعت القارئ في مواجهة تحديات الحداثة.

3.2.5. التاريخ

إلى جانب الدراسات الأدبية؛ خاض أبو القاسم سعد الله مجال التاريخ، بل تفرغ لكتابة تاريخ الجزائر وخاصة الثقافي منه، ولا أدلّ على ذلك من كتابه المشهور (تاريخ الجزائر الثقافي) الذي طبع في تسعة أجزاء بالإضافة إلى مؤلفات أخرى، فالتاريخ عند سعد الله هو مجلّى النظر ومحط الرّحال، يقول عن ذلك: «أما التّاريخ عندي فهو مجلّى نظري ومحط رحالي بعد أن جُلّت في الأدب والشعر واللغة وعلم النفس، وغيرها من العلوم والفنون»³.

ومن الدوافع التي دفعت سعد الله إلى كتابة التاريخ والبحث فيه؛ هي الثّورة الجزائرية من أجل مقارنة ما فعله الأجداد بما توصل إليه الآخرون في الحروب والعلوم والحضارة، فقد كرّس حياته لكتابة تاريخ الجزائر الحديث وخصوصا الجانب التراثي، فمعظم كتابات سعد الله التاريخية تتجه لدراسة التّراث الوطني الجزائري، بل يدعو

¹ محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925/1975م)، دار الغرب الإسلامي، ط1 لبنان 1985م، ص152.

² عبد الملك مرتاض: معجم الشعراء الجزائريين في القرن 20، دار هومة، دط، الجزائر، 2007م ص452.

³ أبو القاسم سعد الله: حوارات، (مرجع سابق)، ص203.

الباحثين إلى مراجعة التاريخ الجزائري، إذ يقول: «لابدَّ من مراجعة تاريخ الشعب الجزائري، وتعهده بالتنقيح بواسطة كل جيل بما يملك من ثقافة ووثائق وقدرات على التحليل والبحث»¹، وهكذا يدعو سعد الله إلى مراجعة كتابات الأجيال السابقة حتى يزيل عنها كل ما تعلق بها من تحيز غير مُسوَّغ أو أخطاء، لقد كتب سعد الله تاريخ الجزائر الكامل فبدأ بكتابة تاريخ الجزائر السياسي وانتهى بمشروعه الضخم تاريخ الجزائر الثقافي.

3.5. مكانته العلمية:

لم يكن سعد الله رجلاً عادياً بل كان -كما قيل عنه- شيخَ المؤرخين، أدبياً وناقداً وعالماً موسوعياً، إنَّ سعد الله شبيهه بالعالم الجليل أبي عبد الله محمد الشريف التلمساني في كونه كان مُحِبّاً لوطنه رغم الحظوة التي نالها عند السلطان، إلاَّ أنَّه آثر العودة إلى بلده على البقاء بفاس، وكلاهما كان شغله الشاغل تدريس الطلبة وتكوينهم.²

كان رحمه الله يتميز بالفطنة والذكاء والتدقيق وقوة الملاحظة، والتحليل المنهجي للوقائع والظواهر والتنبؤ بأحداث أثبتت الأيام صحتها، وقد قال عنه البشير الإبراهيمي: إنَّه الشغوف إلى حد الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور³، وإنَّ موسوعته عن التاريخ الثقافي للجزائر لدليل على منهجه العلمي الدقيق.

لقد آتت المدرسة التاريخية الجزائرية أكلها على يد "أبي القاسم سعد الله"، وأبغت ثمارها في كل جامعات الوطن، فقد سلخ هذا الرجل زهرة شبابه، وكهولته وشيوخته في سبيل العلم، وأحبَّ الكتابة ومتابعة البحث، وأصبحت الكتابة عنده حرفة تلازمه، يدون ويلاحظ ويتساءل عن فكرة، يبحث عن مخطوط، يحاور من أجل اكتشاف حقيقة علمية تنير دروب البحث.⁴

¹- أبو القاسم سعد الله: حوارات، (مرجع سابق)، ص 135

²- ينظر: محمد الأمين بلغيث: رحيل شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، (مرجع سابق)، ص 320.

³- ينظر: عاشور يغمون: أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله، (مرجع سابق) ص 40.

⁴- ينظر: المرجع نفسه، ص 30.

ومثلما أبدع المقرري في موسوعته نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، أبدع أبو القاسم في موسوعته تاريخ الجزائر الثقافي.¹

أبو القاسم سعد الله من الذين أخلصوا للبحث وأنجزوا ما حقق القيم المضافة بالتضاعف للمكتبة التاريخية الوطنية، وموسوعته تاريخ الجزائر الثقافي مرجع لاغنى عنه وجهد جبار لا ينجز عادة إلا من طرف فرق بحث، ففي مسار سعد الله نجد التعدد والريادة التعدد في العطاء والريادة في كل مجال أبدع فيه، والأستاذ سعد الله شعريا يذكر مع محمد صالح ضمن رواد التحول في الكتابة الشعرية الجزائرية.²

من خلال ما سبق؛ نخلص إلى أن لكاتبنا أبو القاسم سعد الله مسيرة حافلة بالنشاطات العلمية والثقافية، فهو عالم موسوعي ومبدع في مجالات شتى، وهو الصادق المخلص في عمله ولوطنه، إذ كان جبلا شاهقا ومثالا يُحتذى به، في تكريس حياته لخدمة العلم، فأغنى مكتبات العالم والوطن بمؤلفاته المتنوعة المتعددة.

4.5. وفاته:

توفى أبو القاسم سعد الله عن عمر يناهز ثلاثة وثمانين عاما وكان يوم 14 ديسمبر 2013م، خلفا فراغا كبيرا وسط الأسرة العلمية والثقافية والأمة الجزائرية جمعا، تاركا من الآثار أعمالا جمّة ثريّة ونفيسة.

¹ - ينظر: محمد الأمين بلغيث: رحيل شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله (مرجع سابق)، ص. 321.

² - ينظر: حنيفي هلايلي: التاريخ لمسار قلم أبو القاسم سعد الله مؤرخا لعلاقة التفاوت والتاريخ من خلال المذكرات والاعترافات مجلة الحوار المتوسطي، العدد السابع ديسمبر 2014، جامعة سيدي بلعباس، ص. 35.

5.5. الإنتاج العلمي:

ترك أبو القاسم سعد الله زخما معرفيا شاهقا أثرى به المكتبات العالمية والوطنية, وقد تجاوزت مؤلفات سعد الله الأربعين مؤلفا في مجالات مختلفة , بالإضافة إلى مئات المقالات والمحادثات والحوارات, كما كان أستاذا زائرا في العديد من جامعات العالم محاضرا ومدرسا ومشرفا على الكثير من البحوث والدراسات وفيما يلي نذكر أهم المجالات التي برز فيها.

1.5.5. في مجال الأدب:

- النصر للجزائر (شعر).
- ثائر وحب (شعر).
- المزمّن الأخضر (ديوان).
- سعة خضراء (قصص).
- دراسات في الأدب الجزائري.
- شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة.
- القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني.
- تجارب في الأدب والرحلة.
- مختارات مجهولة من الشعر العربي.¹

2.5.5. في مجال التاريخ

- الحركة الوطنية الجزائرية.
- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر.
- تاريخ الجزائر الثقافي.
- الجزائر وأوربا.

¹ - أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا ص 78

- شعوب وقوميات.
- حياة الأمير عبد القادر.
- محاضرات في تاريخ الجزائر¹.

3.5.5. التحقيق:

- تاريخ العدوانى.
- حكاية العشاق في الحب والاشتياق.
- رحلة ابن حمادوش (لسان المقال).
- رسالة الغريب إلى الحبيب.
- منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية².

4.5.5. الترجمة:

- شعوب وقوميات الجزائر 1985م.
- الجزائر وأوربا.
- الجزائر في العهد العثماني.
- حياة الأمير عبد القادر.
- الحركة الوطنية الجزائرية في ثلاثة أجزاء.
- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)³.

5.5.5. المقالات:

- أخبار الحاج ديكارت، في الشعب 8/06/1989م
- الأدب الجزائري الحديث، في المجاهد الثقافي فصلية 1968م.
- أرض الملاحم، في مجلة الآداب 1954م.

¹- أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا ، ص78

²- رحيل شيخ المؤرخين أبو القاسم سعدا لله بقلم أحبابه، ص.22/21

³-المرجع نفسه ، ص22/23.

- أزمة المثقف الثوري في الوطن العربي، في مجلة الآداب 1966م.
- أشباه الرجال، في الشعب 1982م.
- إشكالية الكتابة التاريخية، في الشعب 1991م.
- واحتلال الجزائر، أرسلت سنة 1967م من أمريكا.

6.5.5. البحوث:

- العلاقات الدبلوماسية بين أمريكا ودول المغرب العربي.
- قصيدة سياسية لابن ميمون في الثقافة.
- الشاعر المفتي ابن الشاهد واحتلال الجزائر.
- العثور على النسخة المسروقة من مخطوط تحفة الزائر.
- رحلة سورية منسوبة إلى الأمير عبد القادر.
- مقامة لأحمد البوني إعلام الأبحار.
- الشيخ الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية الفرنسية.
- الرحلات الجزائرية الحجازية، نشرت بالعربية والإنجليزية، في وقائع الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية.
- الأدب الجزائري مؤثراته وتياراته في مجلة الرسالة.
- تصميم للشعر الجزائري الحديث¹.
- وغيرها من البحوث والمقالات والكتب التي ملأت بل أثرت المكتبات الوطنية والعالمية.

وخلاصة القول إن التراث ملازما للثقافة ومرتبط بها، وتكمن أهمية التراث في المواد الثقافية التي تميز مجتمعا عن آخر فيقتدي به الجيل المعاصر ويتخذه كهوية مستقلة تميز ثقافته بين الشعوب والأعراق، والرحلة ما هي إلا شكل من أشكال التواصل الثقافي

¹- أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا، ص 23/24.

بين الشعوب، وهي دليل القارئ في متاهات المجهول من البلدان و الأجناس يرافقه خطوة بخطوة، ويأخذ بيده برفق، ليصل به إلى الغاية الكبرى المتمثلة في الكشف عن كل ما يحيط به، من ظروف، و حيوات على كافة الأصعدة. وقد مارس هذا الفن الكثير من الكتاب والدارسين سعياً منهم للتعريف بالمغمورين من الأدباء، وإخراج المهمل من كنوز التراث فالأعمال التراثية باختلافها وتنوعها تشكل مجالاً دراسياً متجدداً.

الفصل الأول: الرحلة في الأدب العربي.

تمهيد.

1. مفهوم أدب الرحلة نشأته ومراحل تطوره.
2. دواعي الرحلة أهميتها وأنواعها.
3. أهمية أدب الرحلة.
4. أنواع الرحلة.
5. أهم الرحالة والرحلات الجزائرية.

- تمهيد

لقد خلق الإنسان مطبوعاً على الحركة والانتقال؛ لمعرفة الآخر واكتشاف العالم المحيط به، حيث تشير كتب المؤرخين إلى أنّ العرب عرفوا الرحلة قبل الإسلام من خلال اهتمامهم بالتجارة خارج أوطانهم، خاصة مع الشام والعراق واليمن، ويصف الرحالة ما يرونَ ومن يرون وكل ما يحيط بهم، وبهذا أصبحت الرحلة أشبه بالموسوعة الثقافية، فليس عجباً أن تكون الرحلة من أبرز ما يميز البشر، وعلى أيّ حال هي حاضرة دوماً في الضمير الجمعي الإنساني، وهذا ما جعل هذا الجنس الأدبي يختلف عن بقية الأجناس الأدبية.

تعد الرحلة الجزائرية امتداداً طبيعياً لرحلات المغرب العربي، كون الجزائر تمثل جزءاً لا يتجزأ من المغرب العربي الكبير، وتتوعدت رحلات المغاربة نحو المشرق بتنوع مقاصدها وأهدافها، وتعددت بتعدد أسبابها وحوافزها، وأغلب هذه الرحلات كانت حجازية، وإن كان فيها توسع إلى أماكن أخرى، فإنّ نقطة الذهاب والعودة هي أرض الحجاز، للوقوف على الأرض الطيبة والمباركة ووصفها بما يليق بجمالها، ويكفي أن تكون مكة قبلة الجميع، وأن يحج إليها المسلمون كل عام.

وقد كان للعلماء الجزائريين نصيب من الحظ في إثراء مكتبة الرحلات، ونقل الثقافة الجزائرية نحو البلدان العربية الأخرى، لاسيما خلال حكم الدولة العثمانية، «ومن المعلوم أن العلماء الجزائريين في هذه المرحلة عانوا كثيراً من ظلم الحكام العثمانيين، فمنهم من سجنوا ومنهم من هاجروا إلى المغرب الأقصى أو المشرق، فمنهم من عاد ودون رحلته ومنهم من لم يعد كالمقري التلمساني»¹، ولهذا كثرت رحلاتهم وكان فيهم من دون رحلته

¹ - الطاهر حسيني: أطروحة دكتوراه الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناؤها الفني أنواعها وخصائصها، جامعة قاصدي مبراح ورقلة، 2013/2014م، ص64.

ومنهم من أمسك عن الكتابة، كما أن منهم من خلف مخطوطات لا تزال تنتظر من يحققها.

1. مفهوم أدب الرحلة، نشأته ومراحل تطوره.

1.1. مفهوم أدب الرحلة :

احتل أدب الرحلة موقعا بارزا في التراث العربي؛ نظرا للمخزون الكبير من المؤلفات والمخطوطات التي تناولت تفاصيل الرحلات المتخلفة الوجهة، إضافة إلى أن الكثير من الرحالة كانوا من كبار علماء الإسلام، وقد أغنت أعمالهم هذه المكتبات الأدبية نظرا لما تمتاز به من جمال اللفظ وحسن التعبير، والوصف الدقيق.

وبعد أن حددنا مفهوم الرحلة في اللغة والاصطلاح سنحاول تحديد مفهوم أدب الرحلة باعتباره فنا من فنون النثر، والدقة في تحديد مصطلح أدب الرحلة صعب نوعا ما كتعريف أي جنس أدبي آخر، وهذا لتداخل هذا الجنس الأدبي -أدب الرحلة- مع خطابات أخرى متعددة كالرسائل والسيرة الذاتية والأدب والجغرافيا وغيرها.

عرّف عبد الله الركيبي أدب الرحلة بقوله «هو فن من الفنون الأدبية التي شاعت لدى العرب منذ القديم وهو فن له خصائصه المعينة، لأنّ الحديث عن الأمم والبلدان ووصف المجتمعات التي يمر بها الرحالة أو يقصدها إنما يصور لونا من ألوان القصّ»¹

بل إنه كما يقول شوقي ضيف: «الفن الذي يرفع التهمة التي ترى أنّ الأدب العربي لم يعالج فن القصّة»²

¹ - عبد الله الركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2009م، ص55.

² - شوقي ضيف: الرحلات: دار المعارف، ط4 مصر، 1987م، ص06.

ويعرفه عمر بن قينة بقوله: «هو لون أدبي ذو طابع قصصي، فيه عموماً فائدة للمؤرخ مثل الباحث في الأدب، والجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم، كما هو ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة ظروف وأوضاع، وفي اكتشاف معالم وأقطار ووصفها، والحكم عليها وعلى المجتمع فيها، فهو وصف في النهاية لكل ما انطبع من ذلك وسواه في ذهن الرحالة، عبر مسار رحلته».¹

فيما عرّف معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب أدب الرحلة بأنه «مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلات في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة أو يجمع بين كل هذا في آن واحد»²، بالمقابل نجد عبد الرزاق الموفائي يكتفي بأنه «تأثر الكاتب بعالم جديد لم يألفه والانطباعات التي تركها في نفسه، فهي بذلك مغامرة ممتعة تقوم بها روح حساسة في أمكنة جديدة وبين أنا سلم يكن لها بهم سابق عهد، فالرحلة إذن ليست سوى تجربة إنسانية حية يتمرس بها ويخرج منها أكثر فهما وأصدق ملاحظة وأغنى ثقافة وأعمق تأملات».³

فأدب الرحلة أدب وصفي ذو طابع إخباري تسجيلي، يهتم بجمع أخبار البلاد والعباد وتسجيل المشاهد الغريبة والطريفة، ويتسم بسمات تاريخية وجغرافية لاهتمامه

¹ - ينظر: عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث، تاريخاً، وأنواعاً، وقضايا وأعلاماً، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون ط2، الجزائر، 2009م، ص97.

² - مجدي وهبة كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية (مرجع سابق)، ص17.

³ - عبد الرزاق الموفائي: أدب الرحلات عند العرب الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة الوفاء الجامعة المصرية ط1، 1415هـ/1995م، ص39.

بحياة الناس وتقاليدهم وأنماط عيشتهم، كما يتميز بمضمونه الفكري والاجتماعي وأسلوبه الأدبي المتميز.¹

وتقف أسماء أبو بكر موقفاً مماثلاً في تعريف أدب الرحلة بأنه «فن من فنون القول العربي، يصف مجالات الحياة عند الرحالة الذي سجل رحلته بنفسه، أو حكاها لغيره ثم سجلها هو له»².

وكما جاء في المعجم المفصل في اللغة والأدب: «أدب الرحلة هو ذلك الأدب الذي يصف الكاتب من خلاله انطباعاته ومشاهداته في الأقطار المختلفة التي يرويها وتشتمل على وصف الطبيعة الجغرافية، كما اشتمل على السفر وقطع المسافات، ووصف عادات الناس وتقاليدهم، وأنماط حياتهم وتفكيرهم ونُبدأً عن تاريخهم البعيد والقريب مما يجعلها في بعض الأحيان مرجعاً وثائقياً وتاريخياً هاماً، وقد عرف العرب أدب الرحلة منذ زمن بعيد»³.

من خلال هذه التعريفات المتعددة الجوانب والمنتوعة المشارب؛ يتضح لنا أن أدب الرحلة فن نثري يقوم على رحلة شخص ما في الواقع، وما يرويها الرحالة من انطباعات ومشاهدات في الأقطار المختلفة التي مر بها، وتعرف من خلالها على عادات وتقاليد البلدان التي مر بها والتي أحدثت في نفسه انفعالا ينعكس في الأعمال الأدبية شعراً أو نثراً، فيمزج في وصفه بين شخص الرحالة من جهة والرحلة كموضوع من جهة أخرى، لذا هو وثيقة تاريخية مهمة تزخر بالعبر والعلوم المختلفة، والهدف منه التأثير في القارئ والتواصل معه وحشوه برغيف معرفي وثقافي عن أماكن متعددة دون تكلف أو عناء

¹ - ينظر: عبد الصمد عزوزي: الرحلة في المغرب العربي دوافعها، أنواعها، روادها، مجلة دراسات أدبية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع الجزائر، ع08، 2010، ص134.

² - أسماء أبو بكر: ابن بطوطة الرجل والرحلة، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، 1992م، ص11.

³ - إميل بديع يعقوب: المعجم المفصل في اللغة والأدب (نحو صرف، بلاغة، عروض،)، ميشال عاصي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1987م، 61/1.

إضافة إلى أنه يشكل ظاهرة أدبية تتداخل فيها عدة عناصر مختلفة، لذلك فهو نص مفتوح، نتيجة لتداخل مجموعة مكونات ثقافية، اجتماعية، سياسية... الخ، ويمكن القول إنه فن قائم بذاته له أصوله وقواعده الخاصة به شأنه في ذلك شأن بقية الفنون الأدبية الأخرى.

2.1. جذور الرحلة في التراث العربي.

إنّ لأدب الرحلة جذورا في التراث الأدبي القديم «فقد عرفته قبل العرب أمم أخرى كالفراعنة، والرومان والإغريق، ثم جاء الرحالة العرب الذين جابوا الآفاق واشتهر منهم كثيرون مشرقا ومغربا أمثال ابن بطوطة والإدريسي، والعبدي والعايشي وغيرهم»¹، فهذا الفن كان شائعا في التراث الإسلامي العربي، هذا وقد عني به كبار الأدباء، وكان أول من نوّه به هو القرآن الكريم كما قال تعالى: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ»²، وبهذا دعا الله المسلمين إلى السفر والارتحال من أجل التدبر والاعتبار في اختلاف الأوطان، والأجناس، والطبائع، وقد كانت تلك الدعوة تشجعا لهم على تحمل مشاق السفر انتفاعا في البداية بالخيرات، ثم تدريبا على حمل الرسالة ونشر الدعوة، ولم يتحقق نشر الدعوة إلا بعد أعظم رحلة في تاريخ البشرية وهي التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»³، فقد جاءت هذه الرحلة لهدف رباني لا يخرج عن أهداف الرحلة وضرب المثل في القرآن

¹ - عبد الله الركبي: تطور النثر الجزائري الحديث، (مرجع سابق) ص 55.

² - سورة النمل الآية 69.

³ - سورة البقرة الآيات (35-36-37-38)

الكريم، من أجل تثبيت العقيدة وتقوية الإيمان ومن المعلوم أنّ أول رحلة قام بها الإنسان على وجه الأرض هي رحلة آدم عليه السلام وحواء فمنذ أن وضع آدم عليه السلام قدمه على ظهر الأرض بدأ في سعيه إلى اكتشاف المحيط الذي يعيش فيه، وهذا ما جعله يسجل رحلته ليستجلي بها غوامض الكون من حوله إذن فالرحلة قديمة قدم الإنسان.

عرف العرب السفر ومارسوا الترحال في شبه الجزيرة العربية والبلدان المجاورة، حيث اشتهرت رحلات الشتاء والصيف كما ذكر القرآن الكريم رحلات العرب في الجاهلية إلا أنها كانت رحلات تجارية، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَيْلًا قَرِيشٍ إِيْتَا فِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾، حدث هذا كله قبل مجيء الإسلام وقد كبرت الحاجة إلى ذلك بعد انتهاء الفتوحات الإسلامية، «لمعرفة البلدان والمسالك والمحطات وأحوال الناس الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية وسواها»¹.

وتنقل الناس وسافروا وتغربوا عن أوطانهم طلبا للعلم ورغبة في تحصيله، وسعيا لاكتسابه والنبوغ فيه «فقد رحل اللغويون والنحويون ورواة الشعر، إلى القبائل الخالصة للأخذ عنها، ورحل المحدثون إلى الصحابة، لأنهم عايشوا النبي صلى الله عليه وسلم وأخذوا من فمه، ورووا عنه معانيه، ثم رحلوا إلى من أخذ من أفواه الصحابة رضوان الله عليهم»².

ويرجع تدوين الرحلة العربية إلى منتصف القرن الثاني الهجري؛ إذ دونت بعض الرحلات وكان مدونوها من أهل اللغة يتقدمهم اللغوي المؤرخ هشام الكلبي نحو (606هـ) الذي صنف مجموعة من التصانيف، وهذا النوع من النثر لم يأخذ في بداية الأمر اسم رحلة، وعناوين بعض المؤلفات دليل على ذلك منها (مروج الذهب، البلدان) وغيرها، أما

¹- عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث، (مرجع سابق)، ص98.

²- حسين نصار: أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، الجيزة مصر، 1991م، ص34

لفظ رحلة فأول من أطلقها على مؤلفه هو ابن جبير، ولقد ورد ذلك في مقدمة الرحلة المغربية للعبدي، يقول المحقق: «وكلمة رحلة ليست من ابتكار العبدي فأول من سمى هذا النوع من الكتابة رحلة هو أحمد بن جبير المتوفى سنة 214هـ، فهو إذن مؤسس فن الرحلة»¹.

3.1. نشأة آداب الرحلات:

1.3.1. نشأة أدب الرحلة في العالم

كانت البدايات الأولية لأدب الرحلات في الانطباعات والملاحظات التي سجلها الرحالة الأوائل في رحلاتهم ومغامراتهم المختلفة، وفي كثير من الأحيان كانت هاته الانطباعات على شكل مواقف تنقل شفاهة من لسان إلى آخر، دون تكاليف محدودة عن السرد، وبمرور الزمن تغيرت هذه النظرة البدائية إلى نوع من أنواع الأدب الذي سيحمل فيما بعد سماته ومميزاته الخاصة به.

وأول من وضع أسس هذا العلم «هم الفينيقيون، أقدم تجار العالم وأكثرهم أسفارا فقد اطلعوا في أثناء أسفارهم، على أحوال كثير من البلدان، وعرفوا المسافات بينها واطلعوا على تواريخ شعوبها وأخبارهم»، وهاهم رجال الإسكندر في حملتهم على العالم، واختراقهم آسيا إلى بلاد الهند، يشتغلون بجمع أخبار أوساط آسيا وأعاليتها².

وكان المقصود بهذه الملاحظات والتسجيلات للرحلات الشخصية تقديم نوع مهمّ جدا من الوصف الجغرافي، مثل ذلك الذي وصلنا في أيام الإمبراطورية الرومانية، أو بعض الكتب التي ألفت تحديدا لوصف الملاح الجغرافية مثل كتاب بوزانائس (جولة في

¹ -محمد العبدي بالبلنسي: الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو مطبعة البعث نشر كلية الآداب الجزائرية ط1 قسنطينة، ص(ج) (المقدمة).

² -محمد العبدي بالبلنسي: الرحلة المغربية، ص25.

بلاد الإغريق) الذي كتبه عام 173م، والذي ترك بصمات واضحة على أدب الرّحلات حتى يومنا هذا¹، وكانت أغلب هاته الأعمال على شكل معلومات وصفية متقطعة، وفيما بعد توجهت الجهود إلى جمعها وترتيبها وضبط أجزاءها، وجعلها علما خاصا له أصوله وأسسها.

وبمرور الزمن تطوّر أدب الرّحلات وتحول الوصف السردى للرحلات من مجرد حشد لمعلومات متناثرة إلى معرفة متسقة مرسومة، و«كان أول من فعل ذلك أرسطين اليوناني المتوفى عام 199ق.م، وعقبه كثيرون أمثال الرحالة أسترابون والجغرافي بلينيوس حتى جاء بطليموس القلوذي في أوساط القرن الثاني للميلاد فألف كتابا وافيا في الجغرافية، فلما جاء الإسلام كان هذا الكتاب مستند الباحثين في تقديم البلدان وهو نفسه الذي ترجمه العرب في العصر العباسي وسموه جغرافية كما ترجموا كتاب بطليموس الثاني وسموه المجسطي، وإلى هذين الكتابين خاصة رجعوا في كتاباتهم»²، ثم أخذ أدب الرّحلات في العصور الوسطى «شكلا تقليديا وقالبا محفوظا، وخاصة الكتب التي ألفت كمرشد إلى الأراضي المقدسة، وكان من أشهر كتب الرّحلات التي كتبت في تلك المرحلة كتاب (المليون) الذي كتبه ماركو بولو عام (1299)، والذي قدم فيه اكتشافا جديدا للقارة الآسيوية، وغيرها»³.

وفي عصر النهضة - عصر الاكتشافات - المستمرة والمتواصلة أصبح أدب الرّحلات نوعا أدبيا متميزا وله جمهوره من القراء، ولم يفصل الكتاب كما قلنا من ذي

¹ - ينظر: نبيل راغب فنون الأدب العالمي، دار نوبار للطباعة والنشر، ط1، القاهرة 1996م، ص23.

² - المسعودي وآخرون: أدب الرحلة تاريخه، وأعلامه، (مرجع سابق)، ص26.

³ - ينظر: محمد حسين فهميم: الرّحلات اكتشاف للعالم والإنسان ع138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت يونيو 1989م، ص21.

قبل بين الوصف الجغرافي للرحلات وبين السرد القصصي لها «وبمرور الزمن تضاعفت وتكدست الأعمال التي تقع تحت بند أدب الرحلات، مروراً بالسجلات الكشفية التي قام بها آنسون وكوكفي القرن الثامن عشر، ووصولاً إلى الأعمال الموسوعية التي قام بها شركاء كثيرون في البعثات العلمية الشهيرة منذ أيام هامبولت، وقد تجلّت الوحدة العضوية بين الكشف العلمي والقيمة الأدبية»¹.

والجدير بالذكر؛ أنه ليس كل ما كتب في هذا يعتبر ضمن أدب الرحلات، فليس كل وصف وتسجيل يعتبر بمثابة أدب الرحلات، خاصة وأن هذا الأخير لم يتمتع بالشخصية المحددة كما تتمتع بها الأنواع الأخرى الأدبية، هذا وقد يظن الكثير أن أدب الرحلات يقل في قيمته وأهميته عن الأنواع الأخرى الأدبية، « لكن الترحال كان خطأ أساسياً وشبه دائم في الأدب الخيالي، كما نجده في ملاحم هوميروس ودانتي، كذلك كان ولا يزال راسخاً في الأدب الرومانسي في كل العصور»²، وفي هذا دلالة على أن أدب الرحلات لا يقل أهمية عن باقي الأنواع الأدبية الأخرى له منطقه وطرق بنائه الخاصة به.

2.3.1. نشأة أدب الرحلة عند العرب:

إنّ رغبة السفر وحب الترحال والتّقل متأصل في حياة الإنسان عامة والعربي بصفة خاصة منذ أقدم العصور، فقد مارس العرب الرحلة في جاهليتهم للتجارة وللبحث عن الكأ والماء كما ورد في القرآن الكريم من الإخبار عن رحلتي الشتاء والصيف وقد كبرت الحاجة إلى ذلك بعد انتهاء الفتوحات الإسلامية، ولهذا فقد راج هذا الفن في التّراث الإسلامي وذخائر العربية، وعني به كبار الكتاب والأدباء في تاريخه الثقافي والمعرفي الحافل، «كما نادى القرآن الكريم المسلمين إلى أن يتدبروا أحوال الأمم التي سادت وبادت وعمرت الأرض تم ذهب ريحها بعد أن تركت من الآثار ما يدل عليها، كما

¹ - نبيل راغب: فنون الأدب العالمي، (مرجع سابق)، ص 26.

² -مرجع نفسه، ص 29.

ناشدهم أن يطلبوا العلم الديني والدنيوي في أماكنه ومطانه التي اشتهرت به، ولو كانت بعيدة»¹، كما حثهم على التعارف والتي تعد الرحلة إحدى وسائله قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾²

وسرعان ما برزت الرحلة كفن أدبي مدون ابتداء من القرن الثالث الهجري بجهود بارزة من بينها عمل اليعقوبي (ت292هـ) صاحب كتاب البلدان الذي عبر فيه عن شغفه بالرحلة وتطلع لمعرفة الأوطان، وكذا معاصره البلاذري (ت272هـ) صاحب الفتوح. لم يلبث فن الرحلة في النثر العربي حتى شرع يعرف تطوراً كبيراً ويظهر كنوع أدبي في فجر النهضة العربية الإسلامية بعد انتهاء الفتوحات، فتآزرت في ذلك المادة العلمية والإطار الأدبي؛ فبرز المسعودي (ت346هـ) في كتابه مروج الذهب وغيره.

هذا وقد اعترف كثيراً من الباحثين الأجانب بفضل الرحالة العرب ونوهوا بقيمة رحلاتهم من حيث مادتها وأسلوبها، وطريقة عرضها، وقد شهد هذا الفن في المغرب الإسلامي ازدهارا كبيرا حتى عده بعض الباحثين من أبرز مميزات الأدب المغربي حيث قال «إنّ الاهتمام بتدوين الرحلات من أبرز مميزات الأدب المغربي على الإطلاق حتى أننا يمكن أن نقول إن أهم ما شارك به المغرب في بناء صرح الثقافة العربية العامة هو مع الأبحاث الفقهية فن الرحلة»³.

على أنه يمكن القول؛ إنّ العرب عرفت الرحلات قبل غيرهم من الإغريق والرومان والفينيقيين، وذلك لما اشتهروا به منذ القديم من خلال الرحلات التجارية في أيام الجاهلية والفتوحات الإسلامية بعد الإسلام، «كما نجده مبنوثا غير مدون في أشعار العرب

¹ - محمد مسعود جبران فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية) دار المدار الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 (1430هـ/2009م)، 07/2.

² - سورة الحجرات، الآية 13.

³ - محمد مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب، ص9.

الجاهلية يبين فيه الرحالة بعض المعلومات الثقافية، ويظهر مشاعر تختلج في قلبه، وأجدر أن يعد في أدب الرحلة ما روي في كتب الأحاديث عن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ثم هجرة الصحابة إلى الحبشة، لأنّ المرويات عن هذه الرحلات تكشف لنا المعلومات الثقافية والجغرافية والدينية وغيرها.¹

لكن الرحلة كأدب لم يعرفها العرب إلا بعد الاطلاع على التأليف التي سبقتهم، أما الرحلات بمعناها الثقلي فقد عرفها العرب منذ زمن قديم، وازدادت مع الفتوحات الإسلامية «فمن الطبيعي أن تزداد تجارتهم بازدياد الفتوحات بعد الإسلام، بالإضافة إلى أسباب خاصة يمتازون بها وهي:

1- الحج وهو فريضة على المسلم أينما كان.

2 - الرحلة في طلب العلم وذلك يستلزم معرفة الأماكن والمناطق.

3 - اختلاف العرب في طرق الفتح باختلاف البلاد للحكم في أخذ الجزية وتحصيل الخراج.²

وقد ارتقى أدب الرحلات عند العرب إلى مستوى الخيال الفني، «هذا وبرغم ما يتسم به هذا الأدب من تنوع في التسجيل والأسلوب من الوصف العلمي إلى السرد القصصي إلى الحوار وغيره؛ فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق، بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى»، وعلى ما اتسم به هذا الأدب إلا أنه لم يسلم من بعض العيوب الأسلوبية وغيرها كالسجع مثلاً.

¹ - محمد رضا الرحمان القاسمي: الرحلة وآدابها في اللغة العربية دراسة تاريخية، مجلة الداعي الشهرية، العدد 6-7 عن دار العلوم ديوبند، 2013/1434م، ص 45.

² - جورج غريب: أدب الرحلة تاريخه وأعلامه، (مرجع سابق)، ص 26-27.

ويحدد الدكتور حسني محمود حسين في كتابه (أدب الرحلة عند العرب) البداية الفعلية لهذا الأدب بعصر الفتح العربي، والذي كان بمثابة رحلات في ذاتها قدمت للعرب تجارب ومعارف جديدة اقتضت الرحلة والبحث، فقد وَحَدَّ العرب البلدان التي فتحوها دينيا وثقافيا إلى حد بعيد، وتطلبت مسألة إدارتها التعرف عليها ولم يتأت ذلك إلا بالرحلة¹.

كما كان تأثر العرب في تلك المرحلة الزاهرة بعلوم اليونان وكتبهم، «فتأثرت أبحاث العرب الجغرافية في عهدها الأول بما وصل إليه اليونان من قبل، كما اقترنت بالحاجة الدينية والتي اقتضت وصف طرق الحج لتعيين محطات القوافل ومنازل الحجاج كما لاشك أن طلب العلم في مراكز البلاد كان يقتضي رحلة طلابه إلى مراكز طلب العلم فكان ذلك أيضا أحد أسباب الرحلة الداخلية ووصف الشاهد وتأليف الكتب فيها»².

لذا؛ كانت الرحلة في طلب العلم في مقدمة دوافع الترحال لديهم، لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ولقاء الرجال، حيث كان المسجد محط رحالهم، وأول مقصد للرحالة العربي حين يلج المدينة، ثم السؤال عن أقطاب المعرفة ورجالات الدين، حتى يحظوا بشرف الجلوس إليهم والاعتراف من علومهم، وهذا مثل ما فعله الشيخ الورتلاني.

3.3.1. نشأة أدب الرحلة عند الجزائريين:

عرفت الرحلة الجزائرية تبكيرا في مسارها نحو المراكز العلمية، والأماكن المقدسة خصوصا بعد انتشار الإسلام في المغرب العربي، إذ بادر الكثير من المغاربة إلى السفر نحو المشرق، لدواع اجتماعية وثقافية وغيرها، فقد حث الإسلام على الرحلة وشجّع الناس عليها كما دعا إلى السفر والسياحة في الأرض طلبا للعلم والمعرفة، والتي تعود عليهم بالمنافع، فكانت إحدى أسس الإسلام الخمسة حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وهذا

¹- ينظر: نبيل راغب: فنون الأدب العالمي، (مرجع سابق)، ص31.

²- المرجع نفسه، ص32.

مصدقا لقوله تعالى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾¹، فالدافع الديني هو أقوى الدوافع للرحلات الجزائرية نحو المشرق، وبما أن الحجاز هي مهد الحضارة العربية الإسلامية، ومهبط الوحي، فالحج رحلة يتشوق إلى أدائها الناس عامة، كما كان من أهم بواعث الرحلة، طلب العلم، فالعلم يعتبر عاملا أساسيا لا بد منه نتيجة أهميته ومدى مساهمته في تطوير ثقافات الأفراد.²

وبتأمل تاريخ العالم العربي والإسلامي؛ نجد أن المغاربة كانوا أكثر تنقلا وترحالا من سائر العرب والمسلمين، ولعل الموقع الجغرافي ساعدهم على ذلك، حيث كان المغرب في أقصى بلاد الإسلام³، وبما أن الأدب الجزائري جزء لا يتجزأ من الأدب المغربي؛ فقد سارع الجزائريون إلى تلبية دعوة الشارع إلى التعلم، فتخطوا الصعاب من أجل التحصيل العلمي، وأداء فريضة الحج.

لكن الرحالة الجزائريين لم يُعْنَوْا بتدوين رحلاتهم ونقل أخبارها إلا مع ظهور القرن السادس الهجري، الذي دونت فيه بعض الرحلات والتي كانت مشرقية الوجهة.

وعلى تزايد عدد الرحلات الجزائرية إلى المشرق العربي؛ إلا أن التأليف بقي قليلا جدا لتعرض أغلب مصادره للضياع نتيجة الاضطرابات السياسية التي عرفها المغرب العربي خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، نتيجة الحملات والنكبات المتكررة على أهم سواحله.⁴

¹ - سورة الحج الآية 27.

² - سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى، الجزائر 2009م، ص33.

³ - جميلة روباش، أدب الرحلة في المغرب العربي، أطروحة دكتوراه في الأدب الجزائري القديم، جامعة محمد خيضر بسكرة

2014-2015م، ص26.

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص34.

ولعلّ الباكورة الأولى للرحلة في الأدب الجزائري هي رحلة الوردجاني أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي (550-570هـ/1105-1175م) من أشهر علماء الإباضية ببلاد المغرب ولد بسدراته، من قرى ورجلان ونشأ بها، وأخذ مبادئ العلم على علماء ورجلان رحل إلى الأندلس وأقام بقرطبة سنين عددا وحصل منها مختلف العلوم النقلية والعقلية، وكان بين طلابها مثال النبوغ النادر والأدب الجم و الاطلاع الواسع حتى كان الأندلسيون يلقّبونه بالجاحظ¹ ثم رحل إلى السودان حتى وصل إلى قريب من خط الاستواء وهو من السباقين إلى اكتشاف هذه المناطق المجهولة فدوّن ملاحظاته العلمية على تلك المناطق وأهلها ثم رحل بعد ذلك إلى زيارة بيت الله الحرام ثم انتقل إلى المشرق ولقي أكابر العلماء والشيوخ ثم استقر بورجلان منقطعا لخدمة العلم، «حتى قيل إنه لم يخرج من داره مدة سبعة أعوام لم يكن يرى فيها إلا ناسخا، ولأقلام بارياء، وللدراسة فاعلا، أو على الداووين مقبلا أو للكتب مفسرا، توفي بمسقط رأسه 570هـ 1175م، من آثاره (العدل والإنصاف) في أصول الفقه، (مرج البحرين) في المنطق والحساب والهندسة، و(القصيد الحجازية) نظم فيها رحلته إلى الحجاز»².

قال عنه الدرجيني: «هو بحر العلم الزاخر، المسخر للنفع فترى الفلك فيه مواخر... المحتوي على علوم جمّة، إذ كان له في جوّ متنفّس، ومن كل نار مقتبس، له يد في علم القرآن وفي علم اللسان، وفي الحديث والأخبار وفي رواية السير والآثار، وعلم النظر والكلام وعلم فرائض المواريث، ومعرفة رجال الأحاديث ولم يخل من اطلاع على علوم الأقدمين»³.

¹- ينظر: محمد بن موسى بابا عمي وآخرون: معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر قسم المغرب الإسلامي، منشورات جمعية التراث ط1 غرداية، 1420هـ/1999م ص 48-482.

²- ينظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة والتأليف، ط2 بيروت لبنان،: 1400هـ/1980م، ص 341.

³- أبو العباس بن أحمد بن سعيد الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب تحقيق إبراهيم طلاي، ط1، 1394هـ/1974م، 491/2.

وقد حفظ لنا معالم هذه الرحلة مفصلة في قصيدة مطولة بلغت 374 بيتاً، أبرز من خلالها عملاً فنياً في مجال الرحلة، ومن ثم حق له أن يتوج رائداً لأدب الرحلة في تاريخ الجزائري، من خلال رحلته والتي قام بها عام 538هـ¹، ولا تزال نسخ عديدة منها مخطوطة في مكتبات وادي ميزاب، ولهذه الرحلة فوائدها الجمة في إثراء فكر أبي يعقوب بما استقاه من مشاهداته ولقائه مع العلماء ومناظراتهم في قضايا علمية، ومن ذلك مناظرة جرت بينه وبين أبي عمار عبد الكافي (شيخه وصديقه) في مكة عن ظاهرة النهب والغضب التي يمارسها أعراب الحجاز على قوافل الحجاج²، وقد حقق هذه الرحلة الكاتب يحيى بن بهون حاج أمحمد مؤخرًا، ومطلع القصيدة هو:

عذيري عذيري من ذوات المعاجز ذوات العيون النجل بيض المحاجر

ذوات الشفاه اللعس بالظلم واللما غرائر خرق الصنع سود الغدائر³

ولما جاء العصر الحديث؛ عرفت الرحلة منعرجاً حاسماً في مسارها عند العرب عموماً وعند الجزائريين خصوصاً، وذلك من حيث تزايد عددها وتنوعها في طابعها واتجاهاتها «ومن الرحالين الذين واكبوا العصر الحديث في الجزائر برحلاتهم، واتجهوا نحو المشرق وإلى الغرب الأوربي نجد كل من البشير الإبراهيمي، محمد ناصر الغسيري، أحمد منور أبو القاسم سعد الله... وغيرهم وقد تباينت مقاصدهم في الرحلة

¹ - ينظر: عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، سياق النص وخطاب الأنساق، أطروحة دكتوراه، جامعة تلمسان 2016/2015 م ص 15 .

² - ينظر: مصطفى باجو: من أعلام الفكر في الجزائر أبي يعقوب يوسف الورداني، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة العدد الرابع، ص 10-11.

³ - عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، (مرجع سابق)، ص 15.

وغاياتهم في زيارة البلدان، كما اختلفت اهتماماتهم ما بين الثقافة والدين، والفكر و السياسة»¹.

وقد تنوعت المناطق المقصودة بالرحلة لدى الرحّالين الجزائريين، فارتحل البشير الإبراهيمي إلى باكستان مرورا بباريس ومصر، بينما شملت رحلات الغسيري بلدانا عديدة ومختلفة من الوطن العربي ابتداء من طرابلس والمغرب، حتى سوريا ولبنان مرورا بمصر والسعودية²، كما ارتحل دبوز إلى مصر متجها إلى مدينة طنطا بالتحديد، والتي اعتبرها بين المدن المصرية كزهرة بين الأوراق، وتعددت رحلات المدني وشملت دولا عربية منها طرابلس ومصر والسودان وسوريا والكويت الأردن والعراق والسعودية للحج.

فالرحلة الجزائرية كغيرها من الرحلات العربية؛ عرفت تطورا كبيرا في العصر الحديث، حيث انتقلت من الطابع الجغرافي والتاريخي المعروف في الرحلات القديمة، إلى الرحلة الحديثة المعروفة بطابعها الثقافي والحضاري، والتعبير عن الذات والمشاعر والتصورات، كما عرفت تطورا في مسارها الجغرافي وخرجت عن الوجة المشرقية إلى مختلف أقطار العالم.

4.1. مراحل تطوّر أدب الرحلة:

كل المحاولات التي تحدثنا عنها في العنصر السابق لم تتضح إلا في القرن العاشر الميلادي والذي يعتبر عصر النضج والازدهار في أدب الرحلة بشكل عام ولاسيما أدب الرحلة العربي، وإسهامات المسلمين في هذا العصر، إذ بلغ عدد الرحّالة حدا كبيرا حيث سافروا أسفارا عديدة ووصفوا كثيرا من البلدان والبحار، وألّفوا كتباً في ذلك، وفي

¹ سميرة أنساعد الرحلة إلى المشرق، (مرجع سابق)، ص42.

² ينظر المرجع نفسه، ص42.

مستهل هذا القرن نجد أبا زيد البلخي وكتابه "صور الأقاليم" وقد ضاع، كما نجد ابن حوقل صاحب كتاب "المسالك والممالك"، والمسعودي وغيرهم.

ثم برز بعد ذلك أبو الريحان محمد البيروني «في القرن الحادي عشر الميلادي والذي قام بعدة رحلات علمية في بلاد الهند، ووضع كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة"، ثم جاء ابن جبير ليؤصل أدب الرحلات من خلال صياغته الأدبية والعالية»¹، لكن معظم هذه الرحلات كان يغلب عليها الطابع القصصي أو الوصف الجغرافي.

وانطلاقاً من القرن الثالث عشر الميلادي؛ بدأ الجانب العلمي يطغى على أدب الرحلات ويتجلى ذلك في رحلة "العبدري" على سبيل المثال لا الحصر، ثم توالى مواكب الرحالة والأدباء العرب: ففي القرن الثالث عشر نجد أيضاً عبد اللطيف البغدادي، ياقوت الحموي، ابن سعيد، وغيرهم .

فالعبدري (ت 740هـ/1289م) صاحب الرحلة المغربية، «والذي غادر الأهل والديار... خائضاً غمار السفر.. وقبض على عصا التسيار قاطعاً الهامة والقفار غايته... زيارة البقاع المقدسة حيث يتجه المسلم خمس مرات»². فالظاهر من اسمها أنها مغربية الوجهة، غير أنها في الواقع رحلة مشرقية حجازية.

والقزويني (605-682هـ/1208-1283م)، كان من آثاره مؤلفان من حجم واحد تقريباً: أحدهما عن (نظام الكون)، والكتاب الآخر عن (الجغرافيا)، فكتاب القزويني الأول «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» بقي معروفاً خلال القرون الطوال من العصور الوسطى وحتى العصور الحديثة...، أما كتاب (الجغرافيا) فلدينا منه نسختان

¹-سميرة أنساعد الرحلة إلى المشرق، (مرجع سابق)، ص33.

²- مولاي بالحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط1 الجزائر، 1979م، ص12.

أصليتان بعنوانين مختلفين: أقدمهما باسم (عجائب البلدان)، وأحدث النسختين عنوانها «آثار البلاد وأخبار العباد» مما يدخل في باب الجغرافيا التاريخية، وقد كُتِبَ سنة 1250م¹.

وياقوت الحموي (575-626هـ/1179-1229م) الذي كان رحّالة وعالما، جمع بين معارف كثيرة وأبحر في علوم عديدة منها: الجغرافيا، والأدب، وعلوم الشريعة، واللغة العربية صنّف كتباً عدة أهمها كتابان: «معجم الأدياء»، و«معجم البلدان» القاموس الجغرافي الأشهر.

وفي القرن الرابع عشر نجد «ابن بطوطة، وابن خلدون، والأندلسي والتجاني، وبهذا ظل العرب متفوقين في ميدان الرّحلات حتى ظهرت حركات الاستكشافات الأوربية، وجثمت الإمبراطورية العثمانية على كاهل الأمة العربية، فاقتصرت الرّحلات على زيارة الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية، ومن أشهر هذه الرحلات رحلة عبد الله المراكشي، ورحلة عبد الغني النابلسي²، هاته الرحلات التي تميزت بالحماسة والقوة إذ كان القصد منها إمتاع القارئ فقط وذكر بعض الغرائب والعجائب.

ثم يأتي القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد الذي يعتبر خاتمة عصور الرحلات العربية في القرون المتوسطة، وقد اشتهر فيه الكثير من الرحالة أمثال:

الحسن الوزان (888-957هـ/1483-1550م) المعروف في أوروبا باسم (ليون الإفريقي Lion Africains) زار شمال إفريقيا، وبدأ رحلة السودان الغربي (غرب إفريقيا) سنة 1510 موفداً إلى دولة صنغى من حاكم فاس، وزار (تمبكتو) ووصفها وصفاً دقيقاً أو أبحر في نهر (النيجر) وزار (مالي) وبلاد الحوصة (الهوسا) و(بورنو)...، وقد نشر رحلاته الإفريقية بالإيطالية سنة 1550م، ثم ترجمت إلى الإنجليزية سنة 1600م،

¹- ينظر: مازن عوض الوعر: التفكير اللغوي عند الجغرافيين و الرحالة العرب في ضوء اللسانيات الجغرافية المعاصرة» ، الدار العربية للكتاب، ط2، القاهرة، 1423هـ/2002م، ص176/175.

²- سميرة انساعد: الرحلة إلى المشرق، (مرجع سابق)، ص34

تحت عنوان تاريخ إفريقيا ووصفه the Description of Africain History ، ونشرت جامعة الغمام محمد بن سعود بالسعودية هذه الرحلة كاملة في طبعة محققة¹.

أدب الرحلات بعد القرن الخامس عشر للميلاد/التاسع للهجرة:

عرفت الرحلة تقهقرا واضحا، لعدة أسباب دينية وسياسية وثقافية، واجتماعية، واقتصادية، ظهرت خلالها رحلات قليلة نذكر من بينها:

الرحلة العياشية (1661-1662م) لأبي سالم العياشي المغربي، تتميز بالمسار الجغرافي المهم الذي مسحته، وقد انطلقت من (سجلماسة) بأرض المغرب لتصل إلى القاهرة، مروراً بكل من الجزائر، وتونس، و طرابلس، قبل أن تأخذ وجهتها المحددة وهدفها المقدس، مكة المكرمة والمدينة المنورة ثم القدس الشريف².

ثم تأتي رحلة محمد المكي الدرعي الناصري (أواسط القرن الثامن عشر) صاحب «الرحلة المراكشية، ورحلة الوزير "الزياني" سنة 1786م، حينما كلفه أحد السلاطين لتنفيذ مهمة في البلدان الأجنبية أو الإسلامية، وعند العودة يكتب السفير تقريراً مفصلاً يذكر فيه كل ما رأى أو حدث له أو اطلع عليه»³، حيث عرفنا الزياني بالتل، ومدنه، وبمكانة تلمسان، والجزائر، وقسنطينة، وبمنزلة محمد الكبير باي وهران، والدّاي حسين ، وحسين باي قسنطينة، وبالحالة الاجتماعية لها.

¹ - ينظر: هوارد: أشهر الرحلات إلى غرب إفريقيا، ترجمة عبد الرحمان عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م، 10/1.

² - ينظر: عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، أبو ظبي، 2006م، 12/1.

³ - حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2 بيروت، 1403هـ/1983م ص69.

وظل هذا الجمود يخيم على أدب الرّحلات حتى كانت النهضة الحديثة، والتي من خلالها التحق الكثير من العرب بالمدارس الأجنبية طلباً للعلم، وبهذا أصبح أدب الرّحلات شكلاً فنياً داخلاً في الأدب وليس دراسة تاريخية فحسب.

أدب الرّحلات في عصر النهضة:

أما القرن التاسع عشر؛ فقد شهد أدب الرّحلة بعض التطور، بإعطائه مساحة أدبية، بعدما شهدت هذه الحقبة احتلالاً أوروبياً غزاً فيها العالم العربي، ما دفع بعضهم للتطلع من جديد على أحواله المعيشية، وكذا أوضاعه المختلفة، «وانطلاقاً من ذلك الشعور الذي ينتاب الرّحالة من ضعف الأنا وسوء الحال وقوة الآخر وعلو شأنه، فإنّ شعور المرارة والأسف والأسى هو الذي يطبعها، وهذا ما أوجب الدعوة إلى الاقتباس والاقتران بأسباب القوة والتقدم»¹.

كان في طليعة الرّحلات نحو أوروبا: أحمد فارس الشدياق، وقد سجّل رحلته إلى أوروبا في كتابه «كشف المخبأ عن أحوال أوروبا»²، فصلّ فيه سياحته في بلاد الإنجليز وغيرهما من الأقطار الأوروبية، ووصف عادات الإنجليز وآدابهم وأخلاقهم، وتاريخ تمدنهم وسر تقدمهم بأسلوب شائق.

وكذلك «سليمان البستان» (1816-1883)، العالم الضليع، واللغوي المحقق، «بطرس بن بولس البستاني الماروني» الذي جمع رحلاته في مدونته دائرة المعارف»³، وهي موسوعة ضخمة اشتغل فيه أبناؤه بعد وفاته.

¹ - عبد القادر نويوة: قراءة التراث السردي العربي تجربة عبد الفتاح كليبيوط، دار الروافد الثقافية، ط1، 2012م، ص112.

² - عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، القاهرة/1/101.

³ - أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار النهضة للطباعة والنشر، ط2 القاهرة، ص474-475.

ولم تكن الرحلة الأدبية عند الكثير من الكتاب والأدباء الفرنسيين والإنجليز في القرن التاسع عشر بمثابة رحلة مكانية بل ارتبط مفهومها دائما بالرحلة الروحية، ويرجع ذلك إلى تصاعد ما يسمى بالقيم الشبئية كبديل للقيم الإنسانية التي حفل بها عصر الأنوار، لهذا عادت موضوعة الشرق ملاذا وحنينا لكثير من الكتاب الذين وصل بعضهم إلى حد اعتناق الإسلام.¹

أما القرن العشرين؛ فقد زاد الاتصال وتعمقت آثاره، ونضجت العلوم والمعارف وزاد الوعي واليقظة، ومن الرحلات نحو أوروبا نجد رحلة محمد لبيب البتوني في «رحلة إلى الأندلس»، و«محمد المويلحي» في ملحق كتاب «حديث عيسى بن هشام»، وزار أمريكا «محمود تيمور» ودون مشاهداته في كتابه «أبو الهول يطير»².

وهكذا برع العرب في الرقي بهذا الأدب، من كونه مجرد انطباعات وملاحظات سجلها الرحالة الأوائل في رحلاتهم ومغامراتهم المختلفة، إلى نوع من الأدب يحمل سمات مميزة يُعرف بها بين جماهير القراء، على أنه كان لهذه الرحلات أغراض متعددة منها: إفادة القراء بأمور معينة، كوصف طريقة الحج في الرحلة، والاهتداء بها لمعرفة الطريق الموصلة إلى بلد من البلدان، وهناك من عرف لنا بالبلدان ومختلف الأقطار وآخرون جعلوا رحلاتهم من أجل التعريف بالمسائل العلمية، وكذلك الأخذ من العلماء والفقهاء الذين امتلكوا علما واسعا في بعض العلوم.

كما أن بعض الرحالة جعل رحلته من أجل الحث على الترقى بأن ينقل في رحلته كل ما رآه من مظاهر الرقي والتقدم في البلاد التي زارها، وهكذا أصبح لهذا الأدب مكانة يحظى بها كبقية الأجناس الأدبية النثرية، ووجد فيه الكاتب بعدا جماليا مشوقا حاول أن

¹ - بن بوعزيز وحيد: رحلة جبرار دونيرافال إلى الشرق، مجلة علمية متخصصة في الدراسات الأدبية والنقدية، الآداب واللغات جامعة الجزائر 02 العدد الرابع جوان 2010، ص 55-56.

² - ينظر: شوقي ضيف: الرحلات: (مرجع سابق) ص 68-69.

يستغلّه في كتاباته قصد التأثير في المتلقين بمراجعة التاريخ واستنهاض الهمم.

2. دواعي الرحلة أهميتها وأنواعها.

1.2. دواعي الرحلة:

إذا حاولنا الاطلاع على دوافع الرحلة؛ نجدها كثيرة ومتنوعة، فلكل رحالة دافع حفزه للقيام برحلته، والذي يختلف عن دافع الرحالة الآخر وهي دوافع شخصية دفعت كل رحالة إلى أن يقوم برحلته، فحُبُّ السفر والشغف بمعرفة العالم وما فيه من عجائب الموجودات وغرائب الكائنات؛ هواية استهوت عددا من العلماء والمغامرين من مختلف الأجناس والبلدان ودفعتهم إلى تجسُّم المشاق وترك الأهل والخلان، تحت وطأة أسباب متعددة تختلف من شخص إلى آخر

« فالحج إلى الأراضي المقدسة، وطلب العلم كانا السبب في حبّ الارتحال على بُعد الشقة وعظم المشقة، كما كان حب الانتجاع و الرعي؛ السبب في التنقل والارتحال للعرب و البربر على السواء قديما وحديثاً¹»، ومن الدوافع والأسباب التي دفعت الرحالة للقيام برحلاتهم هي:

1.1.2. الدوافع الدينية:

يمكننا أن نحدد هذه الدوافع في النقاط التالية:

1.1.1.2. الضرورة:

تعد الضرورة واحدة من الدوافع الحتمية التي تدفع الرحالة إلى القيام بهذا النشاط، خاصة إذا تعرّض « لعارض يدفعه لهجر وطنه فيغادر بحثا عن الكلا والماء، وهربا من مصيبة كظلم حاكم أو أمير، أو يأساً من المجتمع وما قد حل به من حروب ونزاعات

¹ - محمد الصالح: من وحي الرحلة، دار الحضارة للطباعة والنشر و التوزيع، ط1، 2007م، ص17.

محلية وظروف اجتماعية قاسية، وويلات ونكبات¹» لهذا اتخذوا الرحلة سبيلا للخلاص من هذه الظروف القاسية.

ومن الرحالة الذين دعيتهم الضرورة إلى القيام بالرحلة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر؛ ابن عربي الذي يذكر دوافع رحلته في مواضع متفرقة نذكر منها «فدعت الضرورة إلى الرحلة فخرجنا والأعداء يشتمون بنا²»، وفي موضع آخر « فخرجنا مكرمين أو قل مكرهين³» وفي كل هذا دلالة على أن الرحلة لم تكن برغبته؛ وإنما دعت الضرورة الحتمية لها.

2.1.1.2. الدافع الإيماني:

نقد حت الإسلام على السياحة ودعا إليها لأسباب متعددة، منها التأمل في الكون والاعتاظ بالأمم البائدة، كما فرض الحج إلى الكعبة في الجاهلية، وأقره الإسلام بعد أن طهرها من الأصنام، وبهذا كان الرحالون يرحلون « لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلمو المعالم الدينية الأثرية الأخرى، مثل قبور الأنبياء والصحابة والأولياء....ولهذا يعد هذا العامل من أقوى البواعث على الرحلة فهو مبعث الحنين⁴».

والدافع إلى الحج أحيانا يكون طاعة لله، وأحيانا يكون تكفيرا عما ارتكبه العبد من أخطاء، فقد ذكر ابن الرقيق أن الذي دفع ابن جبير إلى رحلته الأولى «هو أن الأمير أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن استدعاه ليكتب له رسالة، فقدم عليه فوجده في مجلس شرابه، فمد إليه الأمير يده بكأس، فأظهر الانتفاض وقال: يا سيدي ما شربتها قط فقال: « والله لتشربن منها سبعا»، فلما رأى العزيمة اضطر أن يشرب سبعة كؤوس، فلما فرغ منها ملأ

¹-نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلة الأندلسية والمغربية، حتى نهاية القرن التاسع الهجري. دار المأمون للنشر والتوزيع ط1، 2008م، ص21.

²- ابن عربي: قانون التأويل، دار الغرب الإسلامي، ط2 بيروت، 1990م، ص75.

³-المصدر نفسه، ص77.

⁴-نوال الشوابكة: أدب الرحلة الأندلسية والمغربية، (مرجع سابق)، ص27.

الأمير الكأس من الدنانير سبع مرات، وصبها في حجره، ثم حمله إلى منزله فأراد التكفير عن هذا الإثم الذي أرغم على اقترافه فرحل إلى الحج.¹

ولهذا يعتبر الحج من أهمّ الوشائج التي ربطت بين المشرق والمغرب، وعملت على توحيد الثقافة في سائر أنحاء البلاد الإسلامية على ما بينها من المسافات الشائعة.

هذا؛ وقد شدّ الشوق بعض الرّحالة إلى زيارة الأماكن المقدسة وأداء الركن الخامس فدوتوا رحلتهم وقدموها للقراء للاستفادة منها، فنجد ابن بطوطة مثلاً يذكر سبب رحلته فيقول « كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام»²

وكان سبب بعض الرّحلات نشر الإسلام وتعليم فرائضه، وأحيانا كانت الضرورة هي زيارة الأولياء وأضرحتهم السبب الذي دفع الصوفيين من الرّحالة «إلى الاطلاع بأسفارهم، إضافة إلى أنها دفعت غيرهم إلى التعرّيج على هذه الأضرحة، وأهم رحلة تمثل هذا النوع هي تلك التي قام بها علي الهروي الذي لقب بالسائح لأنه أمضى معظم حياته في التجوال، وقد زار الهروي في رحلته الشام ومصر وبلاد العرب والعراق وإيران، ودونَ مشاهداته في كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات»³.

ويجب أن نلاحظ أن العلماء وبخاصة علماء المغرب والأندلس؛ استغلوا رحلة الحج في طلب العلم ولقاء العلماء، والتمتع برؤية روضة النبي صلى الله عليه وسلم،

¹ - أحمد بن حسن المقرئ التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ط1، بيروت لبنان 1388هـ-1986م، 385/2-386.

² - ابن بطوطة محمد بن عبد الله: تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم محمد السويدي، دط، الجزائر 1989م، ص07

³ - حسين نصار: أدب الرحلة، (مرجع سابق)، ص32.

وفي هذا يقول ابن عمار: «لما دعنتي الأشواق النافقة الأسواق إلى مشاهد الآثار، والأخذ من الراحة بالثأر، لبيت داعيها، وأعطيت كريمة النفس ساعيها، علما مني أنه ليس يظفر بمراد من لا يتابع الإصدار للإيراد، ولما انبرى هذا العزم وانبرم، والتظى ولاعج الشوق وانصرم وباح الوجد بالسر المكتوم، شرعت إذ ذاك في المقصود.»¹

كما يتجلى الباعث الديني أيضا في رحلات الصوفيين من أجل البحث عن مصادر التصوف، وهم الشيوخ والأقطاب حتى يحصل التلقين وإلباس الخرقة وتصحيح العقيدة وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى ابن قنفذ الذي قضى مدة في الترحال بين ربوع المغرب بحثا عن أصحاب الشيخ أبي مدين والإفادة منهم حيث يقول: «رُغِبَ إليّ من يكرم عليّ من بعض إخواني في الدين، في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين نفعني الله وبأمثاله من المسلمين»².

ومهما يكن فإنّ الحج يعتبر أحد الينابيع الأساسية التي تعلّق بها الرّحالة، فدوّنوا من خلالها رحلاتهم وقدموها للقراء للاستفادة منها، فقد دوّن الحجاج الكثير من الأخبار عن سكان البلاد، وأسس اقتصادهم وينابيع ثروتهم.

2.1.2. الدوافع العلمية:

لاشك أنّ الحاجة العلمية هي أحد الدوافع لمتل هذه الرّحلات، وتعد الرّحلة العلميّة من أهمّها وأقدمها، وذلك لأنها تستدعي معرفة الأماكن والمناطق التي بها منابع العلم، لذلك وصف الرّحالة أثناء رحلاتهم العلمية كل ما وقعت عليه أعينهم، ونمّثل لهذا النوع من الرّحلات «برحلة عاشور بن موسى القسنطيني(1664/1576)، وهو عالم رحالة من

¹ - أحمد بن عمار: نحلة الحبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، تح، ابن أبي شنب مطبعة فونتانة - دط، الجزائر 1320هـ / 1920 م، ص 03.

² - ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقيير، تصحيح محمد الفاسي وأدولف، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ط1 الرباط 1965م، ص 01.

فقهاء المالكية، جال في بعض الأقطار الأفريقية، ودامت رحلته قرابة العشرين سنة ومن البلدان التي زارها تلمسان التي لقي بها محمد بن سليمان مؤلف كعبة الطائفين ثم رحل إلى السودان ولقي بها علماء أجلاء، أخذ عنهم فن القراءات وجانباً عظيماً من فن الأدب»¹

كما أصبحت الرحلة في طلب العلم ضرورة من لوازم طريق العلماء ومنهجهم في التحصيل العلمي، فكان طالب العلم يأخذ عن شيوخ بلده، ثم يرحل إلى البلدان الأخرى للأخذ عن علمائها وللاستفادة منهم، وذكر أنّ الخليفة الرشيد رحل بنفسه بصحبة ولديّه الأمين والمأمون لسماع كتاب الموطأ عن الإمام مالك بن أنس (179هـ/795م)².

وقد أفادت من الرحلة علومٌ كثيرة مثل الطب، والجغرافيا، والتاريخ الأدبي والعلوم الشرعية، ففي العلوم الشرعية مثلاً «كان الصحابة قد تناثروا في بقاع مختلفة من العالم الإسلامي، فقد اضطر طالبوا الحديث إلى السفر وراء الصحابة؛ لأنهم عايشوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخذوا عن فمه، ومن ثم جعلوا من الرحلة إلى الشيوخ ما يشبه الفريضة فاجتمع هذا العامل مع ندرة الكتب في أول العهد الإسلامي، فجعلت من الرحلة من أجل طلب العلم أمراً شائعاً، وبسبب البُعد انتَهز علماء المغرب وبخاصة الرحلة إلى الحج فرصة للأخذ ممن يلتقون بهم من العلماء.»³

وبهذا كانت الرحلة إحدى السبل التي لجأ إليها الرحالة بغية طلب العلم، وملاقة العلماء والفقهاء ومحاورتهم والاستفادة منهم، «لأن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشايخ فيها مزيد من كمال التعليم، والسبب في ذلك أنّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما

¹ ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي دار الغرب الإسلامي، ط1 بيروت، 1998م 383/2.

² جمال الدين بن فالح الكيلاني: الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي دراسة تاريخية، دار الزنبقة ط1 القاهرة، 2014م،

ص 49

³ ينظر: حسين نصار. أدب الرحلة (مرجع سابق)، ص 33/34.

ينتحلونه من المذاهب والفضائل تارة علما وتعلّما، وتارة مُحَاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين؛ أشدُّ استحكما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال.¹

وكل هذا الحرص على طلب العلم راجع إلى وعي العلماء بقيمة العلم في تحقيق التقدم والازدهار للبلاد العربية، ونلاحظ هذا الاهتمام بالعلم حتى أثناء أدائهم فريضة الحج، إذ كانوا يجعلونه ملتقى يجمع بين مختلف العلماء، يشكلون من خلاله حلقات علمية في المسجد، بالإضافة إلى إفادة القراء بتقديم معلومات عن المعارف والعلوم والتعريف بالأعلام وبمؤلفاتهم وكذلك تعيين مناسك الحج والعمرة، وترتبط هذه الدوافع أكثر بالرحلات العلمية والحجازية.²

وإن كان غالب الرحلات العلمية يسافر فيها طلاب العلم للبحث عن العلماء والأخذ عنهم، فإنه يوجد نوع آخر من الرحلات وهي تلك التي «يسافر فيها طلاب العلم بل المعلمون، وكان السبب فيها الإفادة من علمهم في المجالات العلمية المتنوعة كما في رحلتي الشدياق»³، ومن الرحلات العلمية ما كان الدافع إليه حضور الندوات والمؤتمرات العلمية والأدبية والفنية والمشاركة فيها، وقد انتشر هذا النوع في العصر الحديث كما في رحلات الأديب والمؤرخ أبو القاسم سعد الله.

3.1.2. الدوافع الإدارية:

إضافة إلى الدوافع العلمية ومشاهدة الطرق والمسالك، وحياة الناس وعاداتهم وتقاليدهم نجد الدوافع الإدارية، والرحلة الإدارية هي التي تكلف «بها إحدى إدارات الدولة

¹ - ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تح. درويش جويدي المكتبة العصرية، ط2، بيروت 2000م، 1/ 539-540.

² - سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، (مرجع سابق)، ص35.

³ - حسين نصار: أدب الرحلة، (مرجع سابق)، ص35.

أو الحاكم نفسه أحد الرجال أو جماعة منهم القيام بها لتحقيق هدف ما¹، وهذا النوع من الرحلات ليس فيه إلا المعلومات العلمية، ولا يدخل منه تحت أدب الرحلة إلا بعض الأخبار والحكايات، ويمكن إدراج نوع آخر من الرحلات ضمن هذا الباعث؛ وهو الحركة التي ينجزها السلطان، أو من يقوم مقامه لتفقد الأقاليم والإشراف على استتباب الأمن والقضاء على التمرد.²

هذا؛ ويذهب أغلب الدارسين إلى أنّ سبب هذه الرحلات هو التجسس؛ خصوصا أيام الحروب والخوف فقد فرضتها ظروف البلاد والحكم، "لذلك كلف الحكام بعض الأشخاص للقيام بالرحلة للتفقد وجمع البيانات والحقائق، وتقديم التقارير سواء أطلق عليها صفة الجغرافيا الإدارية، أو كتابة تواريخ الأقاليم، فقد لعبت هذه الرحلات دورا هاما في أدائه".³

ويمكن أن نمثل لهذا النوع من الرحلات برحلة سلام الترجمان عام 841/227م والتي كانت بتكليف من الخليفة الواثق بالله قصد معرفة حقيقة سد الصين الكبير الذي قيل إن الأسكندر بناه بين العالم القديم وديار يأجوج ومأجوج.⁴

وإذا كان هذا النوع من الرحلة مرتبطا بتنفيذ طلب الحاكم؛ إلا أنّها تُكسب الرحالة معلومات هائلة، ومن السفارات المثمرة ثقافيا رحلة ابن بطوطة، ومع أنّ رحلته كانت دينية؛ إلا أنّ جانبا منها كان إداريا، ويتجلى هذا من خلال إرسال سلطان الهند له كسفير في الصين، حيث يقول: «بعث إليّ السلطان خيلا مسرجة وجواري وغلمانا وثيابا ونفقة، فلبست ثيابه وقصدته، ولما وصلت إلى السلطان زاد في إكرامي على ما كنت أعهده،

¹ - ينظر: حسين نصار: أدب الرحلة، (مرجع سابق)، ص38.

² - إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر باتنة، 1426هـ/2005م ص21.

³ - ينظر: حسين فهميم: أدب الرحلات، (مرجع سابق)، ص 91.

⁴ - ينظر: شوقي ضيف: الرحلات، (مرجع سابق)، ص09.

وقال لي: إنما بعثت إليك لتتوجه عني رسولا إلى ملك الصين، فإني أعلم حبك للأسفار والجولان، فجهّزني بما أحتاج له.¹

وفيما يخص الرحالة الجزائريين؛ نجد محمد بن عثمان الكردي باي الغرب الجزائري الذي أصدر أمره إلى كاتبه ومستشاره أحمد بن هطال التلمساني ليرافقه ويكون في خدمته في رحلته التي قام بها إلى الجنوب لتأديب القبائل المتمردة، وقد دون الكاتب وقائع الرحلة في كتاب مقتصر على ذكر خروجه إلى جهة القبلة، مقدرا بالساعات مراحلها ومبينا منازلها ومنازلها.²

4.1.2. الدوافع الاقتصادية:

ويكون بغرض التجارة، وتبادل السلع، أو لفتح أسواق جديدة لمنتجات محلية، أو لجلب سلع تتوافر في بلاد أخرى، وقد تكون هربا من الغلاء، وسعيا وراء الرخص واليسر والوفرة أو للعمل³، أو لجمع التبرعات والمعونات كرحلات الجمعيات الخيرية.

وتعتبر التجارة من أبرز الدوافع التي دفعت الرحالة إلى تدوين رحلته، « حتى تعين القارئ على معرفة طرق التجارة البرية والبحرية، ولعل أول ما ارتبطت به الرحلات علم تقويم البلدان، والمسالك والممالك لوصف الطرق والمناخ، وذلك لمعرفة الطرق إلى مكة، وتسهيل عملية التجارة في مختلف البلدان والبقاع، وكانت التجارة في موسم الحج ضرورة من ضرورات الحج.⁴»

وبذلك كانت التجارة من العوامل التي تشجع على الرحلات وتنشطها، كما كان التخلص من الديون سببا في بعض الرحلات الاقتصادية، فقد «أخذت الديون بمصطفى بن

¹ - ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (مصدر سابق)، 1/202-203.

² - حسين نصار: أدب الرحلة، (مرجع سابق)، ص40.

³ - ينظر: فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، (مرجع سابق)، ص20.

⁴ - ينظر: نوال عبد الرحمان الشوابكة: أدب الرحلات، (مرجع سابق)، ص46.

حسن الكردي من أبناء دمشق إلى مصر، وخلف لنا كتابا باسم تهذيب الأطوار في عجائب
الأمصار»¹

5.1.2. الدوافع السياحية:

قد تكون الرحلة بغرض الترويح عن النفس، وطلب الاستجمام، وتغيير الأجواء، كما
قد تكون لمعرفة المعالم الشهيرة كالأثار والأبراج ونحوها، و«تعد رحلات السُّياح
الأجانب إلى بلادنا مصدراً هاماً لدراسة تاريخ مدنها، وآثارها، وأحوالها الاجتماعية
والعمرانية، وهي تتميز عن مصادرنا التاريخية الأصلية بتدوينها لبعض النواحي التي
أغفلها مؤرخونا وبخاصة ما يتعلّق بالحياة الاجتماعية لعامة الناس، ففيها شرح لعادات
وأزياء حياة أهلها، وملامح من عيشتهم بأعين مختلفة وبتقويم مغاير»²، ومنها أيضاً
الرحلات الشخصية.

6.1.2. الدوافع الخيالية:

وعادة ما تكون على لسان رحّالة وهمي، وعليه هي «نوع من القصص الخرافي
والأسطوري، كتبه الأدباء معتمدين على خيالات مجنّحة، وأساليب مشوقة قصدوا من ذلك
التسلية، وخلق أجواء هي من بنات خيالهم لإثارة المغامرة، وتوسيع الخيال مثل قصص
"جوناثان سويفت" الخيالية»³، ورحلات السندباد البحري.

وقد تحدث شوقي ضيف عن الرحّلات الخيالية فقال: «إنّ الإنسان ولد راحلاً، فإن
أعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، ونجد ذلك ماثلاً في

¹ - حسين نصار: أدب الرحلة، (مرجع سابق)، ص32.

² - كارين صادر: دمشق في عيون الرحالة الفرنسيين، مجلة التراث العربي، ع11، إتحاد الكتاب العرب بدمشق، جمادى الثانية
1430هـ، 2009م، ص268/269

³ - محمد التونسي: المعجم المفصّل في الأدب، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، 1419هـ/1999م، 2/ 476

الأساطير كما نجده ماثلاً في الحروب والفتوح القديمة»¹.

ومما سبق بيانه وتفصيله؛ نجد أن الدوافع متعدّدة لممارسة فنّ الرحلة، ولاشكّ أنّ هذا التّنوُّع والاختلاف في الأغراض قد أعطى فنّ الرحلة قدراً من الحيوية والثراء وقدلاً نعدّ أن نجد أسباباً أخرى للارتحال كالسخط على الأحوال وضيق العيش أو الهروب من عقوبة معينة، «وقد يكون الملل الناجم عن الحياة الرتيبة التي يحيها الإنسان دافعاً للرحلة والرغبة في التّجديد والتّغيير، قد تلح على الرّحالة وتقلق باله فلا يستريح إلاّ إذا خطا الخطوات العملية من أجل الرّحيل، وقد يخرج إرضاء لفضوله وحب استطلاع، وقد تكون الغيرة الشخصية أو طلب الشهرة من دوافع الرحلة»².

ويمكن القول إنّهما كانت الأسباب، فإنّ السفر جامعة تحفل بالدروس والعبر، وتشحذ بالعلم والمعرفة، كما أنّها سبيل للتعرف والتلاقي، مصداقاً لقوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾³.

2.2. أهمية أدب الرحلة:

تكتسي كتب الرّحلات أهمية كبيرة للباحثين في رصد الحياة الثقافيّة والاجتماعيّة للشعوب، وتصوير حضارتهم وطرق عيشتهم، «لذا كان للرّحلات قيمة تعليمية، من حيث إنّها أكثر المدارس تنقيفاً للإنسان وإثراءً لفكره وتأمّلاته عن نفسه وعن الآخرين»⁴.

هذا ويشكل أدب الرحلة أحد المصادر المساعدة للتاريخ، بل يعد حلقة من حلقاته الأساسيّة المكونة له، وعلى غرار ذلك تكتسي الرّحلات أهمية بالغة، في حياة الإنسان

¹ - شوقي ضيف: الرّحلات، (مرجع سابق)، ص 07.

² - عبد الرزاق المواقفي: أدب الرّحلات عند العرب (مرجع سابق)، ص 28.

³ - سورة الحجرات: الآية 13.

⁴ حسين محمد فهيم: أدب الرّحلات، (مرجع سابق)، ص 19.

والحيوان على حد سواء، كما ترتبط هذه الرحلات بعدة علوم ومعارف كالتاريخ، والجغرافية والثقافة، وعلم الاجتماع، والدين... ونحو ذلك.

ويمكن أن نجل هذه الأهمية فيما يلي:

* ترسيخ مجموعة من الانطباعات العامة، والتصورات عن الشعوب الأخرى سواء كانت صادقة أم خاطئة¹، ذلك لأن الرحالة يمثل نفسه، ويعبر عن رأيه الشخصي الخاص به.

* الكشف عن نصوص مجهولة لكتاب ورحالة عرب ومسلمين، جابوا العالم ودوتوا يومياتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخبروه في أقاليمه القريبة والبعيدة، لاسيما في القرنين الماضيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النخب العربية المثقفة²، كما هو الحال عند "فارس الشدياق".

* الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر، الذي تشكل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسربت عبر سطور الرحالة، والانتباهات التي ميزت نظرهم إلى الدول والناس والأفكار³ « إذ نجد الاهتمام الغربي بالآخر العربي، الذي نتجت عنه ظاهرة الاستشراق وبالمقابل الاهتمام العربي بالآخر الغربي وما نتج عنه من ترجمة ونقل للعلوم.

للرحلات قيمة علمية تكمن في: «تضمينها الكثير من المدونات والمعارف التاريخية والجغرافية، وما تحتويه من تصوير للحياة الاجتماعية، والسياسية، والعمرانية والاقتصادية». ⁴، ماثلة أمامنا وكأننا نراها بأعيننا المجردة.

¹ - حسين نصار: أدب الرحلة، (مرجع سابق) ص 8.

² - عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية، (مصدر سابق)، ص 7.

³ - محمد علي باشا: الرحلة الشامية، تحرير: علي أحمد كنعان، سيكو للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2002م، ص 9.

⁴ - فواز الشعار: الموسوعة الثقافية العامة، إشراف: إميل يعقوب، دار الجيل، ط1، بيروت، 1420هـ/1999م، ص 197.

* كما تبرز قيمتها الأدبية في أنّ ما كتبه الرّحالة يأخذ طريقه إلى عالم الأدب بما فيه من صدق للتجربة، واللّهجة الشخصية، والتصوير الفني الحي، مما يجعله قريبا من عالم القصة¹، وتحويل التجربة الإنسانية إلى تجربة محايدة.

* أفاد أدب الرّحلة بغنى موضوعاته في صرف أصحابه في غالب الأحيان عن اللّهُو والعبث اللفظي، والتكلف في تزويق العبارة، إيثارا للتعبير السهل المؤدي للغرض مما يفنّده كثير من الأدباء²، فالعبرة بالكيف لا بالكم.

* كما يرجع محمد الخضر حسين الفضل لكتب الرّحلة، في أنها حفظت لنا جانبا عظيما من التاريخ؛ إذ أودعت تلك الكتب الكثير مما شاهده مؤلفوها، من أحوال الدول ووقائعها كما أنها ساهمت في توطيد الصلات بين الشعوب، وحصول التعارف بينها، إذ إن الرّحالة المجتهد لا ينزل بوطن « إلا التقى بطائفة من فضلائه، والشأن أن يصف لهم بعض النواحي من حياة قومه العلمية والاجتماعية، ثم إذا عاد إلى وطنه وصف لهم حال الأوطان التي نزل بها، فيكون كل من الشعوب التي رحل منها أو نزل بها على خبرة من حال الشعوب الأخرى»³

وعليه؛ يمكن القول إنّ الرّحلة وثيقة تاريخية صالحة لكل زمان ومكان، باعتبارها مصدرا من مصادر المادة العلمية و الأدبية، التي تفيد الباحثين على اختلاف اختصاصاتهم.

* كما أننا إذا أمعنا النظر في مؤلفات الرّحالة؛ نجد أنه لم يكن هدفهم الوحيد وضع مؤلف في هذا المجال فقط، وإنما كان لهذه «الرحلات قيمة تعليمية من حيث أنها أكثر المدارس تثقيفا للإنسان وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين، وإن اختلفت دوافع

¹ - ينظر: فواز الشعار: الموسوعة الثقافية العامة، إشراف: إميل يعقوب، (مرجع سابق)، ص 197.

² - فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط2، القاهرة، 1423 هـ/2002م، ص26.

³ - فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، (مرجع سابق)، ص344.

الرحيل وتباينت وسائل السفر وتنوعت مادة الرحلة؛ فإن كتاباتهم تصور إلى حد كبير بعض ملامح حضارة العصر الذي عاشوا فيه»¹، كما في هذا تزويد القارئ بالمعلومات المستمدة من المعاينة الشخصية عن أحوال البلدان التي أقاموا بها.

* وإلى جانب القيمة التعليمية؛ نجد القيمة المنهجية كما فعل ابن جبير في رحلته ووصفه للمدن التي زارها واعتنائه بثلاثة أنواع من الأوصاف وهي المرافق والمشاهد والرياض؛ «فالمرافق تضم (الأسوار والحصون والمساجد والمدارس)، والمشاهد تضم (المقابر والموالد وآثار الأنبياء والمواقع الإسلامية)، والرياض تضم (الأحياء والضواحي)»²، وبهذا يكون قد وصف كل صنف على حدة بطريقة ممنهجة ومرتبطة.

* كذلك نجد لأدب الرحلة قيمة لغوية أسلوبية؛ فالأسلوب يتغير من سرد قصصي وحوار ووصف دقيق للمشاهدة المختلفة والعجيبة، هذا إلى جانب تزويد القارئ بالعديد من الظواهر البلاغية من (سجع، طباق، جناس).

* هذا بالإضافة إلى متعة الشعر الذي يستشهد به الرحالة في رحلته، والذي يكون أحيانا من نسجه، وأحيانا أخرى يستشهد بشعر غيره، إذ تعدّ الرحلة من أهم المصادر التي تحافظ على الشعر من الضياع، وقد تتضمن الرحلة نصوصا لا توجد في مصادر أخرى، وهو ما يضيف على هذه الرحلات قيمة كبيرة»³.

* ولا نغفل في هذا الموضوع الفوائد التي قد ترجع على مؤلف الرحلة ذاته: من اكتساب للتجربة، والدربة في مجال التأليف والتنويع الأسلوبي، وفي مجال التعبير الأدبي وكذلك تنويع للثقافة الشخصية وعدم التركيز على مجال واحد أو اختصاص، إذ تجره

¹ - حسين محمد فهيم: أدب الرحلات (مرجع سابق)، ص16.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص14.

³ - نوال عبد الرحمان الشوابكة: أدب الرحلة المغربية والأندلسية، (مرجع سابق)، ص276.

الكثير من المناسبات خلال تأليف الرحلة إلى الخوض في مسائل مختلفة علمية وأدبية شتى، تدفعه إلى البحث والتحقيق والتأكد من صحة أقواله وسلامة أفكاره ومناهجه.¹

كما لا يخلو أدب الرحلة من أهمية معرفية في مجال مبحث دراسة الصور الثقافية الغيرية التي تنتجها الشعوب بعضها عن بعض، فضلا عن متعتها الفنية في سرد مغامرات الرحالة وعجائب مختلف الأمم وغرائبها، فهي مبحث ثري يتوفر على فائدة لا تنكر في نقل صور ثقافة الآخر التاريخية والجغرافية والاجتماعية²، هذا وللرحلة قيمة علمية في التعريف بالمخطوطات والخزائن والمكتبات العامة والخاصة وتخصيب التراث السردى، وتعميق المعرفة بالعالم والآخر.

3.2. أنواع الرحلة:

تختلف الرحلات باختلاف مسبباتها وأغراضها وطبيعتها؛ فهناك رحلات علمية ورحلات حجازية، ورحلات نثرية، وهناك رحلات شعرية، وإن كان أغلبها نثريا إلا إذا استثنينا منها العدد القليل الذي يندرج تحت الرحلات الشعرية، ولعلّ السبب واضح، مفاده أنّ الرحالة على تشعب حقولهم العلمية، لم يهتموا بالشعر في مجال الرحلة، قدر اعتنائهم بالجانب الوصفي، والمادة العلمية التي تحتويها هذه الرحلات، ومن هذه الأنواع:

أ. الرحلة الشعرية:

لقد كان البحث عن الماء والكأ الشغل الشاغل للإنسان العربي البدوي، وتتبع مساقط الغيث من مكان لآخر، ومما لاشكّ فيه أن هذه التنقلات قد أحدثت أثرا كبيرا في كتابات الرحالة العرب، فجاءت الرحلة مصورة بكامل تفاصيلها، بما أحدثته من تغير في الحياة الاجتماعية والفردية والسياسية .

¹ سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب العربي، (مرجع سابق)، ص39.

² عبد القادر نويوة: قراءة في التراث السردى العربي تجربة عبد الفتاح كليطو، دار الروافد الثقافية، ناشرون ط201.2م، ص110.

فقد احتلّ حديث الطَّل والنسيب، والغزل والظعن، و الطَّيف والشكوى، المقدمة في الشعر، ومنه نجد معلّقة امرئ القيس:

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ¹

فكان امرؤ القيس بهذا قد أسس «أفضل ابتداء صنعه شاعر؛ لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل في مصرع واحد»²، وفي القصيدة الطلّية يلتقي الشعراء في خمسة مواقف أو يكادون:

(1) «إعلان خبر الرّحيل.

(2) مماشاة الرّكب، والوقوف عند معالم الطّريق.

(3) وصف الطّعائن (النساء المسافرات)، والهوادج.

(4) ذكر النساء والتحدّث إليهنّ.

(5) موقف الشاعر من الطّعائن المتحملة»³

ومن هنا كانت الرحلة الشعرية التي لا تخرج عن هذا النمط، الذي تطور بمرور الزمن، وأصبح وصفا للرحلة في حد ذاتها من نقطة بدايتها إلى نهايتها.

ب. الرحلة النثرية:

نافت النظر هنا أن أصل أدب الرحلة هو عالم النثر لا عالم الشعر، «فإذا تركنا الشعر إلى النثر، أحسسنا أننا انتقلنا إلى مجال فسيح لا حدود له، لأنّ النثر هو الموطن الطبيعي للرحلة»⁴، وكما هو معروف أنّ معظم الرحلات هي رحلات نثرية لا شعرية

¹ - امرؤ القيس: ديوان، شرح عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة، ط2، بيروت، 2004/1425م، ص21.

² - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401هـ/1981م، 218/1.

³ - حسين نصّار: أدب الرحلة، (مرجع سابق)، ص100.

⁴ - المرجع نفسه، ص103.

ومنها التقارير الرّسّمية كرحلة" ابن فضلان"مثلا، والرّسائل أيضا كرحلة "المختار بن المحسن" وهلمّ جرّأ.

ج. الرّحلة الواقعيّة والرّحلة الخياليّة:

إذا كانت الرّحلة الواقعية هي « الرّحلة التي قام بها الرّحالة حقيقة، ووقعت ضمن مكان وزمان معينين، وينتقل فيها الرّحالة من مكان جغرافي إلى مكان آخر»¹؛ فإنّ الرّحلة الخيالية هي التي تكون من نسيج الخيال لدى الكاتب، «بمعنى أنها تحدث ضمن زمان ومكان متخيلين، يقوم بها الإنسان في مناطق غير حقيقية، وتصور مغامرات خارقة بقصد التسلية وإثارة الخيال، مثال ذلك: رحلات السندباد البحري، وكذلك رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، إلى جانب رحلة المويلحي المسماة حديث عيسى بن هشام».

وإذا كان الرّحالة في الرّحلة الواقعية ينقل لنا ما شاهده في البلاد التي زارها بدقة، كونه تنقل بجسده حقا فيها؛ فإنه في الرحلة الخيالية يطلق أفكاره ومشاعره لتتقله «بعيدا عن واقعه وعالمه، إلى أماكن أخرى وأزمنة متباعدة»².

فالرّحالة عادة ما يسرد لنا أحداثا يمزج فيها بين الخيال والواقع، أو يتخذ «أساسا من الواقع ثم يدير حوله وقائع مبتكرة، كما فعل القصاصون الشعبيون مع رحلتيّ الإسراء والمعراج»³.

وبهذا أنتجوا لنا أدبا رائعا ينتقل فيه من مجال الخيال والحقيقة إلى مجال الإبداع الأدب ومن هنا كانت الرّحلات منقسمة إلى أربعة أقسام وهي الرّحلة الشّعريّة والرّحلة النثرية، والرّحلة الواقعية والرّحلة الخيالية.

¹ - محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، (مرجع سابق)، ص205.

² - حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، (مرجع سابق) ص166.

³ - حسين نصار: أدب الرحلة، (مرجع سابق)، ص49.

4.2. أنواع الرحلات الجزائرية:

أ. الرحلات الشعرية

أمّا الرحلات الجزائرية؛ فقد حاول أبو القاسم سعد الله الوقوف على بعض الرحلات الشعرية منها، ومن هذه الرحلات نذكر على سبيل المثال لا الحصر؛ قصيدة محمد بن منصور العامري التلمساني، التي فرغ منها سنة 1152، وصف فيها مراحل رحلته من تازة حيث يقيم إلى الحرمين الشريفين، ثم منها إلى الشام، ومطلع القصيدة:

أزعم السير إن دهمت أدواءً لشفيح الأنام فهو الدواء¹.

ومن الرحلات الشعرية أيضاً؛ نجد عبد الله بن عمر البسكري الذي قال في مطلع قصيدته:

دار الحبيب أحق أن تهواها وتحنُّ من طربٍ إلى ذكراها

وعبد الكريم المغيلي لما حل بالحرم المكي واهتزت نفسه، ونطق بقصيدة مؤثرة افتتحها بقوله:

بشراك يا قلب هذا سيد الأمم وهذه حضرت المختار في الحرم².

كما نظم عبد الرحمان المجاجي رحلته من مجاجة إلى مكة المكرمة؛ في قصيدة مطولة فصيحة سنة 1063، ومطلع القصيدة:

نشق الفيافي فدفاً بعد فدفاً جبالا وأوعارا وأرضا وطية

¹ – ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مرجع سابق) 2 / 338.

² – المرجع نفسه، 2 / 387-388.

وقد أخبر المجاجي فيها أنه التقى بالشيخ علي الأجهوري، وزار في الإسكندرية قبر أبي العباس أحمد المرسي وقبر ابن الحاجب، وفي القصيدة أخبار أخرى عن الجزائر وتونس ومصر.¹

هذا عن الشعر الفصيح، وهناك رحلات نظمت بالشعر الملحون، نذكر منها على سبيل المثال قصيدة محمد بن مسايب التلمساني، والذي نظم قصيدة قص فيها رحلته من تلمسان إلى مكة المكرمة، عبر مدنها وقراها من غربها إلى شرقها، ووصف فيها عواطفة نحو الرسول صلى الله عليه وسلم ووصف فيها الأماكن التي مر بها، ومطلع القصيدة:

يالورشان أقصد طيبة وسلم على الساكن فيها.

الْحُرْمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْحُرْمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ

خَيْفَانُ جِئْتُ عِنْدَكَ قَاصِدًا الْحُرْمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ²

يصف فيها "ابن المسايب" أحاسيسه ومشاعره الفياضة لمواجهة معالم الحج، وقصد بيت الله الحرام.

وقصيدة "الشريفة لالة الزهراء" (1910-1980م)، حيث تذكر انطلاقتها من قصرها (أطوى) أمام بيت المسجد فتقول:

فَمُ الْجَامِعِ تُلَاقِينَا وَالْبُرْدَةَ بَاشُ لَبِينَا وَ الْكَارِ صَدَّ بِنَا وَالصَّلَاةَ عَلَيَّ الْمُرْسَلِ³

ومن ذلك القصيدة الطويلة التي نظمها «شاعر الفصيح والملحون سعيد المنداسي والتي تعرف بالعقيقة، وقد نظمها سنة 1088هـ/1677م وموضوعها هو مدح الرسول

¹ ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (مرجع سابق)، ص338.

² - ابن مسايب، ديوان ابن مسايب، جمع وتحقيق محمد بن الحاج الغوثيخوشة، ابن خلدون للنشر والتوزيع، ط1 تلمسان 2001م، ص33.

³ عبد الله كروم: الرحلات بإقليم توات، بابا حسان، الجزائر، 2007م، ص133-132.

ووصف البقاع المقدسة وآثار الحجاز ومنازله وذكرياته الدينية الغابرة، وقد تولى شرحها والتعليق عدد من المؤلفين، وقد طبعت العقيقة وترجمت إلى اللغة الفرنسية، وتقع في 303 بيتاً مكتوبة بالشعر الملحون»¹

ب. الرحلات النثرية:

ومنها رحلة البوني المسماة (الروضة الشهيبة في الرحلة الحجازية)، ومؤلفها هو أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني، ولد بعنابة سنة 1063هـ وتوفي بها سنة 1139هـ، الإمام المحدث المسند الجامع المطلع، صاحب التأليف العديدة والأنظمة الكثيرة²، فقد عاش البوني في المشرق لاسيما مصر والحرمين، كما عاش طويلاً في تونس، وقرأ على عدد من الأساتذة هنا وهناك أجاز وأجيز، إلا إن رحلة البوني تُعدّ اليوم ضائعة³، كما نجد كذلك رحلة ابن حمادوش، وابن عمار، والورتلاني، وغيرها كثير.

ج. الرحلات الاستكشافية:

ونمثل لهذا النوع من الرحلات برحلة "محمد علي ديبوز" (1919-1981م) إلى مصر لمتابعة تحصيله التعليمي 1942، والمسماة «وقفه في دار الرافعي وعلى قبره»، تظهر خصوصية المادة وانحصارها في موضوع واحد، وهو الحديث عن الأديب والمصلح "مصطفى صادق الرافعي"، فرحل إلى المدينة التي عاش فيها (طنطا) المصرية، وزار قبره واكتشف الأماكن والمعالم التي ارتادها⁴، بغية الاقتداء بشخصية الرافعي، والتفاني في خدمة العلم، والإخلاص لهؤلاء الأدباء.

¹ - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر الجزائر، ط3 الجزائر، 2007م، 180/1.

² - عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي ط2 بيروت، 1402هـ/1928م، 235/1.

³ ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، 390/2.

⁴ - ينظر: سميرة أنساع: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، (مرجع سابق)، ص92.

د. الرحلات السياسية (الإدارية):

وهي تلك الرحلات التي ترجع أسبابها إلى قضايا سياسية بين بلدينتربطهما مصالح إدارية، أو دبلوماسية كما هو الحال في علاقة الجزائر وفرنسا، ونجد في هذا الصنف نوعين من الرحلات وهما:

1. رحلات مدعّمة للحركة الاستعمارية:

كانت هذه الرحلات نحو فرنسا، والهدف منها التعريف بالبيئة الفرنسية والإشادة بحكومتها وحكامه، ومن قبيل ذلك -كما ذكرنا سابقاً- رحلتنا: "محمد السعيد بن علي الشريف" (1826-1896م)، و"سليمان بن الصيّام" (ت1896م)؛ للاشتراك في حفل تنصيب "تابليون الثالث" سنة 1852م، بدعوة من المستعمر الفرنسي نفسه، حيث ظهرت روح المجاملة للإدارة الفرنسية بادية، تتسم بالإخلاص والولاء لها،¹ على حدّ تعبير "الركيبي" لهذه الرحلة، والتي مهما قيل عنها تبقى مصدراً مهنماً للدارسين، تسلط الضوء على تلك المرحلة الهامة من تاريخ الجزائر المستعمرة، كما أنه وإن كان هذا النوع مرتبطاً بطلب من الحاكم؛ إلا أنها تكسب الرحالة معلومات هائلة ثقافياً واجتماعياً.

2. رحلات مطالبة بالتحرّ:

وفي المقابل؛ نجد رحلات داخل الوطن، بهدف بثّ الفكرة الإصلاحية، ونشرها بين جماهير الشعب، ودعوتهم إلى اليقظة والنهوض، وأيضاً رحلات خارج الوطن، بغرض التعريف بالقضية الجزائرية، وجلب الدعم والمساندة للشعب الجزائري، وقد تصدى لهذه الرحلات علماء وأدباء الإصلاح من أبرزهم: ابن باديس²، الذي تنقل كثيراً داخل الوطن،

¹ - ينظر: عبد الله الركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، (مرجع سابق) ص 57-59.

² - عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس، آثار عبد الحميد بن باديس، تحقيق عمار طالبي الشركة الجزائرية، ط3 الجزائر، 1417هـ/1997م، ص 72

وكان هدفه منها بالإضافة إلى الغاية الآنف الذكر؛ الاطلاع على ما يفكر فيه المسلمون الجزائريون، ومدى احترامهم للعلم¹.

ه. رحلات ثقافية:

كرحلات "أبي القاسم سعد الله"، والتي نشر بعضها منها في كتبه: تجارب في الأدب والرحلة، والجدل الثقافي، وهموم حضارية، ومنها رحلته إلى المغرب في 29 يوليو (جويلية) 1973م؛ للبحث عن المخطوطات التي تعينه في مادة كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، ويظهر لك في قوله: «توجهت إلى الخزنة العامة (المكتبة الوطنية) بحثاً عن المخطوطات التي جئت من أجلها»²، كما التقى بشيوخ من أمثال الأستاذ "محمد إبراهيم الكتاني" و"عبد الملك مرتاض" و"عبد الكريم كريم" و"الجراري" وغيرهم .

و. الرحلات الاجتماعية:

تهدف إلى إبراز الناحية الاجتماعية بصورة أساسية مثل: رحلتي "علي مرحوم" و"محمد الصالح رمضان"، حيث كانت الوجهة إلى الصين، غلب فيهما الطابع الاجتماعي والثقافي والأدبي، كما تضمن ذلك بعدا دينيا أيضا³.

ومجمل القول: إنّ الرحلات الجزائرية اتسعت مشاربها حتى غمرت أنحاء العالم بأجمله شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، والتي كثرت بعد الحرب العالمية الثانية، هادفة إلى إبراز معالم الجزائر الثقافية والاجتماعية والسياسية...، والكشف عن خصوصيات الشخصية الجزائرية، ودورها في تأسيس الهوية الوطنية، فركّزت أكثر على الدين والعلم واللغة، كما عكست تقاليد وعادات الكرم والضيافة أيضا.

¹ - ينظر: محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1983م، ص65.

² - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1983م، ص209.

³ - ينظر: عمر بن قينة رحلات ورحالون في النثر العربي الجزائري الحديث، دار الأمة، ط2، الجزائر، 2009م، ص6-7.

3. أهم الرحلات والرحالة الجزائريين.

نجد مجموعة من الرحّالين الجزائريين أمثال: المقري التلمساني، محمد الخضر حسين، وحسين الورتلاني.... وغيرهم من الرحّالة الذين كتبوا رحلات قيّمة، بعضها اهتم بالتاريخ وبعضها اهتم بالناحية الأدبية، وبعضها اهتم بالعلوم، ولهذا فقد عني الجزائريون كغيرهم بالرحلة فألفوا مجموعة من الرحلات داخل الوطن وخارجه، «ذلك أن الاهتمام بتدوين الرحلات من أبرز مميزات الأدب المغربي على الإطلاق، حتى أنه يمكن القول: إن أهم ما شارك به المغرب في بناء صرح الثقافة العربية العامة مع الأبحاث الفقهية هو فنّ الرحلة»¹.

وقد أسهم الجزائريون مساهمة فعالة في كتابة الرحلات، لاسيما الرحلات الحجازية والعلمية، فقد أحدث الدين الإسلامي منعطفا كبيرا نحو التعارف وطلب العلم وأداء الفرائض التي تقتضي التنقل والسفر، وتحمل الأتعاب والأعباء، ومن ثمّ سارع الجزائريون إلى تلبية كل مطلب يقتضي السفر، فارتشفوا طعم الأهوال من أجل التحصيل العلمي، وأداء فريضة الحج، وبهذا عرفت الرحلة الجزائرية تبكيرا في مسارها نحو الأقطار²، ومن ذلك نجد رحلة ابن حمادوش الجزائري المولود (1120هـ/1965م) ورحلته المسماة (لسان المقال في النبأ عن النسب والحال) وهي رحلة جمعت بين الأدب والتاريخ وقد عرض فيها تقاليد البيئة الجزائرية كما تحدث عن التبشير وركز على التصوف لكونه متصوفا³، ومن هذه الرحلات:

¹ - مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع ط1 1430هـ 2009م، 2/ 09.

² - ينظر: عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث (مرجع سابق)، ص15.

³ - ينظر: عبد الله الركبي: تطور النثر الجزائري الحديث، (مرجع سابق) ص56.

1.3. الرحلات الجزائرية إبّان الحكم العثماني:

لقد أسهم الجزائريون إبّان الحكم العثماني بمجهودات كبيرة في مجال الرحلة؛ لاسيما ما يتعلق بالجانب الديني والتي يقصد منها لقاء العلماء والاجتماع بهم أو السفر لأداء فريضة الحج، خاصة وقد عُرِفَ العهد العثماني بانتشار التصوف، وعليه فمن المعقول جدا أن يكون الدافع الديني من أبرز الدوافع التي جعلت الجزائريين يقومون برحلات عديدة خلال هذه المرحلة، وهذا يعني «أنّ الرحالة الجزائريين الذين توجهوا إلى الجزيرة العربية خلال العهد العثماني، لم يذهبوا إليها كجغرافيين أو مؤرخين أو سواح، وإنما توجهوا إليها حجاجا يؤدون الفريضة ويزورون الحرم الآمن لذلك كانت قلوبهم إلى البقاع المقدسة تسبق أرجلهم وخيالهم يتجاوز مرمى أبصارهم وأشواقهم إليها تنسيهم آلام الطريق ووعثاء السفر»¹.

ازدهرت الرحلة على عهد الأتراك ازدهارا كبيرا، غير أنّ الإنتاج الرحلي في هذه الحقبة لا يعكس مستوى الجزائر الثقافي حينها؛ فالأتراك لم يهتموا بشأن الثقافة في الجزائر، «لأنّ جهودهم كانت متجهة نحو حركة الجهاد ضد المعتدين على البلاد، فلم يعطوا لأمر الثقافة ما يستحقه من عناية واهتمام، ولهذا غلب على عهدهم طابع الجفاف الفكري»²، ولذا نجد الرحلة في العهد العثماني تميزت بكثرة الإنتاج وتنوع الطّبوع؛ إلا أنّها ضعيفة من الجانب الأدبي إذا ما قورنت بالعهد الأخرى، وفائدتها الجمة كانت من حيث حضورها التاريخي والحضاري، فهي وثيقة تاريخية بالدرجة الأولى، ثم في درجة أقل مصدرا من مصادر الأدبومن الدوافع التي دفعت الرحالة في هذا العهد لشد الرحال ومغادرة المكان الرغبة في طلب العلم والنهل من معينه.

¹ - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 1/177.

² - محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 1969م، ص218.

فالجزائر العثمانية لم تكن تتوفر على مؤسسة للتعليم العالي ممّ ترتب عليه هجرة الراغبين في طلب العلم , وهناك قائمة طويلة من العلماء الجزائريين اللذين هاجروا ولم يعودوا أصلاً ومنهم: أحمد بن عمار, ومحمد بن العنابي, وحمودة المقايسي ولا يخفى علينا أنّ هجرة هؤلاء العلماء تدخل فيما نسميه اليوم هجرة العقول, وقد أثرت على مستوى الحياة الثقافيّة في الجزائر¹.

لقد كانت الرحلة عبارة عن تقليد سار عليه مثقفو المغرب العربي، إذ توارثوه جيلاً عن جيل، فأصبح يمثل حلقة من حلقات الثقافة في ذلك العصر، ولعل ما يُسوِّغ ذلك هو اعتماد الرحالة في تدوين رحلاتهم على سابقهم من الرّحّالين وتقليدهم فيما دونوه، ومن ذلك مثلاً ما نجده عند أبي راس الناصر الجزائري في قوله: «وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير، والأسانيد الجماهير: كرحلة ابن رشد السبتي، والخطيب المرزوقي...»²، وفي هذه السطور نشير إلى بعض هذه الرحلات.

1.1.3. رحلة أحمد بن عمار:

هو أبو العباس أحمد بن عمار، من أعلام الجزائر العثمانية وأدبائها عاش في القرن الثاني عشر الهجري، كان خطيب الجامع الأعظم بالجزائر، وتولى الإفتاء المالكي بها تلمساني الأصل ولد بالجزائر نحو 1119هـ/1707م، وتوفي نحو 1205هـ 1790م العالم والفقير والمؤرخ والأديب والشاعر والرحالة، حج سنة 1166هـ، رفقة الشيخ حسين الورتلاني، وقد استوقفهما داعي العلم، فانضمّا إلى حلقة الشيخ خليل المغربي، وبعد قضائهما مناسك الحج لم ترُق لابن عمار الأوبة إلى وطنه فجاور الحرمين مدة اثنتي عشرة سنة، وألف رحلة سماها (نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى

¹ — أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (مرجع سابق)، 178/1

² — أبو راس الناصري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط الجزائر 1988م، ص91.

الحبيب)¹، جمع فيها قصائد كثيرة في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وموشحات تصف شوقه إلى البقاع المقدسة دونها في ثلاثة أجزاء عُثِرَ على الجزء الأول الذي جعل عنوانه مقدمة، «ويبدو أنه كان يريد أن يجعل من هذا القسم خزانة أدب يجمع فيه النوادر والأشعار والأخبار المتفرقة عن مولد الرسول والأشواق إلى البقاع الطاهرة، لذلك أظهر في المقدمة محفوظه من الشعر والنثر، لذا بلغت المقدمة لوحدها حين طبعت 254 صفحة من الحجم المتوسط»².

أما الجزءان الثاني والثالث فهما في حكم الضياع، وقد بدأ كتابه بقوله: «يقول العبد الفقير المضطر إلى رحمة ربه المولى القدير، راجي عفوه أحمد بن عمار، لما دعنتي الأشواق النافقة الأسواق، إلى مشاهدة الآثار والأخذ من الراحة بالنار، وأن أهرج الأهل والوطن، شرعت إذ ذلك في المقصود، وأعددت طلسم ذلك الكنز المرصود، وأخذت في أسباب السفر»³، وقد تحدث أيضا في هذا الجزء عن سبب تسميتها بـ: رحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مفصلا القول في شرعية الحج مستشهدا بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، وعبر أيضا في المقدمة عن عزمه على الحج أوائل سنة 1166 وعن شوقه الحارق إلى الحجاز، وعن تأزمه الروحي عند استحضار الذكريات التاريخية، كما وصف المنازل والديار، والأصدقاء والأساتذة.⁴

كما تحدث عن بعض العلماء القائلين بمشروعية المولد النبوي الشريف، وعن ذم البدع القبيحة خلال الاحتفال به، وعن الجائز والمحرم فيه، وتغنى بمناقب وشمائل الرسول صلى الله عليه وسلم، ووصف الطبيعة، ومن ذلك قوله عن سنة السلف الصالح

¹ ينظر: عبد الله الركبي: الأعمال الكاملة، دار الكتاب العربي، بط، 2011م، 48/4.

² أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (مرجع سابق)، 183/1 .

³ زوهري وليد: أدب الرحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة دراسة وصفية تحليلية مجلة الدراسات اللغوية والأدبية العدد الأول يونيو 2012م، ص160/161.

⁴ أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (مرجع سابق)، 184/1.

في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف: جواز الاحتفال به، وهو ما ذهب إليه السيوطي وابن الجوزي، وابن حجر العسقلاني، وغيرهم من المتقدمين، واختار هذا الرأي من المتأخرين: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ حسين محمد مخلوف، وزاد على ذلك: وأن الاحتفال بالمولد النبوي وإن كان بدعة لم توجد في العصور الأولى فإنه من البدعة الحسنة، كذلك الأعمال صحتها وفسادها موقوف على النية، ولا شك أن نية شكر الله تعالى على ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم من النيات المستحسنة¹. ويشير أبو القاسم سعد الله إلى أن ابن عمار قد انتهى من كتابة رحلته ذلك أنه عاش مدة طويلة بعد الحجة المذكورة، وبعد أن جاور الحرمين ما يقرب من اثني عشر سنة.

والرحلة الثانية لما انتقل إلى تونس من الجزائر سنة 1159هـ بقصد الاستيطان بها وقد اندمج في محيطها العلمي، فكانت له نقاشات ومساجلات علمية.²

2.1.3 رحلة الحسين الورتلاني:

«وهو الحسين بن محمد السعيد الشريف المولود في بلدية بني ورتلان بولاية سطيف (1193/1125هـ، 1779/1713م)، وهو الإمام العالم العامل الكامل الأستاذ الهمام شيخ مشايخ الإسلام الورع الزاهد الشيخ سيدي الحسين الورتلاني، نسبة إلى بني ورتلان، أخذ العلم عن والده وأشياخ وطنه، ثم رحل إلى المشرق فحج، أما وفاته فكانت السنة العاشرة من القرن الثالث عشر.

حفظ القرآن الكريم في زاوية جده ووالده بالقرية نفسها على يد الشيخ يوسف بن بشران، ثم تفرغ لدراسة علوم الفقه والحديث والنحو والصرف والعروض على والده وشيوخ القرية والزواوية الآخرين، ثم شد الرحال إلى غيرها من البلدان داخل الجزائر

¹ عبد الجليل شقرون: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أبي العباس سيدي أحمد دراسة وتحقيق، رسالة دكتوراه جامعة تلمسان، 2016/2017م، ص 80

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، 235/2-236

وخارجها، لطلب العلوم والمعرفة، ثم قام بثلاث رحلات إلى البقاع المقدسة؛ لأداء فريضة الحج والاتصال بالعلماء والفقهاء ما بين (1153/1179هـ)»¹.

وتعدُّ رحلته المسماة بنزهة الأنظار؛ من أهم الوثائق التاريخية التي تؤرخ للعهد العثماني وترسم صورة الحياة في الجزائر، ناهيك عن المكانة العلمية والأدبية والدينية التي حظي بها صاحبها الورتلاني «الرجل الذي تتقف في وطنه ثقافة عصره واختلف إلى الزوايا الموجودة بمنطقته»²، ونسق الأوصاف الكاملة وحل المسائل الشائكة، تارة راتعا في رياض الفقه والحديث، وفي علوم التوحيد تارة أخرى، توفي (1779هـ) وترك رحلته المشهورة الرحلة الورتلانية وعنوانها — "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" وفي هذا الرحلة قصد الورتلاني «سيدي خالد وأولاد جلال وبسكرة ومنها إلى سيدي عقبة فزربية الوادي حامد، ثم توزر وقابس، وبعد ذلك تابع سيره على الساحل الليبي متوقفا بطرابلس، هذا وقد وصف الورتلاني هذه الأماكن، كما وصف مصر وأهلها وعلماءها وعاداتها، ومن مصر توجه إلى الجزيرة العربية، ثم تحدث عن مكة أيام موسم الحج، وعن المدينة وحياتها، وعن العلماء الذين لقيهم»³.

وإن حفلت هذه الرحلة بكلام عن تنقله إلى جهات مختلفة داخل الجزائر من غربها إلى شرقها ومن شمالها إلى جنوبها؛ فإن الحديث قد تركز على حجه، فقد ذكر أنه قصد تونس للدراسة، والانطلاق منها إلى الحج لكنه عاد إلى وطنه، ليكون هدف الرحلة الحج والتعلم⁴، كما تتمركز هذه الرحلة حول البحث عن المعرفة العلمية وملقاة الرجال، والتماس البركة من الأولياء، والرغبة في التقدير والمكانة الاجتماعية، وقد

¹ — أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، ص 409.

² — أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (مرجع سابق)، 361/2.

³ — أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، 409/2.

⁴ — عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث، (مرجع سابق)، ص 101.

عُرِفَ عن الورتلاني زهده وشدة تمسكه بدينه، واحترامه للأولياء والصالحين، وتواضعه أمام العلماء وانتقاده للبدع والخرفات.

وتعد هذه الرحلة مصدراً مهمّاً من مصادر الدراسة التاريخية والثقافية للمجتمع الجزائري، فيها وصف دقيق للمسالك وال عمران ومحطات القوافل ونقاط الماء، إنه وصف يمتزج فيه الواقع بالتاريخ، ومخزون الذاكرة بما تراه العين المبصرة، ومن ذلك قوله عن سيدي عقبة: «ولما فرغنا من زيارته رجعنا إلى الركب وأقمنا تلك الليلة في حفظه وعنايته حتى تنفّس الصبح ... نعم هذه القرية ليس لها نظير، فهي أحسن ما وجد في البلاد مزارع وأشجار ومياهها كما تقدم، وحسنها في المعنى أكثر بالسيد عقبة»¹.

وقد زار الورتلاني قبل الرحلة بعض العلماء والأولياء والصلحاء من مناطق عدّة من ذلك منطقة دلس وبجاية وزواوة التي رحل إليها لزيارة «الولي الصالح سيدي أحمد بن عمر، إذ سمعت به في صباي أنه من أهل التصريف، وقد أخبرني بذلك البعض من أهل الخير ممن يوثق بهم، وكان رضي الله يعرف أهل عصرنا ويطلع أحوالهم، ويعلم من كان من أهل التصريف منهم من المشرق والمغرب، وأنه أخبرني أن الشيخ سيدي أحمد الزروق بن مصباح وسيدي الحسين بن أعراب من بني يرذان من أهل الوقت... وهو الحق إن شاء الله، نعم هؤلاء فقهاء مدرسون متّبعون لأهل السنة وقد ظهرت عليهم آثار الفضل»²، ومثل هذا الصنيع يدل بحق عن طينة العلماء، فالرجل طلب العلم وسعى إليه ولما أدركه لم يبخل به عن غيره، ولعل ما يميز به الورتلاني هو الصدق في الحديث والصفاء في الشعور، ولذا نجده مغرقاً في حديثه عن وصف الحالة التي تنتابه

¹ - الحسين بن محمد الورتلاني: الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية ط1 القاهرة، 1429هـ/2008م، ص86-87.

² - المصدر نفسه، ص 19.

حين رؤيته لمعالم إيمانية أو حديثه عن شخصيات علمية أو دينية خصوصا الشخصيات المتصوفة.

ذكر الورتلاني أنّ الهدف من كتابة رحلته؛ ملء الفراغ الذي كان يسود منطقة المغرب الأوسط، من حيث انعدام المؤلفات، بالإضافة إلى أنه وضع تراجم العلماء والأولياء ليتعرف القراء عليهم، حيث يقول: «لما رأينا من وقوع الإهمال في تلك التراجم في وطننا فرسمنا كل ذلك رسما جيّدا، فحفظت من كل حلف وصف، ونقلت من فرع أخبار أصله...»¹، وهذا الهدف وتماشيا مع طبيعة هذه الرحلة لم يكن واحدا؛ بل كان متعددًا يتجلى ذلك في قول الرحالة: «لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرباع والقفار والديار، والمعاطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان، من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الأخيار، والأشياخ العارفين، والإخوان والمحبين... أنشأت رحلة عظيمة، يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار، مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة، والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية»²، فهي رحلة عظيمة حسب رأيه حيث تحدث فيها عن الحسن والقبيح مبرزا المحاسن والمساوي، ذكرا فيه بعض الأحكام الشرعية، وقد لقبه الحفناوي بالإمام العالم شيخ مشايخ الأعلام لاتساع معارفه واتصاله بالعلماء في كل البلدان، وحضور مجالسهم خاصة في مصر التي بقي فيها طويلا.

¹ - الحسين بن محمد الورتلاني: الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (مصدر سابق)، 127-

128.

² - المصدر نفسه، ص 16.

3.1.3. رحلة عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش الجزائري.

ولد في مدينة الجزائر (1107هـ/1695م)، وتوفي بعد نحو تسعين سنة في مكان وتاريخ مجهولين، وكانت أسرته فيما يبدو تمتهن الدباغة، لأنه وصف والده وعمه في بعض العقود بكلمة الدباغ¹، توفي والده وهو صغير، فكفله عمه الذي زوجه ابنته وأسكنه في منزله، ولم يتحدث ابن حمادوش عن هذا الزواج كثيرا، ولكنه أكثر الشكوى من زواجه الثاني الذي كان سيء الحظ فيه، وذكر أنه رزق بتوأمين من زوجته الثانية، ولم يذكر إن كان له أطفال من زوجته الأولى، وصرح في رحلته أنه لم يكن سعيدا مع زوجته الثانية بعد عودته من رحلته إلى المغرب حيث يقول: «فقدت ووجدت من الزوجة مثل ذلك، ولم أرها فرحت بقدمي، لأنها أيقنت أن أكثر المال ضاع لي، فلم يبق لها غرض فيّ، ولم تر لما عندي من العلم»².

وقد ألف عبد الرزاق بن حمادوش رحلة سماها "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، مخالفاً سابقيه من الرحالة، وسماها رحلة على أنها قريبة جدا من المذكرات اليومية، كما يقول أبو القاسم سعد الله، وذلك من خلال إسهابه في الحديث عن نشاطه الشخصي في الجزائر، وكان خروجه من ميناء الجزائر على متن سفينة فرنسية استأجرها تجار جزائريون يوم 14 فبراير 1743م إلى مدينة تطوان مروراً بجبل طارق حيث يقول: «بعد شروق الشمس خرجنا من جبل طارق... فدخلت تطوان في أول الساعة السابعة وصليت الظهر جماعة، فلقيت من علمائها الشيخ أحمد الورززي فسلمت عليه»³.

¹ ينظر: ابن حمادوش: رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1 بيروت، 1983م، 09/2.

² المصدر نفسه، ص 115.

³ ابن حمادوش: رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، (مصدر سابق)، ص 02.

«بدأ الرحلة وهو صغير السن فحج سنة (1130هـ) بالبر عبر تونس، ومنها إلى المغرب وقد أطل فيه الإقامة، ودرس على عدة مشايخ في فاس ومكناس وتطوان وأجازوه وجلس للتدريس ونسخ الكتب الكثيرة، وبعد أكثر من عام عاد إلى وطنه، وقد اكتسب علماً غزيراً، وفي سنة 1161 غادر الجزائر للحج أو نحوه ولم يعرف أنه بعدها قد عاد إلى وطنه أم توفي هناك»¹، تحدث في هذه الرحلة عن ذهابه إلى جبل طارق في السفينة والجماعة التي كانت معه وعن الخوف الذي انتابهم ومدة مكوثهم هناك بجبل طارق.

ويمكن تقسيم هذه الرحلة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وتحدث فيه عن رحلته إلى المغرب للتجارة وطلب العلم، فرحل إلى فاس لبيع سلعته، أما محطته في تطوان فكانت لشراء الكتب الدينية والأدبية، وذكر في هذا القسم كل ما شاهده وعاشه في المغرب، ومن ذلك حديثه عن عادات وتقاليد سكان المغرب خاصة الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف، ويقارن بينها وبين عادة الجزائريين في ذلك ومن الناحية العلمية تحدّث عن العلماء الذين زارهم، وأورد تفصيلاً مهمّاً عن الدروس التي حضرها في المغرب، فذكر أسماء العلماء الذين التقى بهم، وناقشهم وقرأ عليهم، ومنهم محمد الفاسي، والشيخ البناني وغيرهم، ويقول عن ذلك: «ونزلت في فندق السرايري في بيت مقابلة عين الشمال كراؤها ستة عشر موزونة في كل شهر، فلقبت الشيخ البناني عند باب داره لأنّي كنت أتيت له بأمانة من الجزائر فدفعتها له وافترقنا»²، بالإضافة إلى وصف عادة ليلة القدر، وعادة متولي الجامع الكبير.

¹— أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، 426/2.

²— ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش، (مصدر سابق)، ص32.

القسم الثاني: وتحدث فيه عن نفسه وأخبار مفرقة ومذكرات وحوادث يومية وحياته الشخصية الصعبة المليئة بالفقر والضييق والمشاكل، وقد كان الفقر سبباً في شقاء زواجه، حتى هربت زوجته الثانية وطلبت الطلاق، وفارقت أمه وأخوه، وحاول الجمع بين العلم والتجارة فلم يحالفه الحظ، لأنه كان لا يفارق الكتب¹.

القسم الثالث: وفيه تحدث عن كتب ووثائق أخذها عن المتقدمين والمعاصرين مثل الاكتفاء لابن الكردبوس، وأنس الجليل للعلمي وتجربته الشخصية، فالمحور الرئيس الذي تدور حوله الرحلة هو شخص المؤلف.

هذا وإن كان ابن حمادوش قد امتلك ثقافة واسعة شملت الأدب والفقه والتوحيد وغيرها؛ إلا إنه كان يميل إلى الكتب العلمية كالطب والفلك، وأراد أن يؤلف كتاب في الطب فألف كتاب (الجوهر المكنون من بحر القانون) الذي يبدو من عنوانه أنه اعتمد على كتاب القانون لأبن سينا، وقد تحدث ابن حمادوش عن هذا الكتاب فقال إنه رتبته على أربعة كتب: الكتاب الأول في السموم، والكتاب الثاني في التاريقات، والكتاب الثالث في الأمراض والكتاب الرابع خصصه لحل ألفاظ المفردات وتعريبها²، فهي رحلة مهمة فيها من العلوم والثقافة ما يفيد القارئ عن المغرب.

يمكن القول إن لرحلة ابن حمادوش قيمة عظيمة كونها تمثل جزءاً من تراث الجزائر العربي الإسلامي في العهد العثماني، كما تعد مصدراً مهماً لفهما الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية للجزائر والمغرب آنذاك، فكل ما جاء فيها من أخبار حول العادات والتقاليد وإحياء ليلة المولد النبوي يعد مادة أولية للباحثين في القرن الثامن عشر.

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، 425/2.

² - ينظر: المصدر السابق 428/2.

4.1.3. رحلة الحاج بن الدين الأغواطي:

بعنوان (رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية)، وكل ما يعرف عن ابن الدين أنه من عائلة تحمل هذا اللقب بمدينة الأغواط في الجنوب الجزائري، حيث يقول عنه أبو القاسم سعد الله: «ويبدو أنه لم يكن معروفاً على مستوى الجزائر في وقته، وقد سألنا عنه بعض المثقفين من أهل الأغواط فأفادونا أن عائلة بن الدين لازالت موجودة، وأنه كان معروفاً في وقته، وأنه كتب عملاً استحوذ عليه الفرنسيون، كان قليل التعليم كثير الاطلاع لأن معلوماته عن بعض أحوال العصر لا تدل على معارف دقيقة، وكثرة الاطلاع تدل عليها خبرته بالمناطق التي وصفها»¹، وقد كتب الرحلة بالعربية في (1242هـ) بناء على طلب ويليام هودسون الأمريكي، ذي النزعة الاستشراقية الحريص على جمع معلومات جغرافية تاريخية ولغوية، خصوصاً من البربرية وقد قام بترجمتها إلى الإنجليزية، إن هودسون يعترف في غير ما مناسبة أنه كان مهتماً بجمع المعلومات عن البربرية، ولذلك استعان بأحد طلاب زواوة الذي استفاد منه ترجمة لبعض أشعار هذه اللهجة، ولعله من أوائل المستشرقين المهتمين بهذه اللهجة، وفي هذا النطاق تأتي رحلة الحاج بن الدين الأغواطي، وذكر هودسون أن هدفه الأساسي من الحصول على هذا المخطوط هو التأكيد على امتداد رقعة اللغة البربرية، وقد أظهر المخطوط لحسن الحظ أن هذه اللغة هي لسان السكان في كل مكان بشمال إفريقيا².

وهي تقع في كراسة تحتوي على أربع عشرة صفحة، وكان القنصل قد طلب منه تفصيلاً أكثر ولكن ابن الدين اكتفى بذلك، ومن المناطق التي ذكرها ابن الدين في رحلته الأغواط عين ماضي، متليلي، جبل عمور، وادي ميزاب، ورقلة، تقرت، الدرعية قابس

¹ الأغواطي: رحلات جزائرية رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية (مجموع رحلات)، تحقيق أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، ط1 الجزائر، 2011م، ص 80.

² ينظر: أبو القاسم سعد الله أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، (مرجع سابق)، 246/2.

المنبعة وغيرها، وقد استفاد الأوربيون والأمريكيون أثناء اهتمامهم بالصحراء من هذه المعلومات التي كتبها ابن الدين عن قراها وعادات أهلها ومسالكها¹.

يقول في بدايتها عن الأغواط إنها "بلدة كبيرة، وهي محاطة بسور وحولها تحصينات ولها أربعة أبواب وأربعة مساجد ولغة سكانها هي العربية... وليس للمساجد فيها منارات، كما أنه ليس لهذه البلدة مكان مخصص للسوق، ولا حمام، أما العملة المتداولة فيها فهي عملة الجزائر وفاس، والتجارة فيها رائجة، ولا تقترب العقارب ولا الطاعون منها، لأنها مبنية في موقع مفضل².

وقد حظيت مدينة تميمون بنصيبها في هذه الرحلة وذلك بالوقوف على جوانبها الاقتصادية، ومما ذكر عنها «أن لها سوقا عظيما، وفيها التمر بالإضافة إلى غيره من الثمار، وفيها مياه غزيرة، ويوجد فيها أيضا الشب الأحمر... وتوجد فيها الخيول بكثرة ويصل الماء إلى وسط البلدة حيث يحضرونه في الأنابيب، ولها سوق يباع فيه العبيد وتراب الذهب بكميات كبيرة... وأهلها يملكون قطعانا كبيرة من الماشية، وللطوارق تجارة معهم»³.

كما اهتم بالجانب العمراني من خلال حديثه عن المباني وتحصين البلدان، فحينما يصف تميمون يشير إلى ذلك قائلا: «إنّ تميمون بلدة كبيرة، ولكن ليس لها أسوار تحميها لأن منازلها جميعا متراسة»⁴، ويقول في موضع آخر: إنّ الأغواط بلد كبير محاطة بسور وحولها تحصينات، وقد بنيت بلدة الأغواط من الطين بالدرجة الأولى، غير أن المنازل مبنية بالحجر والملاط⁵.

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، 2/ 387.

² - ينظر: المصدر نفسه، 2/ 252.

³ - الأغواطية: رحلات جزائرية رحلة الأغواطية، (مصدر سابق)، ص 93.

⁴ - المصدر نفسه، ص 93.

⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ص 87/88.

كما تكلم عن المجتمع الصحراوي من خلال تطرقه للعادات والتقاليد واللباس والقبائل والنساء واللغة، فيقول عن الأغواط: «ولغة سكانها العربية وهم يرتدون الملابس الصوفية، ولا تخرج فيها النساء المحترمات من بيوتهن أبداً، أما السكان فهم فريقان: فريق يسمى الأحلاف، وفريق يسمى أولاد سرقين»¹، ويقول في موضع آخر عن سكان المنيعية: «وسكانها يسمون بالشعانية وهم يتكلمون العربية ويركبون الجمال، وليس لهم خيول وسلاحهم السيوف والبنادق والرماح، ولباسهم من الصوف، والنساء هنا كالبدويات يذهبن إلى الآبار ويسقين الماء»².

ومن العادات التي تحدث عنها الأغواط في المجتمع الصحراوي طريقة صنع البارود وطريقتهم هي أن: «يجمع التراب من الأرض أو من الملاط في القرى المهذمة، وهذا التراب الذي كان في الأصل من مادة معالجة يوضع في ماعون ويصب عليه الماء، بنفس الطريقة التي يعالج بها الرماد عند صناعة الصابون. ثم يغلي الماء إلى أن يصبح خائراً، ثم يؤخذ رطل منه ويخلط مع أربعة أرطال من الفحم المستخرج من شجرة الدقلى، وهذه العناصر المختلفة تخلط جميعاً في غضون أربعة ساعات فتصير باروداً»³ ذلك أن بعض الباحثين اعتبر هذه الرحلة إنما كتبت لأهداف سياسية استعمارية محضة، وأن المرحلة الزمنية التي كتبت فيها غير كافية للإلمام بجميع الأماكن الواردة في الرحلة، ولهذا قد يكون وراء طلب هودسون نواة استعمارية تشمل المستوى الاقتصادي والسياسي والفكري.

5.13. رحلة محمد الكبير

«هو محمد بن عثمان الكردي بن إسحاق الحاج عثمان بن إبراهيم (ت1213هـ)، كان مُحِبّاً للعلم والعلماء، متضلعا في العلوم اللسانية، حافظاً لأشعار العرب، وله دراية

¹ الأغواطية: رحلات جزائرية رحلة الأغواطية، (مصدر سابق)، ص87

² المصدر نفسه، ص91

³ أبو القاسم سعد الله أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (مرجع سابق) 2/254

واسعة في علوم الدين»¹، اهتم بالنسخ والتأليف في الجزائر، فكان من الذين شجّعوا هذا العمل الثقافي الجاد، إذ أمر باختصار الكتب المطولة، ونسخ المخطوطات النادرة النفيسة، وبعث التأليف في شتى العلوم² وهذه الرحلة من تأليف كاتبه ومستشاره أحمد بن هطال التلمساني المتوفى (1219هـ/1804م)، وقد كتب ابن هطال هذه الرحلة تنفيذا لرغبة الباي حين نهض انطلاقا من وهران في حملة لإخضاع مناطق الصحراء الجزائرية إلى سلطة الداوي، فتولى ابن هطال تقييد الحوادث في الذهاب والإياب، فيعلن من البداية أن قيمة الناس مرتبطة بطاعة الباي، فيسجل يوم الشروع في هذه الرحلة العسكرية باليوم، كما تابع مراحلها مقدرًا المسافات بين القرى والمدن بالساعات مشيا على الأقدام³.

وهي من الرحلات المهمة لاحتوائها على أخبار جغرافية وسياسية وعسكرية وأدبية لا يستغني عنها أي دارس للجزائر خلال القرن 12هـ/18م، حيث نقل فيها كاتبها أخبارا عن حالة البلاد التي سادها خروج الكثير من القبائل في الريف على طول الطريق، وهو الوضع الذي عزم الباي على تغييره، فذكر ابن هطال شجاعة محمد الكبير لتحقيق مراده وأشار إلى التنظيم المحكم والاستعداد الكبير الذي كان منه، بالإضافة إلى حديثه عن مناطق العبور، حيث كان الانطلاق من مدينة معسكر مرورا بالدار البيضاء، وخنق الملح، وقصر أوغل، الأغواط⁴، وغيرها من المناطق التي مر بها مما سمح له بالاطلاع على جغرافيا الصحراء الجزائرية وأحوالها.

¹ - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791) سيرته حروبه وأعماله، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1 الجزائر 1986م، ص140.

² - ينظر: الحياة الثقافية في الجزائر، خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، 1954م، الجزائر، ص31.

³ - المرجع نفسه، ص102.

⁴ - ينظر: أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الجزائري، تقديم محمد بن عبد الكريم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2004م، ص35.

وهاته الرحّلات من أطيب رحلات القرن 18م؛ وذلك من حيث المادة الأدبية والطابع الفكري، كما صورت أوضاعا اجتماعية وسياسية وثقافية عن البلدان التي زاروها، كما تمثل هذه الرحلات جزءاً مهمّاً من تراث الجزائر والمغرب في العهد العثماني مع أن معظمها في حكم الضياع، كما تعرفنا هذه الرحّلات بأحوال القبائل الجزائرية وعاداتها وأنماط عيشها بما في ذلك المدن والقرى، كما تنوعت الرحّلة الجزائرية خلال العهد العثماني بتنوع العوامل التي دفعت إليها، والأهداف التي سعت إليها، وعموما جاءت هذه الرحّلات متقاربة في سردها ولغة خطابها وطبيعة أسلوبها، ولم تخرج في ذلك عما تتميز به كتابات ذلك العصر.

2.3. الرحّلات الجزائرية إبان الاستعمار الفرنسي:

يرى أبو القاسم سعد الله أنه لا وجود لرحلة جزائرية مكتوبة على الطّريقة التقليدية التي يتحدّث فيها صاحبها عن ملاقاته ومشاهداته وما وقع له خلالها؛ كما فعل الرحّالة المغاربة خلال المرحلة الثورية، وإن كان الجزائريون قد تنقلوا إلى البلدان الأخرى كغيرهم وحجّوا إلى بيت الله الحرام غير أنه لا يوجد من سجل رحلته رغم تنقلهم في إفريقيا والبلاد العربية وآسيا والأمريكيتين «ولذلك فإن حديثنا عن الرحّلات هنا فيه تمخل وتعسف، فنحن نشير فقط إلى تقاييد وإلى مدونات لا تدخل في باب الرحلة إلا تجاوزاً»¹.

قام بهذه الرحّلات بعض رجال الحركة الإصلاحية من علماء وأدباء، إذ اتّجه بعضهم إلى داخل الجزائر بهدف دعوة الشعب إلى النهوض واليقظة، كما اتّجه آخرون إلى خارج الوطن؛ فمنهم من ذهب إلى المشرق العربي ومنهم من رحل إلى الاتحاد السوفياتي، من أجل التعريف بقضية الشعب الجزائري، ومن هذه الرحّلات نجد:

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، 579/10.

1.2.3. رحلة الشيخ محمد المنصوري الغسيري:

الغسيري هو عَلمٌ من أعلام الإصلاح في جمعية العلماء المسلمين، ومن أعظم الشخصيات التي أنجبتها الجزائر، ومن أبرز أعلام النهضة الوطنية والحاملين لهموم القضية الوطنية، وهو محمد بن أحمد يكن المنصوري الغسيري، ولد بقرية غسيرة عرش أولا منصور عام 1915م، ولكنه لم يسجل في سجلات الحالة المدنية، إلا في سنة 1919م، لُقّب بالمنصوري نسبة إلى قبيلة أولاد منصور، ذات الأصول الأمازيغية، ولما بلغ السابعة من عمره أُدخِل الكتاب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وتلقى تعليمه القرآني على يد عدد من المشايخ في بلدته، وفي سنة 1927م التحق بزاوية الشيخ أحمد بن الصادق أين أتم حفظ القرآن الكريم في أربع سنوات¹.

امتاز محمد الغسيري منذ صغره بالذكاء والدهاء، فقد حفظ القرآن الكريم في سن الثالثة عشر من عمره، وهذا السن يعتبر مبكرا لطفل عاش في بلد يسوده الاستعمار الفرنسي المتسلط على عناصر الهوية الوطنية، أصيب الغسيري بمرض في عينه فتوجه إلى بسكرة للعلاج، وأقام بها أين التحق بزاوية سيدي الجودي ودرس الفقه واللغة على يد شيوخ الزاوية نذكر منهم: محمد الصغير جودي عمار بن جودي، وفي سنة 1931م التحق الغسيري بمدرسة الإخاء التي أسست من طرف نخبة من فضلاء بسكرة، أسموها مدرسة الإخاء للتربية والتعليم بإشراف الأستاذ محمد خير الدين².

¹ — مسعود فلوسي: مقالاتي المنشورة في جريدة البصائر الشيخ محمد المنصوري الغسيري، حياته وآثاره، ص1 مقالات منشورة

على الرابط fac-sciences-isiamiques-ar.univ-batna.dz تاريخ الزيارة 2020/10/1 12:45.

² ينظر: محمد الحسن فضلاء: من أعلام الإصلاح في الجزائر، دار هومة، ط1 الجزائر، 2000م، 279/1.

وفي عام 1933م أرسله أستاذه محمد خير الدين¹ رفقة زميله مسعود صحراوي؛ إلى قسنطينة حاملا معه توصية خاصة من الشيخ خير الدين، وعندما دخل على الإمام عبد الحميد بن باديس في مقصورته وطلب منه الجلوس بين يديه وأخذ العلم عنه، وافق الإمام على طلبه، حيث درس على يديه علوم الشريعة واللغة العربية، واقتبس من أدبه كما أخذ من علمه، وخلال مرحلة طلبه للعلم على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس تفتح وعيه الوطني، وأدرك خطورة المستعمر الفرنسي على وطنه وبني قومه، فأسس بقسنطينة رفقة عددا من زملائه منهم أحمد بن زياب وعلي شطاب ومحمد الصالح رمضان خلية سرية ثورية وكانت هذه الخلية تجتمع بعد صلاة العصر في الجامع الأخضر.²

امتاز محمد الغسيري بموهبة الخطابة والفصاحة والبلاغة التي أخذها من معلمه الشيخ ابن باديس، وقد لاحظ ذلك معلمه فكان يكلفه بإلقاء الدروس في المسجد، وامتك موهبة عالية في الكتابة والتأليف، إلا أن انشغاله بالتدريس والإدارة والتفتيش في ميدان التعليم والتربية منعه من أن يتفرغ للكتابة، لذلك كان ما كتبه قليلا مقارنة بعلمه الغزير، وقد ترك العديد من المقالات، وبعض المصنفات التي لازال العديد منها لم ينشر بعد، وبعض الرسائل الإخوانية ومجموعة خطب، توفي الغسيري يوم 24 جويلية 1974م.

وفي سنة 1953م ارتحل إلى مصر العربية لحضور حفلات الذكرى الأولى للثورة يوليو 1952 استجابة لدعوة الكشافة المصرية، وقد استقبلوا أثناء مرورهم بليبيا من طرف كشافة طرابلس، وشاركوا في استعراض بشارع عمر المختار منشدين (شعب الجزائر

¹ محمد خير الدين: من مواليد 1902م بفرافر ولاية بسكرة وفيها حفظ القرآن الكريم، أخذ مبادئ العلوم اللغوية والشرعية، انتقل إلى قسنطينة وتتلذذ على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس انتقل إلى تونس للدراسة في الزيتونة ساهم في تأسيس جمعية العلماء المسلمين. أنظر أسعد لهلالي: الشيخ خير الدين وجهوده الإصلاحية في الجزائر 1902-1993م، ص54.

² ينظر مسعود فلوسي: مقالاتي المنشورة بجريدة البصائر (مرجع سابق)، ص2

مسلم) وعند الوصول إلى مصر حظي الوفد باستقبال حار من قبل الكشافة المصرية، وهيئت لهم جولات وزيارات واستقبالات على مدى عشرة أيام، ولما عاد سجّل رحلته التي عنونها بـ: "عدت من الشرق" ونشرت في جريدة البصائر على حلقات بلغت نحو عشرين حلقة من بينها حلقة بعنوان: "مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الإسلامية الجزائرية"¹.

«وعندما وصل وفد الكشافة إلى القصر جاء الإبراهيمي من بيروت لتحييتهم وأقام لهم حفل شاي، دعا إليه شخصيات عديدة مذكورة في الرحلة، وخطب فيهم كعادته وكذلك فعل الورتلاني، كما خطب فيهم بعض زعماء الإخوان المسلمين منهم عبد المعز عبد الستار وانتهى الحفل بنشيد شعب الجزائر مسلم، ولما انتهت المهمة عاد الوفد إلى الجزائر، أما الغسيري فقد اغتتم الفرصة وذهب لأداء فريضة الحج مع الشيخ الإبراهيمي»².

ومن مصر انتقل إلى مكة لأداء فريضة الحج رفقة البشير الإبراهيمي، ويرجع سبب هذه الزيارة للحرمين الشريفين هو أن الإبراهيمي تلقى دعوة من الملك سعود، فرافقه الغسيري من القاهرة بعد أن ودعهم في مطار القاهرة شباب البعثة الطلابية الجزائرية ومدرسوهم واتسعت هذه الرحلة إلى سوريا ولبنان، فدوّن مشاهداته وانطباعاته، وكتبها في رحلة حملت مشاعره ومواقفه بعد عودته.³

فرحلة الغسيري شملت عدة بلدان عربية إسلامية، ووقف فيها الرحالة على الأوضاع الثقافية والاجتماعية لتلك البلدان التي زارها، «ووصف مناسك الحج والاحتفالات المرافقة في مكة، واغتتم فرصة وجوده في المدينة المنورة وشكا للرسول صلى الله عليه وسلم

¹ مسعود فلوسي: مقالاتي المنشورة بجريدة البصائر (مرجع سابق)، ص 2

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. (مصدر سابق)، 579/10-580.

³ ينظر: عمر بن قينة: أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1 دمشق 2000م، ص 48.

حاله وحال الإسلام مع النصرانية، وضعف المسلمين إزاء الأوربيين في بلاده، شكا ضياع الأوقاف وادعاء فرنسا أنها دولة إسلامية، وهي مناجاة سياسية مقصودة¹.

كما وصف مكة المكرمة وصفا جغرافيا بخلفية تاريخية دينية، يعود بها إلى عهد إبراهيم عليه السلام، فيتمكن من نفسه توق روعي يتشوق فيه إلى عزة ينهض بها المسلمون وقد أعدّ لهم الملك سعود بن عبد العزيز في قصره حفلة عشاء للضيوف البارزين في العالم الإسلامي والذين من بينهم الغسيري والبشير الإبراهيمي، فوصف مأدبة العشاء الفاخر في أبهة ذات طابع رومانسي خلّاب في قصر اتّسع طابقه الأول للألوف، حيث تتواجد قاعات فخمة فسيحة للاستقبال والأكل، قد يضيق بها من يمقت الترف الزائد عن الحد الطبيعي، لكنه يطمئن حتما لذوبان الفروق الطبقيّة في الحفلة بين المدعويين كما تقتضي الأخلاق الإسلامية².

ولما طاف طواف القدوم وسمع أدعية الزائرين للحرم المكي تأثر لجلال الموقف كما وصف طريق عرفات الصعب والعودة منها، كما زار قبر السيدة خديجة، ودار أبي سفيان وبيت مولد النبي صلى الله عليه وسلم وغيرها.

لقد حرص الغسيري على تمثين علاقته بالعلم والعلماء، لهذا نجده خلال مسار الرحلة الحجازية» يتحدث عن لقاءات العلماء بين رجال الحجاز، وعلماء من العالم الإسلامي خاصة في فندق مصر بمكة الذي صار المركز الرئيسي لتجمع خيرة رجال العروبة والإسلام، وقد أثنى الكاتب على الملك عبد العزيز وولي عهده فوصفه بأنه رجل مؤمن صادق متدين، تواق إلى تطوير بلده، عامل لصالح العروبة والإسلام³.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، ص 580.

² ينظر: عمر بن قينة: أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، (مرجع سابق)، ص 55.

³ المرجع نفسه، ص 56.

«وجد الوفد العائد من الحج مع الإبراهيمي في استقباله في مطار القاهرة عبد الله الجابر الصباح وزير المعارف الكويتي والجالية الجزائرية وعلى رأسها الورتلاني وطلبة البعثة، وأحمد طالب نجل الإبراهيمي وجماعة من علماء الأزهر وظلوا أسبوعاً في مصر من ضيافة إلى أخرى، ولم يسع الغسيري سوى دعوة من استضافوهم لزيارة الجزائر باسم جمعية العلماء، وبالخصوص باسم الشيوخين العربي تبسي، ومحمد خير الدين، نائب الشيخ الإبراهيمي اللذين بقيا في الجزائر»¹.

وصف الغسيري القاهرة وكان أول ما نال إعجابه هو جامعها بهياكلها وحدائقها الغناء، ووصفه الانضباط، كما قدم صورة أخرى عن مساجد القاهرة إلى جانب المؤسسات الثقافية الأخرى، حيث تكتظ المساجد بالمصلين خاصة في يوم الجمعة، وهذا للإقبال الشديد على المساجد وخطب الجمعة التي يتولاها علماء مؤهلون فكرياً وعلمياً ويعمل الدعاة في ذلك عملاً مهمّاً يتجلى فيه فكر نخبة واعية ناضجة، لأنّ خطباء المساجد في القاهرة هم في الغالب من الفئة الصالحة في البلاد.²

احتلّ الغسيري مكانة عالية في قلوب محبيه؛ كيف لا وهو المصلح والمربي، ومما يدل على مكانته الرفيعة أنّه لما رجع إلى القاهرة زار الرئيس المصري الجديد «اللواء محمد نجيب الذي أحسن استقبالهم وأخذوا معه الصور، وأهداهم صورته، بينما أهدوه شعار الكشافة الإسلامية الجزائرية، وأخيراً توجهوا إلى دار الإذاعة المصرية وسجلوا كلمات وأناشيد أذيعت في حينها، وتحدث الغسيري عن الدرس الذي ألقاه الإبراهيمي في نادي الإخوان المسلمين وعن نشاط مكتب جمعية العلماء بمصر وزواره الذين لا يكاد ينقطع سيلهم، ولا سيما حجاج المغرب العربي»³.

¹ - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، 581/10.

² - ينظر: عمر بن قينة: أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، (مرجع سابق)، ص 51.

³ - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، 580/10.

ومما عرف عنه أنه كان يقدم النصائح لطلابه وأبناء منطقتهم، والمساعدات المادية وقضاء العديد من الحاجيات، ويلقنهم الطريقة المثلى أمام العدالة الاستعمارية وتقديم الحجج لإثبات حقوقهم، وهي الصفة نفسها التي تحلّى بها وهو على رأس الكشافة الإسلامية، فلما ودّع الغسيري الوفد الإذاعي «حيا كل من استقبلهم وقدم لهم النصح كما حيا مصر ورجالها ومواقفها في الدفاع عن العروبة والإسلام»¹

بعد انتهائه من مناسك الحج وعودته إلى مصر؛ زار سوريا ولبنان والعراق والأردن مروراً بتونس وليبيا وتعرف هناك على رجال الفكر والثقافة وعلماء الدين.

2.2.3. رحلة العربي تبسي:

العربي تبسي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات ولد سنة (1312هـ/1895م) بناحية أسطح جنوب غرب تبسة، تعرف قبيلته بأجروم والنموشية وهي قبيلة بربرية كبرى من مدينة خنشلة إلى شرق تبسة، تربى على مبادئ الدين وتعلم اللغة العربية بعد وفاة والده بقي أربع سنوات بكتاب بلده يحفظ القرآن الكريم حتى بلغ الثانية عشرة من عمره، فانتقل إلى زاوية سيدي ناجي أين حفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى مدينة نفطة جنوب تونس فتعلم علوم الدين واللغة، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة، وبعد سبع سنوات من التعلم بجامع الزيتونة انتقل إلى الأزهر بمصر سنة (1920م)²، وهناك انقطع للعلم والتردد على المكتبات العامة، فدرس الأدب والتاريخ «وتعمق في فهم الشريعة الإسلامية وعرف فلسفتها، فدرس كتاب الموافقات في أجزاء الأربعة، وكتاب الاعتصام، ففهمهما فهما

¹ - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، ص 581.

² - ينظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية ببيروت، ط2، 1980م ص 61. وانظر محمد على دبور أعلام الإصلاح في الجزائر، مطبعة البعث قسنطينة، ط1، الجزائر، 1974م، 187/1.

عميقا فازداد حبا للشرعية الإسلامية التي هي علم الاجتماع، والتربية وعلم النفس... فيها كل العلوم التي بهواها العربي التبسي»¹.

وهذا المسار العلمي الحافل بالنشاطات العلميّة أسهم في تكوين شخصية التبسي الإصلاحية والدينية نتيجة احتكاكه بعلوم الشريعة، ولما عاد إلى الجزائر عاد مصلحا وموجها يوجه الناس إلى أمور دينهم ودنياهم، إضافة إلى ذلك تكوين شخصية العربي التبسي الأدبية وذلك من خلال احتكاكه بالنشاط المعرفي العلمي والأدبي والصحفي للأدباء أمثال الثعالبي الذي «كان يحضر خطبه ومحاضراته، وأحاديثه للطلبة في مجالسه، فيزداد إعجابا بشخصيته، وبجهاده... وكان الثعالبي وأنصاره العلماء المجاهدون أمثال أحمد بن عمار، محمد الرّيحاني، وأحمد توفيق المدني وغيرهم ينشرون مقالاتهم الحارة الدّسمة في أغلب الصحف والمجلات، وكان العربي يقرأ من هذه الصحف والمجلات إذا انتهى من دروسه، فينتشي بها كل الانتشاء»². والتبسي هو أحد أعمدة الإصلاح في الجزائر احتل الصدارة العلمية بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهو النائب الأول للإبراهيمي في جمعية العلماء المسلمين وأحد الأعضاء الخطباء والفقهاء العاملين فيها بكل إتقان وصدق، درس وتخرج من الأزهر سنة 1927م، وأدى فريضة الحج عشية الثورة، ومكث في المشرق عدة أسابيع وتجول في مدنه وبعض عواصمه، ولكنه لم يسجل رحلته.

وأثناء غياب الإبراهيمي كان التبسي هو الذي يدير شؤون جمعية العلماء في الجزائر وفي أوقات حرجة، وقد اندلعت الثورة وهو الرئيس الفعلي للجمعية، فكان عليه أن يسيّرهما وسط هزّات عنيفة انتهت باستشهاده سنة 1957م.³

¹ - محمد علي دبور، أعلام الإصلاح في الجزائر (مرجع سابق)، 1/68-69.

² - المرجع نفسه، 1/56.

³ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق) 10/584.

سافر التبسي إلى مصر في 8 يوليو و1954م، فوجد في استقباله الإبراهيمي والورتلاني والسيد أحمد بيوض (ممثل حزب البيان)، والشاذلي المكي (ممثل حزب الشعب)، وجمعاً من أعضاء الجالية، وبعض علماء الأزهر، غير أنه لا يوجد وصف مفصل عن تنقلاته ومقابلاته ما عدا ما كتبه السيد البشير كاشة الذي لخص نشاط الشيخ في المدينة المنورة.¹

كان البشير كاشة من طلاب البعثة الجزائرية، فرصد نشاط التبسي في المدينة المنورة إذ قال: إنه اجتمع مع عبد العزيز بن باز مفتي المملكة، وكان أحمد بوشمال أحد أعيان قسنطينة مرافقا للتبسي في أداء فريضة الحج، قضى التبسي تسعة أيام بالمدينة، وبعد زيارة الأماكن المقدسة استقبله الملك سعود في قصره بجدة، وفي مكة تعرف على سعيد رمضان الذي طلب منه المشاركة في المكتب الدائم للمؤتمر الإسلامي العالمي الذي انعقد بالقدس فقبل الشيخ الدعوة.²

وفي الحفل السنوي الذي أقامه الإخوان المسلمون حضر الشيخ التبسي، وتكلم علماء مصريون وسعوديون وتكلم أيضا الشيخ التبسي، وبعد انتهاء مناسك الحج غادر الشيخ مكة متوجها إلى لبنان للقاء الشيخ الإبراهيمي فكانت جملة أيامه في الأماكن المقدسة.

عاد التبسي إلى الجزائر وجاءت الوفود المهنئة إلى مركز الجمعية بالعاصمة وقد تحدّث عن رحلته الناجحة معربا عن رأيه أنّ الحكومات العربية سائرة في طريق النمو في الحجاز والشام ومصر، وتحدّث عن الإبراهيمي والورتلاني فقال عن الأوّل إنّهُ مستشار المراجع الإسلامية، وقال عن الثاني بأنّه منشغل بحل مشاكل الشعوب الإسلامية.³

¹ - ينظر: محمد علي دبور، أعلام الإصلاح في الجزائر (مصدر سابق)، الصفحة نفسها.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 585.

³ - المصدر نفسه، ص 585.

لقد كرّس العربي التبسي حياته من أجل الجزائر العربية المسلمة في ظل استعمار عمل مدة قرن ونصف على اقتلاع العروبة والإسلام من جذورها، كان يتتبع أحداث الجزائر ويتجاوب معها بنشر مقالاته النيرة في الجرائد اليومية مثل الشهاب، فقد استفاد من المقالات التي كانت تنشر في الصحف والمجلات المصرية، خصوصا وأن مدة إقامة التبسي بمصر تزامنت مع نبوغ العديد من الكتّاب والشعراء والعباقرة أمثال حافظ إبراهيم، المازني، العقاد طه حسين¹.... «وأقبل العربي على هذه المقالات يقرأها في عمق ونشوة، ويتمنى صدور المجلات والصحف التي تنشر فيها، ويسارع لاقتنائها إذا صدرت، فاستفاد أدبا كثيرا وعلما غزيرا من هذه القراءة، وتعلم أسلوب المقالة وطرق البحث والتفكير العميق»². ثم عاد إلى الجزائر سنة 1927م فاشتغل بالتدريس في تبسة وغيرها، وقد وجد حركة التعليم نشيطة، فاستعمل المسجد، ولما ضايقته الإدارة الفرنسية أشار عليه ابن باديس بالتوجه إلى سيق غربا، وفي أثناء ذلك تبرع أحد أبناء تبسة المحسنين (الحاج الحواس) بدار له فحولها التبسي إلى مدرسة وجلب إليها أربعة معلمين. وهكذا أصبحت مدرسة تضم نحو 400 تلميذ³.

وبهذا أنهى العربي التبسي رحلته العلمية؛ لتبدأ حياة التعليم والإرشاد والإصلاح بعد أن تزود بالعلم الواسع والفكر المتحرر، قضى حياته في الجزائر وهو ينتقل بين مدن الجزائر شرقا وغربا، مع القيام بنشاطات مختلفة كالتدريس والصحافة والإدارة، كيف لا وهو خريج الزيتونة والأزهر فهو بطل من أبطال الجزائر ومثالا حيا للنضال الإسلامي النزيه.

¹- محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر (مرجع سابق)، ص586.

²- المرجع نفسه، 72/1.

³- ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق) 256/3.

3.2.3. محمد الباهي فضلاء:

هو كاتب مسرحي ممثل، منتج بالإذاعة الجزائرية، مقدم قصص اجتماعية من مواليد 1931م بسطيف، كان كاتباً مسرحياً وممثلاً بارعاً، اشتغل محافظاً مكتتبه رئاسة الجمهورية وقدّم قصص اجتماعية بالتلفزة (2002م)، من مؤلفاته "دقت الساعة"، "الطيب العقبى رائد الإصلاح الديني في الجزائر"، وقصص أخرى.¹

ارتحل برّاً رفقة جماعة من أهل الفن في العام الأول للثورة، حيث انطلقوا من الجزائر مروراً بتونس وليبيا التي التقوا فيها بفرقة مسرحية، فاستضافوهم وطلبوا منهم تمثيل مقطع مسرحي فلبّوا الطلب وقدموا رواية (الصحراء) ليوسف وهبي الذي زار الجزائر عام 1954م، ومن هنا جاءت هذه الفكرة «عرضوا على هذا الفنان الكبير فكرة زيارة مصر، فوافقهم على ذلك ووعدهم بتسهيل المهمة»²، لكن الحظ لم يكن حليفهم فلم يوفقوا في هذه الرحلة، إذ وصلوا إلى القاهرة آخر شهر نوفمبر 1955، ونزلوا ضيوفاً على يوسف وهبي، وقد أتاح لهم فرصة التدريبات اليومية في مركز فرقته، وطلب من عميد المعهد العالي للتمثيل أن يسمح لهم بحضور المحاضرات التي كانت تلقى على الرجال والنساء.³

والواضح أن أفراد الرحلة كانوا يسعون إلى الدراسة والتسجيل في المعهد، لكن بحضورهم للدروس التي كانت تلقى في المعهد اكتشفوا أنّ مستواها غير رفيع إضافة إلى شروط تعجيزية للالتحاق بالمعهد حالت دون رغبتهم في البقاء هناك، «وانتقد الباهي فضلاء نظام المعهد، واستثنى من هذا الحكم القاضي بعض المحافظين في نظره وهم: أحمد البدوي، أحمد علام، فتوح ناشطي، وعبد الرحيم الزرقاني، ومن الذين قابلوهم: زكي

¹ - رايح خدوسي: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، ط1، 2003م، 378/2.

² - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (مصدر سابق)، 586/10.

³ - ينظر: المصدر نفسه، 586/10.

طليمات الذي نصّحهم بالرجوع إلى وطنهم، لأن المعهد لعالي لا يفيدهم في شيء»¹، بعده اتصلوا بمخرج المسرح صلاح أبو سيف لكنه هو أيضا خيب آمالهم بشروطه التعجيزية، وطلب منهم ضمان بيع الفيلم في شمال إفريقيا، مقابل مشاركتهم في بعض الأفلام، بعد ذلك رجعوا إلى أرض الوطن خائبين.

4.2.3. رحلة احمد رضا حوحو:

لقد كان لأحمد رضا حوحو أعمال أدبية كثيرة منها القصة المسرحية والرحلة واحدة من هذه الأعمال، حيث نشر في جريدة الشعلة الأسبوعية رحلته إلى الاتحاد السوفياتي عام (1950م)، وقد دامت هذه الرحلة سبعة وعشرين يوما حيث كانت هذه الرحلة تحت قيادة وفد إفريقيا الشمالية وسجل انطلاقها من باريس وصولا إلى مدينة براغ. هذه المدينة التي وجدها غارقة في احتفالات الطلبة بمناسبة مؤتمرين عالميين للطلبة حيث يقول الرحالة «فحينما كنت أتجول مختلطا بالمتنزهين تقدم نحوي لفيف من الفتيان والفتيات فطلبت مني إحداهن أن أقدم لها شيئا تذكارا عن بلادي ولم يكن معي شيء ذو بال سوى ورقة ذات عشرين فرنك جزائرية، وما كدت أناولها إياها حتى ارتمت في عنقي، وأخذت تعانقني كأنها أخت تقبل أخاها أما أنا فبقيت مندهشاً، وأما بقية الحاضرين فلم يأخذهم أي عجا فالمنظر مألوف لديهم وما هو إلا عبارة شكر حارة ولكنني أنا الذي قدمت من هذا العالم المادي الخالي من الروحيات والعاطفة الأخوية، فلم استطع تفسير هذه الظاهرة إلا حينما جلست في إحدى المقاعد ووجدت نفسي محاطا بالأطفال يرتمون في أحضانني»² والرحالة يبدو أنه معجب بالتفتح السوفياتي فقد أعجب بجماله وطريقة تفكيره في الحياة ونظامه الذي يختلف عن أنظمة العرب.

ثم شرع في وصف مدائن الدولة السوفياتية زمن هذه المدن مدينو موسكو التي وصف شوارعها وبنياتها وأعجب بما فيها من النظافة و الجمال «فالمدينة على وجه العموم غاية في

¹ -أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (مصدر سابق)، الصفحة نفسها.

² - شخصيات ثقافية من وحي الرحلة، محمد الصالح رمضان، منشورات الحضارة، ط1 (2009م)، ص

النظافة والاعتناء لكنها لا تبلغ جمال باريس وأناقته غير أنه كل حي من أحياء موسكو يحمل طابع سكانه من حيث المطاعم والمتاجر»¹ ثم ينتقل إلى الجانب الثقافي فنقل الصورة الايجابية على الجانب التعليمي الذي هو البوابة الحقيقية لبناء ثقافة منهجية علمية على أرض صلبة تكون منطلق الإبداع.

بالإضافة إلى رحلته هذه فقد توجه قبلها إلى باريس التي كانت قبل رحلته إلى الاتحاد السوفياتي، من أجل المشاركة في المؤتمر العالمي للسلام الذي انعقد باريس ضد الحرب واتصل فيه بكبار الشخصيات العالمية.

5.2.3. رحلة "محمد علي دبوز" (1919-1981م)

رحل إلى مصر لمتابعة تحصيله التعليمي 1942؛ وألف رحلته المسماة «وقفة في دار الرافعي وعلى قبره»، تظهر خصوصية المادة وانحصارها في موضوع واحد، وهو الحديث عن الأديب والمصلح "مصطفى صادق الرافعي"، فرحل إلى المدينة التي عاش فيها (طنطا) المصرية، وزار قبره واكتشف الأماكن والمعالم التي ارتادها²، بغية الاقتداء بشخصية الرافعي والتفاني في خدمة العلم، والإخلاص لهؤلاء الأدباء، تشبّع الرحالة بالفكر الديني والإصلاحي حرضه في النهاية على تحقيق أمنيته، إذ يقول: «وما أشدّ فقرنا إلى جيش من البلغاء يرابطون تحت راية القرآن كالرافعي، ليعرفوا معانيه في النفوس وينعشوا العربية التي يصر الاستعمار الفرنسي على قتلها في الجزائر»³.

ولعل إعجاب محمد علي دبوز بمدينة طنطا مرده إلى الرافعي، وما يمتلك من سعة في علمه وحسه الديني وأصاله فكره، وسبب تأليف محمد علي دبوز لرحلته هو: «حثّ الشباب الجزائري والمتأدبين على الاقتداء بشخصية الرافعي، في خدمة العلم والفن

¹ -سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص133/139.

² - ينظر: سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص92.

³ - عمر بن قينة: أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث، (مرجع سابق) ص187.

والإخلاص لهما وعدم التكاثر على الانتاج والتأليف فيها؛ إيماننا منه بأن العلم هو السلاح الأقوى لتسيير حال الجزائر والجزائريين»¹، إضافة إلى عبقريته وثقافته المتنوعة فهو الأديب والمصلح والبلوغ والناقد، كما درّس لطلبته في معهد الحياة شعر الرّافعي إذ يقول: «وكان من الفنون التي أتولى تدرسها في معهد الحياة في سنته النهائية الأدب العربي، وكنت في ذلك اليوم مع تلاميذ هذه السنة ندرس قصيدة الرّافعي في رسائل الأحران "حيلة مرآتها" ونقارن بينها وبين قصيدة البحترى، وكنت منتشيا بالجمال الشعري، وأعيش في جو الرّافعي الخلاب وكنت أحبُّ الرّافعي وأغرم بأدبه وأراه سيد الأدباء في العصر الحديث»².

ولهذا دعا الشباب الجزائري للاقتداء به في النهوض بالعلم والدين، وعاب عليهم بشدة حياة الكسل والخذلان والافتتاع بالقليل والإعراض عن البحث والتأليف، ومن هذا نلمح بوضوح اعتزاز الرّحّالين بعروبتهم وقوميتهم.

3.3. الرحلات الثقافية والتراثية.

1.3.3. رحلة محمد ناصر:

رحل إلى مسقط رأسه بسلطنة عمان وعنوانها بـ (أوراق ثقافية من عمان) في حلقتين اثنتين بجريدة السلام؛ كان العنوان الفرعي للحلقة الأولى: الصحابي الجليل مازن بن غضوبة في ندوة ثقافية، أما عنوان الحلقة الثانية الفرعي فهو جسور المحبة والتعاون³، وقد قدّم الكاتب في الحلقة الأولى صورة عن الانضباط الذي جرت فيه أشغال الندوة والجدية في المعالجة والثراء الفكري والحوار العلمي الهادئ، أما في الحلقة الثانية فقد

¹ سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق (مرجع سابق)، ص 92.

² محمد علي دبوبز: تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاولت الثقافية، ط2، 2010م، 5/2.

³ ينظر: عمر بن قينة: أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث، رسالة دكتوراه، معهد الأدب العربي جامعة الجزائر، 1992/1412م، ص236

تحدّث عن الجهود الكبيرة التي بذلتها الدولة في المجال الثقافي خاصة فيما يتعلق بالتراث، فتحدّث عن المكتبات الوطنية والمكتبات الخاصة، ثم تحدّث عن المعالم الحضارية والتاريخية التي زارها؛ منها الموقع الباقي لمسجد الصحابي مازن بن غضوبة في مدينة مسائل.¹

2.3.3. رحلة عمر بن قينة:

وعنوانها "ساعات في تونس"، ولعل أول ما لفت انتباه الرّحالة؛ هو التّراحم في قاعات الانتظار وعلى سلم الطائرة في الذهاب إلى أوربا « هذه الطائرة التي كانت تقبح هناك في تطلع إلى قاعة انتظار لم تمتلئ بمتحفزين، كما لم يعان سلم الطائرة تراحما بمناكب الركاب، هناك الذهاب إلى طرابلس وهناك الذهاب إلى تونس، بدأ الجميع في ملل بل ربما ضيق بدا لي على الأقل أنه يختلف على ذلك الحنين الذي لمسناه في عيون المتوجهين إلى مطار إيطاليا أو باريس أو روما... الخ»²، فمن خلال ما تحدث عنه الكاتب يبدو أنه كان متذمراً من ظروف الرحلة وصعوبة الصعود إلى الطائرة.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن تونس وتنقله فيها خاصة في شارعها الرئيسي، ثم ينصرف إلى وصف الجانب الثقافي انطلاقاً من زيارته (الدار العربية للكتاب)، فيصف توفر الكتاب العربي خاصة في المكتبات التونسية، وحضور الوطن العربي كله تقريباً في محلات بيع الصحف والمجلات مع غياب تام للجزائر، كما يصف الاهتمام الخاص بالبحث الجامعي، ومن معالمه (مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية)، وهو مركز يعمل فيه خمسون أستاذاً باحثاً متفرغاً للبحث وحده، دون معركة أخرى تستنزف طاقته في مدرجات الجامعة.³

¹ – ينظر: المرجع نفسه، ص 236.

² عمر بن قينة: أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث، ص 241.

³ – ينظر: عمر بن قينة: أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث، ص 242.

فالرحلة إذن تحمل دلالات ثقافية متعددة، وذلك من خلال الحديث عن الجامعة وإعجابه بجدة الأساتذة وتفرغهم للبحث دون غيره.

3.3.3. رحلة أبو القاسم سعد الله إلى أدرار.

وعنوان هذه الرحلة في قلب أدرار، وكما صرّح في مطلع هذه الرحلة أنّها كانت الزيارة الأولى للولاية يقول عن ذلك « كانت هي زيارتي الأولى لتوات، ولكن اسمها لم يكن جديدا ولا غريبا عن ذهني واهتمامي»¹، وقد قسمها إلى عدة عناوين منها مراسلات مع جامعة أدرار، الهبوط في تميمون فندق توات، وغير فكان نزوله في تميمون بدلا من أدرار لأنّ مطار أدرار كانت به بعض الإصلاحات التي حالت بنزولهم في تميمون ومن الذين تعرّف عليهم وهو في طريق رحلته «محمد المنوفي الذي يدرس الأدب في جامعة الجزائر أصله من أقبلي أولف وهو أديب خفيف الرّوح حلو الدعابة كثير الحفظ»² وفي طريقه إلى أدرار تحدث عن المصنع الصيني للغاز الذي شبهه بالمعلم في ليل الصحراء، لينتقل بعدها لحديثه عن زردة السباعي « وهي عادة سنوية يحتفلون فيها بتقديم النذور إلى الولي الصالح المعروف عندهم بالسباعي»³ وتحدّث عن بعض عادات أهل السبع في طبخهم الأكل الكثير في ذلك اليوم لعامة الناس دون حرج و تكلف . كما أشار إلى فندق توات الذي وصفه بأنّه مصاب بالهرم « من رشح الحنفيات وظهور الصدا على كل ما هو حديد ومشاركة الغبار والصراصير للزبائن في الغرف ورثة الفرش ورغم ذلك فإنّ هيئته جميلة تجعل منه نموذجا للبيئة الصحراوية» ثم ينقل لنا بعض العادات الأدرارية ومنها فرقة القرقابو في ساحة الشهداء « وفرقة القرقابو التي تخشخش بآلاتها الحديدية فتحدّث

¹ - أبو القاسم سعد الله: مجلة الشروق العربي مقال منشور إلكترونيا على الرابط <https://www.echroukonlin.com>

يوم 2022/5/14 على الساعة 11:52.

² - أبو القاسم سعد الله: مجلة الشروق العربي 29 جوان 2010، الموافق 16 رجب 1431هـ/ العدد 2979، 2/2

³ - المرجع نفسه. 2/2

نشاطا في المتفرّجين والعاشرين، وكانت الفرق تطلق البارود من حين لآخر¹ وهو تراث مادي ورثوه عن أجدادهم أب عن جد.

ومنها إلى تمنطيط التي أبهرته صومعتها وتحدّث عن طرقها الضيقة قال عنها أنها ليست مستقيمة وزار فيها الأماكن التاريخية وذكر زاوية أحمد ديدي، كما أشار إلى زيارته لبلدية زاوية كنتة ومن ذلك قوله: «قصدت زاوية كنتة رفقة الأستاذين حوتية ومحمد دبوب، معتقدا أنها مجرد زاوية لشيوخ العلم... ولكن زاوية كنتة التي زرتها هي بلدة في عرف أهل أدرار... وفي البلد ضريح أحمد الرقادي الواقع في مرتفع من الأرض»²، ثم قامت بلدية زاوية كنتة بدعوته إلى زيارتها ووجد في استقباله مجموعة من المسؤولين والمتقنين وأقاموا اجتماعا بحضرته، «وأثناء الاجتماع كان أحد الحاضرين يكثر من الكلام عن القضايا الثقافية وبعد أن انفض الاجتماع ورجعت إلى الفندق جاءني وهو أحمد الجعفري رئيس قسم الأدب العربي بالجامعة بكييس من المطبوعات منها أطروحته المطبوعة في جزأين بعنوان الحركة الأدبية في إقليم توات من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر»³، رحلة مائة ومليئة بالأخبار الثقافية عن قصور أدرار وعلمائها وعن تواريخ مساجدها.

4.3.3 رحلة عبد الرحمان بن باعومر التتيلاني:

ومن الرّحلات التّراثية التّواتية؛ نجد رحلة سيدي عبد الرحمن بن باعومر التتيلاني (ت1189هـ) الذي استشهد بكثرة رحلاته طلبا للعلم أولا، وزيارة الرّوضة الشّريفة ثانيا، وكان يهدف إلى تصوير تلك الوقائع والأماكن التي يمر بها أثناء رحلته من بداية الرّحلة إلى المكان الذي يقصده، وكان ذلك بطلب من أحد الأقارب، ولولا هذا الطّلب ما كانت

¹أبو القاسم سعد الله: مجلة الشروق العربي، 2/2

²- المرجع نفسه

³المرجع نفسه، 2/2

لنكتب هذه الرحلة¹، «ويذكر باي بلعالم أن سيدي عبد الرحمن بن باعومر قام في حياته بأربع رحلات دونها بنفسه»²، وهذه الرحلات مطبوعة في خزائن إقليم توات، ومن هذه الرحلات: «رحلته إلى الحج التي جاءت تلبية لطلب أخويه في الله سيدي عبد الرحمان وابن عمه سيدي إدريس في أمر مرافقتهم إلى الحج، حيث قال: فلما منَّ الله علي بالتوجه لحج لبيت الله الحرام، وزيارة قبره عليه أفضل الصلاة والسلام وهمة الإخوان في الله سيدي عومر بن سيدي عبد الرحمان وابن عمه سيدي إدريس فاستشاراني في ذلك فأشرت عليهما في الجد في ذلك، فطلبا مني المرافقة فاعتذرت لهما ذات اليد»³.

5.3.3. رحلة أبي حفص عمر بن الحاج عبد القادر التواتي (1152هـ):

رحلة مشهورة في طلب العلم، انطلق فيها من مدينة توات وصولاً إلى مدينة فاس بالمغرب، يقول في هذه الرحلة: لقد كنت مشغولاً بالعلم، مولعاً بطلبه، مشتغلاً بقراءة الشيخ خليل، وألفية بن مالك، متشوقاً إلى شيخ يحل ألفاظها ويوقفني على معانيها... إلى أن شرح الله صدري فتوجهت همتي للسفر لمدينة فاس قصداً لذلك⁴، وبهذا كانت رحلة الشيخ طلباً للعلم وذلك لما ورد في فضل طلب العلم من الحصول على الأجر والثواب.

6.3.3. رحلة الشيخ عبد الرحمان بن إدريس:

إلى الجزائر المحروسة والتي أرّخ فيها لهجوم الإنجليز على الجزائر سنة 1231هـ/1815م والتي شاهدها بأمر عينيه ووصفها بقوله: « فلما كان يوم الأحد الثامن من شهر شوال عند العصر نزلت سفن عدو الله قرب الجزائر في البحر، ونزلوا بعيداً من المدينة حتى لا تصلهم الرمية من الجزائر، وأقاموا يومهم ذاك وغدهم كذلك، وفي

¹ - ينظر: قاسمي فاطمة: فن الرسالة وأدب الرحلة قديماً في توات، مجلة الأثر ع18 جامعة أدرار، ص12.

² - أحمد أبا الصافي جعفري الحركة الأدبية في أقاليم توات من القرن 7هـ حتى نهاية القرن 13هـ، منشورات الحضارة ط1، 2009م، 144/2.

³ - المرجع نفسه، 145/2.

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص151.

ضحى صبيحة الثلاثاء بدّلوا جميع أعلامهم وجعلوها بيضاء وهي أعلام الصلح
والعافية»¹.

هاته معظم الرّحلات الجزائرية التي حملت موضوعات مختلفة، خاصة منها ما
يتعلق بالدين ومنها ما يتعلق بالعلم، والتاريخ، وبعضها اهتم بالناحية الأدبية، والحياة
الفكرية بوجه عام، لأنها تصور المناخ الثقافي العام للجزائر آنذاك.

ومجمل القول إنّ الرّحلات الجزائرية اتّسعت مشاربها حتى غمرت أنحاء العالم
بأكمله شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، والتي كثرت بعد الحرب العالمية الثانية، هادفة إلى
إبراز معالم الجزائر الثقافية والاجتماعية والسياسية... والكشف عن خصوصيات
الشّخصية الجزائرية ودورها في تأسيس الهوية الوطنية فركّزت أكثر على الدين والعلم و
اللغة، كما عكست تقاليد وعادات الكرم والضيافة للبلدان المزاراة.

¹ - أحمد أبا الصافي جعفري الحركة الأدبية في أقاليم توات من القرن 7 حتى نهاية القرن 13هـ، ص153.

الفصل الثاني: الجماليات الفنيّة والمضامين الثقافيّة في رحلات سعد الله دراسة مقارنة

1. ماهية الرّحلة وخصائصها عند أبي القاسم سعد الله.
2. جماليات توظيف التّراث الثقافي في رحلات سعد الله دراسة مقارنة.

1. ماهية الرحلة وخصائصها عند أبي القاسم سعد الله.

1.1 ماهية الرحلة عند أبي القاسم سعد الله:

الرحلة كما يراها سعد الله « عنصر ضروري لحياة الإنسان، فالسفر بالنسبة لي كالماء والهواء ولو انقضت علي سنة دون أن أتنفس هواء بلد آخر لأحسست بالاختناق حتى في وطني، لا لأنه يفتقد نقاوة الهواء وعذوبة الماء، ولكن لأنّ تغيير الهواء في حد ذاته يصلق الذاكرة ويبعث على الفضول الذي هو أساس المعرفة»¹.

فالرحلة عنده شيء مهم في حياة الإنسان ولا بدّ له من القيام بها حتى يتجدد نشاطه العلمي، وتصلق ذاكرته من خلال ما يطلع عليه من كتب علمية ومجالسة العلماء، كما أنّ الرحالة لما يقرأ عن رحلات سابقة يتوق ويتعطش للسفر لتلك الأمكنة فيحدث لديه فضول المعرفة حول تلك الأمكنة، حيث ذهب إلى المغرب مقتفياً طريق من سبقوه، حيث يقول عن رحلته المغربية: «تعباً لآثار هؤلاء الرحالة وإضرابهم ذهبت إلى المغرب خلال الصيف الماضي، كابن حمادوش الذي ترك وصفاً دقيقاً عن مدن تطوان ومكناس وفاس»².

وذهب إلى خنقة سيدي ناجي؛ إذ إنّه لما قرأ عنها وعلم ما بها من آثار تاقّت نفسه لرؤيتها فرحل إليها، حيث يقول في هذا الشأن: «كل من قرأ ما كتبه الرحالة والدارسون عن خنقة سيدي ناجي قبل الاحتلال الفرنسي تحن نفسه إلى رؤيتها، وأنا من هؤلاء»³.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) ، ص205.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص204.

³ - المصدر نفسه، ص 257.

ثم يستشهد على فائدة السفر بقول الشاعر الشافعي:

تفرّج همّ واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد¹

فالسفر عنده يروح عن النفس ويقضي على الملل، كما يتعرّف الإنسان من خلاله على أنماط شتى مختلفة وصور متباينة من صور الحياة، وعوالم واسعة يستقرئ واقعها ويتعرّف على بيئاتها وحياتها وما فيها من علوم وعلماء، إذ يقول في هذا الصدد: «ولا أكتم نفسي أنّ الرّحلة كانت ذات فائدة عظيمة لي، إذ لم أجمع فقط مادة جديدة نادرة عن كتابي تاريخ الجزائر الثقافي، ولكنني تعرفت على عدد من رجالات المغرب الحديث شيئا وشبابا، وشاهدت في جولاتي أشياء كثيرة انتزعت إعجابي»².

وبما أنّ الرّحلة كتابة يحكي فيها الرّحالة أحداث سفره وما شاهده، وعاشه مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية والشخصية؛ فإنّه سجل كل ذلك منذ انطلاقه إلى حين عودته: «وقد سجلت كعادتي في كل بلد أزره يوميات، وانطباعات، ومشاهدات تغطي جميع مظاهر الحياة التي يصل إليها انتباهي وفضولي العلمي»³.

وقد استهل الكاتب رحلاته بتحديد زمانها ومكانها، «ففي يوم 08 فبراير 1980 توجهتُ بكرة الساعة السادسة صباحا رفقة علي باشا إلى خنقه سيدي ناجي»⁴ أما رحلته إلى الجزيرة العربية فكانت يوم 21 أبريل صباحا سنة 1977 وقد بدأ تسجيلاته من مطار الجزائر ذهابا إلى مطار جدّة عائدا⁵، والرّحلة إلى الحجاز ليست كغيرها من الرّحلات فقد حظيت بعناية خاصة من لدن الكاتب، وقد تجلّى ذلك في الاستعداد الروحي لها بدل

¹ - الإمام الشافعي محمد بن إدريس تديوان الشافعي، جمع إيميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط3 بيروت، 1996م، ص159.

² - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص205.

³ - المصدر نفسه، ص236.

⁴ - المصدر نفسه، ص257.

⁵ - المصدر نفسه، ص237.

المادي: «فإذا كنت في بقية الأسفار تستعد ماديا للسياحة أو لحضور اجتماع دولي فإنك بالنسبة للجزيرة العربية تستعد وقبل كل شيء استعدادا روحيا، مهما كان غرضك المادي من السفر»¹، فموضوع الحجاز موضوع شيق وشاسع ومتعدد الجوانب. أما رحلته إلى ميزاب فيذكر أنها مجرد صدفة ولم يكن قد خطط لها: «كان ذلك حين أتحت لي فرصة حضور حفلة تأبين المرحوم إبراهيم بن يحيى القرادي في مدينة العطف يوم الثاني من شهر مايو، وكان سفري إلى هناك صدفة»².

2.1 دوافع وأهداف الرحلة عند أبي القاسم سعد الله:

- إن حضور الندوات العلمية والمؤتمرات الدولية والاجتماعات العلمية، أحد الدوافع المهمة للقيام بالرحلة؛ فقد اجتهد سعد الله في نقل صور هذه اللقاءات العلمية هادفا إلى بعث روح البحث في القارئ وعقد العزم على العمل.
- الاستزادة من العلم والتعريف بالموضوعات الرئيسية للندوات العالمية والمحاضرات ليستفيد منها القارئ، أو يواصل البحث فيها أو ينفذ عنها الغبار إذا كانت قد همشت.
- البحث عن المخطوطات الخاصة ببحوثه أو كتبه، كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، وذكر بعض المخطوطات المهمة التي صادفها أثناء بحثه أو اطع عليها.
- الإشادة بالفضلاء من أهل العلم الأحياء منهم والأموات، وذكر بعض أعمالهم وفضلهم عليه وعلى المجتمع الجزائري، ومنهم الشيخ بن حسن القماري³ ناظم الشيخ خليل، محمد علي دبوز إبراهيم بن يحيى القرادي وغيرهم من العلماء.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 235.

² - أبو القاسم سعد هموم حضارية، عالم المعرفة الجزائر، ط1 الجزائر، 2011م، ص 67.

³ - هو خليفة بن حسن القماري السوفي (1318هـ/1901م) فقيه وناظم ممن أهل قمار بوادي سوف، من آثاره جوهر الإكليل في نظم مختصر الشيخ خليل في فقه المالكية ذاعت سمعته في عصره حيث يقول عنه صاحب الرحلة الكبرى إلى الحج «وكان ممن اجتمعنا به في هذه البلدة المباركة سيدي عقبة العالم المسن سيدي خليفة الحسن السوفي، نسبة إلى سوف ... وكنا سمعنا به ولم نقله

• وصف الجلسات العلمية خارج الجامعات، نذكر منها جلسة ميزاب التي كان فيها الحديث عن « حالة الجزائر الراهنة وعن النهضة العلمية في ميزاب، وعن بعض الكتب التراثية، ثم الحديث بالجامع العتيق عن حياة القرادي وأعماله ومواقفه الوطنية والإنسانية».¹ كما تعرّف في المكتبة الملكية على أحمد العلوي نائب المدير، ومحمد الروداني أحد المحققين العاملين بالمكتبة، ودار الحديث بيننا عن المكتبة وتنظيمها الجديد، وعن الحركة الفكرية في الجزائر والصّلات الثقافية بين البلدين، وقد لاحظت أنّ متقّي المغرب عموماً يشكون من قلة الأخبار عن الحركة الثقافية في الجزائر، وقد أجبته جميع أنّا في الواقع نشكو نفس الشيء عن الحركة الثقافية بالمغرب، وأنه يعود ذلك في نظري إلى سوء تطبيق مفاهيم الوحدة الثقافية بين أقطار المغرب العربي.²

• التعريف ببعض الشخصيات المهمّة وأهم أعمالها؛ ففي رحلة المغرب كانت عن طريق مآدبة غداء التي أقامها صديقه عبّاس الجراري، إذ يقول إنّه « دعا إليها أصدقائي وأصدقاءه ومنهم محمد برادة الذي كان عائداً من فرنسا بعد أن نال درجة الدكتوراه الثالثة في النّقد الأدبي وكانت جلسة ممتعة»³، وفي رحلته إلى الجزيرة العربية التقى جمد الجاسر الذي يسمونه بحق علامة الجزيرة العربية الذي ألف وحقق أكثر من كتاب، وصاحب مجلة العرب.

• البحث عن المخطوطات الجزائرية في مظانها داخل الجزائر وخارجها، وإفادة القارئ بعناوينها ومن المخطوطات التي ورد ذكرها في بعض رحلاته

لغيابه ببلده أثناء الذهاب إلى الحج، وجاء بقصد ملاقات كذا الركاب النبوية على عادتهم، وأوقفني على نظمه وزاد عليه بعض قيود وتنبهات وهو نظم سليم لا بأس به». أنظر عادل نويهيض: معجم أعلام الجزائر، 182/1. وانظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 78/2.

¹ - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية، (مصدر سابق) ، ص68.

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) ص220.

³ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص218.

هي: بشائر أهل الإيمان لحسين خوجة، أجوبة التسولي التي أجاب بها الأمير عبد القادر حين سأل علماء المغرب عن بعض الفتاوى الفقهية، والتي اختصرها ابن الأمير محمد باشا في كتاب تحفة الزائر، مخطوطة المعادن والأحجار للعالم الجزائري التونسي أحمد التيفاشي وهلم جرًا.

• استنشاق الهواء النقي والتّعرف على بعض مجاهل المغرب والتّعرف على أهله في آن واحد، فقد أصبح السّقر عنده شيئاً مهماً في حياته «لأنّ السّفر في حدّ ذاته قطيعة واتصال معاً، فحين يسافر المرء من (س) من الأمكنة إلى (ص) فهو ينقطع عن (س) ويتصل بـ(ص)، فالسّقر إسفار وإخفاء عن الوجهة لمكان جديد وإخفاء له عن مكان آخر»¹: «والسّقر بالنسبة لي كالماء والهواء ولو انقضت علي سنة دون أن أتفسّ هواء بلد آخر لأحسست بالاختناق»².

2. جماليات توظيف التّراث الثقافي في رحلات سعد الله دراسة مقارنة.

قبل الولوج إلى توظيف التّراث في مكونات الرّحلات؛ نشير إلى أنّ سعد الله قسّم التّراث الثقافي إلى قسمين اثنين: « فهناك التّراث الشّامخ الذي يعبر عن أصالة الأمة وإسهاماتها الحضارية، وهناك التّراث الذي يعني الأساطير وأشكال متعددة من مظاهر التخلف العقلي كما أن الكثير مما تركه الأجداد ما يزال صالحاً للأخذ منه، أو الاقتداء به أو الاعتبار بما فيه من أخطاء أو انحرافات، وهذا هو معنى الاستفادة من التّراث في البناء الحضاري المستمر»³، لذا لا بد من الاهتمام به وإعادة بعثه من جديد بما يتماشى وحضارتنا الثقافية.

¹ سعيد الغانمي: الكنز والتأويل قراءات في الحكاية العربية، مكتبة الفكر الجديد، ط1 بغداد، 2014م، ص86.

² أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص206

³ أبو القاسم سعد الله: حوارات، (مرجع سابق)، ص32.

وهو نفسه ما استنتجه شعراء مدرسة الأحياء « حين أدرك هؤلاء الشعراء أنّ عليهم لكي يكتشفوا ما في التراث من قيم صالحة للبقاء؛ لابد أن يستوعبوه أشمل استيعاب فعكفوا عليه يقرأونه ويمحصونه، واختاروا من النماذج والأصوات التراثية ما يتجاوب مع أبعاد تجاربهم المعاصرة فيستخدمونه في نقل هذه التجارب»¹.

فضرورة العودة إلى التراث وتوظيفه أو الاستفادة منه أمر ضروري للباحث، ولهذا أورد لنا الرحالة فئة من أجلّ العلماء الذين لقيهم أو تحدث عنهم فقط فوصفهم وصفا يليق بهم وبأصالتهم العربية، وأبدى إعجابه بطرق طرحهم للمسائل ومعارفهم الموسوعية، وفيما يلي سنتطرق لبعض الشخصيات التي ذكرها الكاتب في رحلته.

1.2. جماليات توظيف الشخصيات.

1.1.2. تعريف الشخصية لغة واصطلاحاً:

أ – الشخصية لغة:

جاء في لسان العرب: شَخَصَ بالفتح شخوصاً ارتفع، وشخص الرجل ببصره رفعه، وشخصت الكلمة في الفم إذا لم يقدر على خفض الصوت بها.²، إذن المراد بالشخصية في اللغة هو الظهور والعلو والبروز.

ب – الشخصية اصطلاحاً:

«الشخصية تشير إلى الصفات الخلقية والجسمية والمعايير والمبادئ الأخلاقية، ولها في الأدب معاني أخرى وعلى الأخص ما يتعلق بشخص تمثله

¹-علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية، في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي القاهرة، دط، 1417هـ /1997م، ص26.

²- ابن منظور: لسان العرب، (مصدر سابق) 45/7-46.

رواية أو قصة.¹، إذن من خلال التعريف نستنتج أنّ الشخصية تعنى بتلك الصفات التي تميز الفرد عن غيره.

ج - الشخصية في القرآن الكريم:

لم يرد لفظ الشخصية في القرآن الكريم مصطلح بعينه؛ وإنما ورد بألفاظ (الإنسان الرجل المرء الرسول)، ونحو ذلك وقد وردت مادة (ش خ ص) في القرآن الكريم في موطنين اثنين وهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾²، والثانية في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾³، وإن كان المعنى المذكور في القرآن الكريم لا يدل على معنى الشخصية بعينها؛ إلا أنّ الشخصية القرآنية لها سماتها الخاصة التي تميزها عن باقي الشخصيات فلكل شخصية عواطف وانفعالات تحكمها من أجل السير في القصة القرآنية.

2.1.2 استدعاء الشخصيات والشخصية التراثية مقارنة بين رحلتي (المغرب والجزيرة العربية)

إنّ ما تركه سعد الله من كتابات عن الرحلة؛ قد احتوى على الكثير من الملامح الأدبية والنواحي الجمالية التي برزت في اختيار الألفاظ وحسن الأسلوب وجمال التعبير، بالإضافة إلى كونها سجلاً مهمّاً يحتوي على معلومات أهم.

ومن الطبيعي أن نتحدّث عن الشخصية في الرحلة، ذلك أنّ الرحلة هي حكاية تتقلّ شخص في الفضاء المكاني، من مكان معلوم إلى مكان آخر محدد وتحتل شخصية الرحالة مكانة بارزة في الرحلة، فهي التي تتقلّ قولاً للذات

¹ - إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، دار محمد على الحامي للنشر، صفاقس، تونس، دط 1988م، ص210

² - سورة إبراهيم الآية 42

³ - سورة الأنبياء الآية 94.

الفصل الثاني: الجماليات الفنية والمضامين الثقافية في رحلات سعد الله دراسة مقارنة

وفعلها وتنفق صورة المكان المرتحل إليه والآخر، والرحلة وسيلة لاكتشاف العالم والإنسان معا، وتوسيع مواهب وخبرات الرحالة ومعارفهم والوصول إلى كل ما هو جديد والرحالة أبو القاسم سعد الله ومن خلال كتاباته صور لنا الواقع ووصف لنا الأشخاص والأحداث التي شاهدها، وقدم لنا ملخصا للحياة الاجتماعية والثقافية للأماكن التي زارها.

ومن خلال اطلاعنا على مضمون الرحلتين؛ تجلّى لنا أن الأمر في هاتين الرحلتين يتعلق بصاحب الرحلة أبي القاسم سعد الله الذي هو نفسه مؤلفها، إذ قام برحلته الأولى إلى المغرب بعد عدة رحلات قادته إلى بلدان عربية وأجنبية غيرها فكانت هاته الرحلة سنة 1973م ودامت تقريبا مدة 21 يوما، أما الرحلة الثانية فكانت سنة 1977م إلى الحجاز وكانت كذلك الرحلة الأولى لهذا البلد، ولم يذكر المدة التي قضاها هنالك، ولكن كلتا الرحلتين لم تكونا من الرحلات الواسعة المطولة؛ بل كانتا رحلتين قصيرتين في أمدهما الزمني.

وقد تبين أن غرض الرحلة الأولى كان غرضا شخصيا حرا، وهو البحث في الخزائن والمكتبات عن ما يفيد، أما غرض الرحلة الثانية فكان رسميا تكليفيا ضمن مهام الكاتب، وهو حضور ملتقى دولي، ومع ذلك كان منه الاستعداد الروحي، «فمنذ أن اتصلت من جامعة الرياض بدعوة للمشاركة في الندوة التي تنظمها عن تاريخ الجزيرة العربية عزممت على تحقيق أمنيته القديمة وشرعت في الاستعداد الروحي و المادي معا، وكنت أمني نفسي بزيارة الأماكن المقدسة»¹.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 235.

أما عنصر التفاعل مع الشخصيات العلمية والأدبية والثقافية؛ فيبدو جلياً واضحاً فكان مع الشخصيات العلمية أكثر توسعاً وشمولية، وامتدح خلال النفيسة العالية المتمثلة في العلم والجود وطلاقة الوجه واللسان.

إنّ الشخصية التراثية أصوات استطاع من خلالها أبو القاسم سعد الله أن يعبر عن رؤيته المعاصرة من خلال مزج الماضي بالحاضر، والتعريف بهاته الشخصية، والمقصود بتوظيف الشخصية التراثية «هو الاستمداد من معطيات تلك الشخصية واستيحاء لما توحى به مواقفها الخالدة في ضمير الأمة، واستدعاء لرمزها بما يجسده ذلك الرمز من آفاق وأبعاد»¹.

فالشخصيات عند أبي القاسم سعد الله هي شخصيات حقيقية مثل شخصيات الأدياء والمؤرخين، فهي تمثل أنموذجاً تراثياً تعطي تعبيراً عاماً يتمثل فيها العام والخاص، كما أن ثقافته واتساع أفقها خلف لنا تراثاً شديداً الغنى متنوع المصادر، شكل ثمرة حياته أثرت فيه وكونت وجدانه الفكري والثقافي، فتنوعت بموجبها الشخصيات من دينية إلى تاريخية فادبية.

«إنّ توظيف الشخصية التراثية لا يعني تقديمها للقارئ بصورة تقريرية مباشرة واستعادة ما تضمنته دراسات التاريخ لها؛ بل يعني صياغتها بطريقة جديدة اعتماداً على دلالتها التراثية الإيحائية لتخدم النص، إذ تعكس الشخصيات التراثية الموظفة أبعاداً اجتماعية وسياسية وفكرية في العصر الحاضر، مما ينتج التواصل بين الماضي والحاضر»².

¹ - أحمد حنطور الشخصية التراثية في الشعر العربي المعاصر بين التوظيف والتحريف، بحوث ومقالات نادي أبها الأدبي العدد 21 سبتمبر 1997، ص 17.

² - حصة بنت زيد سعد المفرح توظيف التراث الأدبي في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، 1425/1426، ص 45.

ويمكن أن نفرق بين طريقتين مختلفتين في التعامل مع الشخصية التراثية المستدعاة داخل النصوص؛ فهناك تسجيل الشخصية التراثية الذي يعني سرد أحداث حياتها ونظمها نظماً تقريرياً، حيث يستدعيها كاتب القصة ويعيد قص واقعها التراثي في شكل قصصي جديد، ويكتفي برصد المواقف والأحداث التي مرت بها ويكون العمل بمثابة ترجمة للمواقف التي تعيشها¹.

أما الطريقة الأخرى في التعامل مع الشخصية التراثية التي تمثل مراحل متطورة من علاقة الكاتب بالتراث؛ فتتمثل في توظيف الشخصية التراثية أو التعبير عنها، وتوظيفها في أدبنا المعاصر يعني استخدامها لتعبر عن تجارب الأديب ورؤيته المعاصرة². وهي الطريقة التي اختارها الكاتب.

وتبنى الرحلة في عمومها على مجموعة من الأعمدة والتي تأتي على رأسها شخصية الرحالة باعتبارها المحور الذي تنطلق الأحداث به، وحوله تدور وبه تستمر، وهو عنصر دائم الحضور في الرحلة فهو الذي يحرك أحداث الرحلة منذ بدايتها حتى نهايتها، ثم تأتي الشخصيات الرئيسية والثانوية.

1- الشخصية المركزية

توصف الشخصية بأنها مركزية من خلال الوظائف المسندة إليها، حيث تحظى بقدر من التميز، ويمنحها حضوراً طاغياً وتحظى بمكانة مرموقة وتسندها لها وظائف وأدوار لا تسند لشخصيات أخرى، وغالبا ما تكون هذه الأدوار مثناة داخل الثقافة والمجتمع³.

¹ ينظر علي عشري: زايد استدعاء الشخصيات التراثية، (مرجع سابق) ص 13.

² المرجع نفسه، ص 13.

³ محمد بوعزة: تحليل النص السردى تقنيات ومفاهيم، الدار العربية للعلوم ناشرون ط1، 2010م ص 53.

فالشخصية المركزية هي الركيزة الأساسية التي يقوم عليها العمل السردي كما أنها تقود الفعل وتدفعه إلى الأمام وتساوم في إعطاء الحركة داخل النص وهي الشخصية المحورية، وقد تكون الشخصية الرئيسية شخصيات متعددة في السرد الواحد¹.

ولاشكّ في أن شخصية الرحالة هي الشخصية المركزيّة والفاعلة في الرحلة قبل أي شخصية أخرى، فهو المهيمن والمسيطر على كل مجريات الأحداث ولاشكّ أنّ شخصية أبو القاسم سعد الله تمثل هذه الصورة، فهو المتحكم في جميع أحداث الرحلة، والحاضر في مختلف محطاتها، فقد أعلن عن نفسه منذ بداية الرحلة، وذلك بتوظيف الضمير الدال على الذات وهو ضمير المتكلم ولهذا تظهر لنا شخصيته شخصيّة باحثة ومتقّفة، ولعلّ ما يؤكّد ذلك زيارته المتعددة لمكتبات المغرب والمدينة المنورة وغيرها، وهذا ما يفسره اهتمامه بالمخطوطات والتّقيب عنها في المكتبة العامة وهذا لما يقول: «ومنذ ذلك اليوم بدأت أطلب المخطوطات الجزائرية التي وجدت منها ثروة لا تقدر بثمن، وكنت أعرف أسماء بعض المخطوطات من قبل كما أعرف أرقامها في الخزّانة، ولكن بعضها قد اكتشفته بعد ممارسة للبطاقات والتعرف على ما تحتويه المكتبة من ذخائر»².

تبدو شخصية الرحالة سعد الله متديّنة محبة للعروبة والإسلام من خلال زيارته للأماكن المقدسة، وإعجابه بما تتمتع به من جمال الزخرفة والنقش، ضف إلى ذلك حديثه عن الفكر الإسلامي، ووقوفه على أضرحة الصّحابة والأولياء ونلمس ذلك من خلال مروره بمسجد محمد الخامس بالمغرب، ونلمس حسه الديني

¹ - ينظر: غسان كفاي جماليات السرد في الخطاب الروائي صبحية عودة زعرب، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

2006م/131/132

² - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 209.

أكثر في رحلته الحجازية لفرحته الشديدة بزيارة الحرمين الشريفين، ووقوفه على بعض الأضرحة في خنقة سيدي ناجي.

وإلى جانب الدين؛ نجد أنها شخصية اجتماعية نابعة من عمق مجتمع، تسرد ما جرى لها من الأحداث التي وقعت زمن الرحلة، وتصف أحوال الناس والمجتمعات وتنتقد بعض الظواهر الاجتماعية الخارجة عن المألوف، ولما كانت الشخصية المركزية من أهل العلم فقد ألمها كثيرا ما رأت من مظاهر الجهل بالدين قبل أن يكون جهل بالدنيا، «فالمرء يشاهد هناك أمورا مبالغاً فيها ليست من الدين في شيء، وهي بلا شك نتيجة الجهل الذي خيم على أجيال من المسلمين»¹ ليستفيد من ذلك كله الملتقي الذي هو حاضر مع الرحالة منذ بداية الرحلة إلى نهايتها.

تجالت الشخصية سعد الله بصورة رجل مثقف، ذي عين متفتحة على كل ما يحيط به، ولعل ما يؤكد ذلك زيارته المتعددة لمكتبات المغرب والحجاز، وانتقاله إلى ميزاب من أجل التعرف أكثر على مناقب العدواني، إضافة إلى تنقيبه عن المخطوطات في مظانها، إذ يقول عن ذلك: «توجهت إلى الخزنة العلمية بحثاً عن المخطوطات التي جئت من أجلها»²، وكل هذا يضعنا أمام شخصية باحثة جادة في البحث ذات هيبة ورزانة، جعلت الناس يحترمونها ويقدرّون ما عندها من علم فيستضيفونها لمجالسهم العلمية، وقد كان حضور هذه الشخصية في الأساس بحركة الجسد أي أنّ انتقالها عبر فضاءات الرحلات كانت بالجسد وذلك بالحضور الفعلي في مسرح الأحداث.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص. 249.

² - المصدر نفسه، ص. 209.

وإذا تتبعنا حضور الشخصية المركزية في الأحداث المسرودة في الرحلة؛ فإننا نجدها حاضرة فيها منذ البداية، فهو المتحكم في جميع خيوط الرحلة من البداية إلى النهاية، وهو المشارك في جميع أحداثها بمختلف أشكالها، ويبدو ذلك جليا من خلال ضمير المتكلم، كما أسلفنا الحديث عنه، وكان هذا الضمير في أغلب الأحيان مرتبطا بالأفعال، ومن ذلك قوله: عرفت، ذهبت، بقيت، زرت وغيرها وهو ما يتناسب مع طبيعة الرحلة التي تقوم أساسا على الحركة التي يفرضها التواصل مع الآخر، ولعلّ أرق صورة لهذه الشخصية تتجلى في تلك الصورة التي ارتسمت لها وهي تذرف الدموع أثناء وداعها للحرم، واستعدادها للمغادرة إلى أرض الوطن. واللافت للانتباه في هذه الشخصية، أنّها بعيدة كل البعد عن حب الظهور والبهرجة، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة شخصيته المعروفة بالجد والاجتهاد واستغلال الوقت بطريقة حكيمة، كما لم يكن ممن يحبون الاستعراض والأضواء.

وتجدر الإشارة إلى أن الشخصية المركزية قد تصادف في مسيرة رحلتها مجموعة من العراقل والمصاعب، مما يجعلها تفكر في تذليل تلك الصعاب باستحضار من يتقاسم معها مشقة السير ولذة العبور، من أجل أداء مهمتها وتحقيق هدفها ومن أمثلة ذلك ما قاله عن تفتيش الجمركي الجزائري لحقيبته «ففتحها وأخذ يتفحص ما فيها من ثياب قطعة قطعة...ولما رأيت الأمر قد وصل إلى ذلك الحد؛ انقلبت نشوتي أسفا وخفت أفقد أعصابي، فأنتقوه بعبارات تغضب الجمركي فتشاغلت بالحديث مع زميلي عبد الله الركيبي»¹، فالرحالة غالبا ما يكبح الحديث عن رحلته ومنعطفاتها؛ لينتقل للحديث عن الآخر كاشفا عن هويته وتصرفاته وجانبها من سلوكياته.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 237

2- الآخر الرئيسي: في رحلتي المغرب والجزيرة العربية.

لما كان الأمر يتعلق بالرحلة؛ فإن الواقع يفرض أن يكون للشخصية المركزية من يرافقها في رحلتها، فالآخر في الرحلة مهم جدا، فقد يكون مجسدا في الرفيق الذي يختاره الرحالة في رحلته، أو الأشخاص الذين يلتقي بهم الرحالة ويصادفهم في مساره الرحلي، والرحلة الموضوعي لا يتوانى عن ذكر الرفيق مشيدا بدوره وبمواقفه.

وظف كاتبنا ثلة لا يستهان بها من الشخصيات الأدبية وبعض أعمالها المتخمة بعمق الفكر والثقافة، والذين شهد لهم التاريخ بالكفاءة: كل في مجال تخصصه تشييدا بمكانتهم واعترافا بجميلهم، ويمكن أن يجد الدارسون في آثارهم بصمات لا يستهان بها ونظرات ثاقبة في ميادين اللغة والأدب والتاريخ.

ففي الرحلة المغربية؛ لم يكن رحالتنا مهتما بلقاء الأشخاص، وهذا لأنه كان حريصا على البحث والحصول على المخطوطات التي تفيد بحثه يقول عن ذلك: «كنت حريصا أثناء إقامتي بالمغرب على توفير كل وقتي للبحث الذي جئت من أجله، لذلك تفاديت لقاء الأشخاص والاتصال بالأصدقاء»¹، كما نلاحظ أن شخصية أبو القاسم شخصية علمية موسوعية مستتيرة، ولها دراية بالكتب القيمة والمتنوعة، قوية وهادئة ذات هيبه، وتلك حقيقة جعلت الناس يحترمونها.

ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتحرك الشخصية المركزية على مسرح أحداث الرحلة منفردة؛ بل لابد من وجود شخصيات أخرى مرافقة لها، أو تنزل عندها أو تلقيتها بطريق الصدفة، فيحدث بينهما التواصل والتفاعل، لذلك التقى بطريق الصدفة مع مجموعة من رجال العلم، فذكر أخبارهم وأحوالهم، وفصل

¹ -أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص209.

في بيان الفن الذي غلب على كل واحد منهم فبرع فيه، ومن هذا التقصي في وصف الشخصيات العلميّة وإظهار أبعادها للدلالة على ما تحلت به من نباهة وما تميزت به من فطنة.

ومما لاشكّ؛ فيه أن طبيعة هذه الرّحلات باعتبارها رحلات علميّة ألفتها عالم موسوعي متميّز، فإنّ تطرقه لهاته الشخصيات في أغلب الأحيان لم يهتم فيه بوصف مظاهرها ولا تحليل نفسياتها، فلا حديث عن هذه الشخصيات إلا فيما يتعلق بالجانب العلمي، أو الفكري، أو نجده يستعرض مسيرة علم من أعلام الجزائر في العلم والثقافة والنضال الوطني ومن ذلك ما قاله عن:

محمد إبراهيم الكتاني: رئيس قسم المخطوطات بالخرانة العامة والذي أثنى على أخلاقه كما ذكر أنه عضو فعال في المكتبة تستفيد منه مكالمته هاتفيا في كل ما يحتاج.

والكتاني شخصية مهمة متشعبة بالثقافة التاريخية، وتحمل زادا علميا كبيرا في مجال التراث وتميزها راحة العقل، ومع ذلك فهو يحب المطالعة وتدارس التاريخ فقد وصفه الكاتب لما زاره بالمكتبة، فقال: «فقد زرتُه بمكتبته بالخرانة العامة فوجدته مُحاطا بأكداس من المخطوطات والمطبوعات القديمة، حتى خيل إلي أنّ الكتب هي طعامه وشرابه وكساؤه ووطاؤه»¹.

ثم ذكر دوره في ربط العلاقة بين الجزائر ورجال السياسة والإصلاح بالمغرب، كما مكنه من معرفة بعض أسرار وخطط عبد الحميد بن باديس إن بقي على قيد الحياة، وبعث خطّ البشير الإبراهيمي، فهو شخصية تاريخية ذات وجود فعلي في التاريخ، ولها مكانتها الاجتماعية وتكوينها الثقافي والإيديولوجي.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 210.

وحديثه عن هؤلاء الأعلام؛ يتميز بذكر أسمائهم وفضائلهم ومناقبتهم ومكانتهم العلمية، ويدخل في صنع الشخصية عدة عناصر كالمولد والبيئة والظروف المحيطة، مطبوعاً ببعض المميزات التي يعمل الرحالة على إبرازها في جوانبها التاريخية والنفسية وغيرها.

ثم التقى بشخصية مهمة ألا وهي عبد الكريم كريم، وذكر أن له شأنًا كبيراً وعظيماً: «وعند خروجي مرة من المكتبة صادفت الدكتور عبد الكريم كريم أستاذ في التاريخ بأداب جامعة محمد الخامس، ومسؤول المكتبات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية»¹، فقد كان صديق الرحالة، وكان له كالمُرشد الذي يهتدي به في التعرف على أمكنة المغرب المتعددة، ولم يقتصر عمله في إرشاد الرحالة فقط؛ بل تعداه إلى اطلاعه على المخطوطات الموجودة في المكتبات المغربية، كما أوصى عليه القائمين بها وبهذا الصدد يشير قائلاً: «لكنّ خدماته لم تنته عند ذلك الحد، ففي صباح يوم الغد حدثني مولاي الطاهر في المكتبة بأن الدكتور كريم قد هتف من الوزارة وأوصاه بي خيراً»²، ولهذا أتتني على أخلاقه، فلم يبخل عليه بوقته ولا بإمكانياته، ثم زاره في الفندق وانضم إليهم حسن الزهراوي، فكانت جلسة علمية حول التعريب، والتأليف ونشر الكتب وحوادث التاريخ والرحلات.

وشبيه بهذا البيان في ذكر أهل العلم واستحضار الصفات اللائقة بهم؛ ما قاله عن عباس الجراري، وقد وصفه بالعلم والحلم والتواضع والكرم، وقد أهداه كتابه عن الزجل في المغرب، وكتابه من وحي التراث، وموشحات مغربية يقول واصفاً لتواضعه: «وقد عرفت فيه التواضع الجم والباحث المُجِدِّ... وقد أبى إلا

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 214.

² - المصدر نفسه، ص 215.

أن يدعوني حالا للغداء في منزله الواقع في حي أكدال، بل إنه بكرمه وعلمه سهل عليّ مهمتي ووفر علي كثير من الأتعاب، ففي أحد الأيام أقام لي مأدبة غداء دعا إليها أصدقائه وأصدقائي الأساتذة»¹، وبهذا أتخفه بمكرمتين عطاء الأبدان وعطاء الأفكار، ففي وصفه هذا يمزج بين ما هو ظاهري ومعنوي في الشخصية فقد كان من كبار الأدباء الملتزمين عالما محققا ومرجعا أميناً.

ومن هؤلاء: محمد برادة الذي كان عائداً من فرنسا بعد أن نال شهادة الدكتوراه الدرجة الثالثة في النقد الأدبي، وموضوعها (أثر الناقد المصري محمد مندور).

إبراهيم السولامي: الذي أعد رسالته عن الشعر الوطني المغربي بكلية الآداب بالجزائر.

عبد الملك مرتاض: رئيس قسم اللغة والثقافة بجامعة وهران بالجزائر² فكانت جلسة علمية ممتعة مع هؤلاء الأعلام، فالأول كان ناقداً والثاني - كما قال - له ديوان مطبوع، وكل منهما أهداه نسخة من عمله، فكل واحد منها أهميته الخاصة عند الكاتب.

وحين نطالع ما يذكره عن هذه المأدبة وإشادته بخصال الحاضرين وجلستهم العلمية؛ يتبين لنا تأثيره برحلات سابقه أمثال محمد الخضر حسين إذ يقول: «ودعانا السيد مصطفى الأكل إلى منزله وهو من أفاضل القوم، وحضر تلك المأدبة جماعة من أعيان العلماء مثل العالم الفاضل بوقندورة والشيخ عبد

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 217/219.

² - المصدر نفسه، ص 218.

الحليم ومحمد بن مصطفى خوجة، فنضحوا بماء لطافتهم عن صدورنا وحشة الاغتراب وتساقط من بين مذكراتهم العلمية ما تلهه عيون الألباب»¹.

كما أثنى على أحمد شحلان: والذي كان يعد في باريس رسالة لنيل درجة الدكتوراه الدور الثالث في النحو بعنوان (الدراسات النحوية في المغرب والأندلس على عهد الموحدين)، بإشراف أحد العلماء الفرنسيين اليهود.

وكان الأخ شحلان هو الوحيد الذي ينافسه في دخول المكتبة، فقد كان لا يمل الجلوس ولا يكاد يرفع بصره عن المخطوط الذي بين يديه، وقد أطلعني الأخ شحلان على بحثه وأبدت له رأيي بطلب منه، وهو متأكد من صعوبة عمله فلا نجده يتوقف عن المطالعة وعن تعلم اللغة العبرية.²

وأثناء إقامته بالفندق؛ كان بجواره لذلك كثيرا ما رافقه في غُدُوّه ورواحه وتجوّاله: « ودعاني ذات مرة إلى التعرف على صديقه مصطفى الشّابي ومرافقتهما على شاطئ الرمال الذهبية فقبلت الدّعوة، فركبنا ثلاثتنا سيارة الشّابي إلى هناك وعلمت في الطريق أنه قد أنهى بحثه لنيل الدبلوم عن وضع العائلات الكبيرة في المغرب، وأنه الآن يعمل مدرّسا للتّاريخ، ودار الحديث حول رسالته، وعن الدراسات الجامعية عامة ومشكلة الإطارات الوطنية القادرة على الإحلال محل الإطارات الأجنبية في المغرب والجزائر»³.

لقد جذبته حب المغامرة والتطلع إلى مرافقة زميله شحلان وصديقه إلى شاطئ الرمال الذهبية فوصف مشاهداته، وأشار إلى حوادث تاريخية تتعلّق بالجزائر والمغرب.

¹ - محمد صالح الجابري: رحلات جزائرية، (مرجع سابق) ص43.

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص225.

³ - المصدر نفسه، ص230/229.

وتحدّث باختصار عن الأستاذين محمد داوود وأحمد العلوي وعن اهتمامهما بعلوم التاريخ والأخبار، فمحمد داوود: مدير المكتبة الملكية ومؤلف كتاب تاريخ تطوان الذي بلغ حتى الآن أربعة عشر جزءاً، وكان طليق اللسان متواضعا لا يبخل بمعارفه، وكان يسأل عن الشيخ أحمد الورزي بالتطواني الذي زار الجزائر في القرن الثاني عشر للهجرة.

أما أحمد العلوي: فهو أديب وخبير بخفيات المكتبة، عارف بأنواع الخطوط مطلع على تاريخ وأحوال المغرب، وقد لجأت إليه في عدّة مرّات لفك تاريخ غامض، أو لحل لغز اسم مؤلف مطموس، فكان يجود بما عنده دون تحفظ وبكل تواضع.¹

والواقع أنّ المؤلّف هنا قرّر حقائق واقعية لمسها بنفسه عن قرب بقطع النظر عن الاعتبارات الأخرى، فهو يلاحظ ويدرس ويتأمل وينقل بعد ذلك ما يراه مناسباً لأنّ شخصيات الرّحلة هي «شخصيات واقعية أسماؤها ليست مختارة بطريقة فنية لتحمل دلالة خاصة، أو تؤدي وظيفة فنية معينة، بل هي شخصيات معروفة بأسمائها وأنسائها وانتماءاتها وثقافتها، والرّحالة يركّز في حديثه عنها على طبيعتها ومكانتها وسلبياتها وإيجابياتها، وما يذكره عنها من أخبار هو في الغالب واقع يشهد عليه غير الرّحالة من المعاصرين لها، من خلال الترجمة لها»².

فحين يذكر أبو القاسم هذه الشخصيات الرّئيسية؛ فهو يعرفنا بأسماء رجال عرفوا كلهم أو جلهم بأفكارهم النيرة وبعلمهم وفضلهم على المجتمع، وهذا ما

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 226.

² - الطاهر حسيني: الشخصية المركزية في الرحلة الورتلانية ملامح بنائها وعلاقتها مع الآخر، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، لبنان، العدد 20، جوان 2016م، ص2.

يَفْتَنُكَ وَيُبْقِي حَفْرِيَةَ فِي ذَهْنِكَ، وَالْأَجْمَلَ مِنْ ذَلِكَ وَكَأَنَّكَ تَشْخَصُهُمْ بِنَاطِرِكَ أَوْ بِالْأُخْرَى تَجَالِسُهُمْ وَتَشَارِكُهُمْ رَغِيْفًا مَعْرِفِيًّا شَهِيًّا، كَمَا أَنَّ عِدْدًا مِنَ الْبَاحْثِينَ سَتَدْفَعُهُمْ قِرَاءَةَ هَذِهِ الرَّحَلَاتِ إِلَى اسْتِكْشَافِ الشَّخْصِيَّاتِ وَدِرَاسَةِ مَوْلاَفَاتِهَا الْمَذْكُورَةِ، أَوْ الاسْتِفَادَةَ مِنْهَا فِي الْبَحْوثِ الْعِلْمِيَّةِ فَمَوْلاَفَاتِ هَذِهِ الشَّخْصِيَّاتِ تَقْدِمُ فَوَائِدَ جَمَّةً لِدَارِسِي الْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ، وَهِيَ فِي مَجْمُوعِهَا تَمَثِّلُ مَحِيْطًا حَضَارِيًّا مُتَكَامِلًا أَمْدَ الْقَارِيءِ بِمَجْمُوعَةٍ مِنْ نَفَائِسِ الْكُتُبِ.

أما رحلته إلى الجزيرة العربية؛ فقد سارع فيها إلى الإعلان عن نفسه منذ الوهلة الأولى، فمِنذُ الْبِدَايَةِ نَجِدُ تَقْدِيمًا لِلْحَالَةِ الشَّعُورِيَّةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، إِذْ ذَكَرَ أَنَّهُ هِيَأَ نَفْسَهُ لَهَا رُوحِيًّا وَبَدْنِيًّا، فَعَبَّرَ عَنِ غَبْطَتِهِ بِالرَّحْلَةِ لِمَا لَهَا مِنْ هَوَى فِي فؤَادِهِ، وَعَبَّرَ عَنِ ابْتِهَاجِهِ بِلِقَاءِ رِجَالِ الثَّقَافَةِ وَالفِكرِ الَّذِينَ حَضَرُوا النَّدْوَةَ، كَمَا أَنَّ تَصْوِيرَهُ لِلجِلسَةِ الْعِلْمِيَّةِ بَدَأَ أَكْثَرَ تَوْسَعًا وَشُمُولِيَّةً وَنَالَ قَلَمَهُ فِيهَا حُرِيَّةً أَكْثَرَ مِنَ الرَّحْلَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ، فَقَدْ ذَهَبَ لِحَضُورِ النَّدْوَةِ الَّتِي نَظَّمَتْهَا جَامِعَةُ الرِّيَاضِ عَنِ تَارِيخِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ: «لأنَّ عَنصرَ التَّوَاصلِ الْعِلْمِيِّ يَمَثِّلُ الْوَاجِهَةَ الْأَكْثَرَ إِثَارَةً فِي أَعْمَالِ الرَّحَلَاتِ الْحِجَازِيَّةِ، فَتَشْتَرِكُ فِيهَا جَمِيعًا دُونَ اسْتِثْنَاءٍ مَعَ اعْتِبَارِ نِسْبَةِ النِّقَاطِ بَيْنَهَا» وَطَبِيعَةُ الرَّحْلَةِ هُنَا فَرضتْ نَفْسَهَا بِاعْتِبَارِهَا رِحْلَةَ حَجِيَّةٍ، وَالرَّحْلَةُ الْحَجِيَّةُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ تَكُونُ جَمَاعِيَّةً، وَلَكِنهَا أَيْضًا مِنْ أَجْلِ مَوْثَمَرِ جَامِعِ يَأْتِيهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ حُدُبٍ وَصُوبٍ، حَيْثُ أَدَّى مَوْسَمَ الْحِجِّ إِلَى التَّوَاصلِ الْفِكْرِيِّ بَيْنَ أَطْرَافِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ دَرَجَةِ التَّوَاصلِ النَّخْبَوِيِّ الْمَوْسَمِيِّ إِلَى وَحْدَةِ حَقْلِ ثِقَافِيٍّ، وَسَطِ قَوَامِهِ رِحْلَاتٌ عِلْمِيَّةٌ، وَإِجَازَاتٌ وَاسْتِجَازَاتٌ فِي جَمِيعِ الْإِتْجَاهَاتِ، وَتَبَادُلٌ فِي مَسْتَوَى الْإِفْتَاءِ وَالاسْتِفْتَاءِ دَالٌّ عَلَى تَشَابِهِ الْمَعْطِيَّاتِ وَالنَّوَازِلِ وَوَحْدَةِ أَدْوَاتِ التَّفَكِيرِ وَالْإِجْتِهَادِ¹ لِذَلِكَ وَصَفَ مَادَةَ الْمَحَاضِرَاتِ الْمَلْقَاةِ وَعَدَدَ الْأَبْحَاثِ الْمَقْبُولَةِ وَغَيْرِهَا قَالَ عَنِ هَذِهِ الرَّحْلَةِ: «وَهِيَ رِحْلَةٌ تَغْطِي زِيَارَتِي لِعَاصِمَةِ الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ وَالْمَدِينَتَيْنِ

¹ - معتمد الحاج عوض الكريم: مدينة بربور السودانية للرحلة الحجازية مجلة رفوف (مرجع سابق)، ص 167

الشريفتين مكة والمدينة، وما وقع لي في هذه الأماكن»¹، ووصف تنقلاته من بلد لآخر إلى غاية وصوله للرياض، متحدثا عن الندوة وظروف انعقادها، وعن جامعة الرياض وقاعاتها وزيارة آثار العلا ومدائن صالح وغيرها.

وتختلف هذه الرحلة عن سابقتها في تقسيم من لقيهم من العلماء إلى قسمين هما: علماء الجيل الجديد، وعلماء الجيل القديم، فذكر من شارك منهم في الندوة وغيرهم مبديا انطباعاته نحوهم والتي كانت غالبا ايجابية، أما من الجيل الجديد «فقد عرفتهم من مشاركتهم في الندوة بأبحاثهم أو بحكم إشرافهم على لجان الندوة»، أما من الجيل القديم فقد ذكر شخصيتين رئيسيتين، كان لهما زاد علمي كبير وأثرا في شخصية الرحالة، لكنه لم يفصل بين الأجيال رغم تعدد الشخصيات واختلاف أعمارهم ومستوياتهم العلمية والثقافية.

التقى الكاتب بالمناضل المعروف حمد الجاسر، الذي يسمونه بحق علامة الجزيرة، والذي ألف وحقق أكثر من كتاب حول (تاريخ، وأدب، وأنساب، وجغرافية، ولغة الجزيرة العربية)، وهو صاحب مجلة العرب، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة وقد أهدى لي عددا من مجلة العرب حقق فيه رسالة لأحد علماء الجزائر وهي (في وصف مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف؛ منسوبة لمحمد بن أبي بكر التلمساني)².

كما التقى بعبد القدوس الأنصاري: صاحب التأليف العديدة ومحرر مجلة المنهل، وهو الذي احتضن المرحوم أحمد رضا حوحو لما كان في المدينة وترجم له آثارا لازالت إلى حد الآن لم تجمع ولم تعرف، والأنصاري مهتم بآثار المغاربة كزميله الأستاذ الجاسر، لاسيما تلك المتعلقة ببلاد الحجاز، وقد قيل لي إن أصل عائلته من بلاد شنقيط³.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة (مصدر سابق)، ص 236.

² - المصدر نفسه، ص 247.

³ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة (مصدر سابق)، ص 247.

فقد حفل الكاتب بهاتين الشخصيتين أكثر، وأما بقية الشخصيات فقد ذكرها بنحو مجمل، كما تحدث عن رئيس الندوة وهو الدكتور عبد الرحمان الطيب الأنصاري، فهو المحرك لهذه اللجان والمنسق لها، ثم شرع يفصل في توزيع المؤتمرات وأشاد بالتنظيم المحكم وبخصال السعوديين، وما يتحلون به من أخلاق فاضلة وشيم عالية، وبذل سخي في سبيل نهضة وطنهم.

فالشخصية المحورية هنا هي شخصية الرحالة بطبيعة الحال، فهو المتحكم بجميع خيوط الرحلة، والمشارك في جميع أحداثها بمختلف أشكالها، فهي الشخصية الناقلة للأخبار والمنشئة للأقوال، شخصية فاعلة متحركة، وهذا بخلاف الرحلة المغربية التي شاركت فيها الشخصيات الرئيسية في حركة الأحداث، وشكلت عنصرا فاعلا في الرحلة.

«وعلى هذا الأساس؛ فإن حضور الشخصيات الرئيسية الأخرى في الرحلة والتعريف بها يأتي في الغالب من باب خدمة الشخصية المركزية، لذلك يكون اختيارها بطريقة انتقائية في نفسه خاضعة لسلطة الأنا، ولعل هذا ما يفسر طغيان ضمير المتكلم على الرحلة باعتباره فاعلا راحلا ومستمعا للعلماء، ومعلقا على ما سمع أو رأى أو قرأ باحثا أو محققا»¹.

كما تشارك الرحلة المغربية هاته الرحلة في الطابع الخاص الذي انفردت به والمتمثل في الاهتمام بالشخصيات العلمية والبحث العلمي، من خلال البحث عن عناوين بعض المخطوطات الجزائرية في الرحلة المغربية، أو التعريف بعناوين المداخلات في ندوة الجزيرة العربية، مما قد يفضي بالقارئ إلى تقديم معطيات جدلية من شأنها أن تطرح صورة مغايرة أو تثير نقاشا أكثر عمقا، ويكون جديرا بالبحث والدراسة، كما تشاركها في الحديث عن أهل العلم، وفضل مجالستهم عليه وحسن عشرتهم.

¹ - الطاهر حسيني الشخصية المركزية في الرحلة الورتلانية، (مرجع سابق)، ص4.

3- الآخر الثانوي:

لقد رسمت الرحلة المغربية صوراً وأشكالا متنوعة للآخر الثانوي، وحملت في إطاراتها بعض ملامح الآخر وجانبا من ثقافته، وغني عن البيان أن سعد الله شخص متعدد الأبعاد، تتداخل فيه دوائر انتماء متعددة، منها ما هو ديني ومنها ما هو اجتماعي ومنها ما هو تاريخي وثقافي، وأي دائرة انتماء تمثل زاوية نظر إلى الآخر، وهذا ما يساعد المتتبع للرحلة على الانفتاح على الآخر البعيد، وتوسيع أفقه ليشحذ قدراته ويوظف طاقاته وأفكاره، ومقاربتها مع هاته المعلومات القيمة، فكثيرة هي الأسماء المذكورة ومتعددة الثقافة إذا ما قورنت بالرحلة إلى الجزيرة العربية، والذين نذكر منهم:

محمد بن عبد الله: مدير مجلة دعوة الحق فقد رافقه إليه صديقة الجراري ذات مرة، ووجده راجعا من الجزائر من الملتقى الوطني الذي حمل عنوان الفكر الإسلامي: «وقد أبدى إعجابه ببعض علمائنا أمثال أحمد حماني الذي دافع عن الملتقى، والمهدي

البوعبد اللي الذي قرأ له تحقيق كتاب (الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني) لابن سحنون¹ و المرحوم نعيم النعيمي الذي تعرف عليه قبل وفاته، ودار الحديث

¹ ابن سحنون: الراشدي ولد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في معسكر الراشدية وتوفي في النصف الاول من القرن 19، عاش في معسكر ووهران، درس العلوم الشرعية واللغوية فأصبح فقيها وأديبا وشاعرا، وصفه أبو القاسم سعد الله بأنه كان بمثابة المتنبي لسيف الدولة شاعرا ومؤرخا ومرافقا للباي محمد الكبير، له ديوان مختص بشعره، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني نشر علم 1972م، وكتاب "الأزهار الشقيقة المتצועة بعرف الحقيقة". كتب في أغراض شتى منها المدح والوصف والغزل وبهذا تجاوز معاصريه من الشعراء، وجرى القدماء في بناء القصيدة وفي الاهتمام بالصورة. أنظر أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي بوعبدلي منشورات عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1 الجزائر 2013م، ص. وانظر أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (مصدر سابق)، 259/2

حول أهداف الملتقى المذكور، والحياة الثقافية في الجزائر والمغرب»¹، فهي نخبة مهمة من أعلام الجزائر تستحق البحث والدراسة والبحث عن مؤلفاتها والاستفادة منها، وما ذلك إلا باب من إضفاء الموضوعية على تنقلاته ومشاهداته.

وتدعو ضرورة الوضع العلمي والاجتماعي الذي كان عليه الرحالة؛ إلى هذا النوع من الأشخاص للاتصال به، فقد استطاع أن ينقل نقلاً أميناً اهتماماتها وثقافتها، وكيف أنه أسس علاقات وثيقة بهم، بل حرص على أخذ بعض العلوم والكتب منهم، إذ يقول بهذا الصدد: «وقد أهداني العدد الأخير من مجلة دعوة الحق وهي أقدم المجالات في المغرب، ولفت نظري في هذا العدد مقالة عن الشيخ عبد الحميد بن باديس بقلم الحاج أحمد معنينو»².

إنّ الحديث عن العلماء في هذه الرحلة والتعريف بأعمالهم؛ ينطلق من وعي الشخصية المركزية بذاتها، وحقيقة من يشاركها في أحداث رحلتها، ولما كان لأهل العلم درجات فإنّ الرحالة حرص على نقل صورة الآخر المغربي والانبهار بفعله، وأثره في تنمية البلاد وفعله الأخلاقي، والالتزام والمسؤولية والتفاني في العمل والدقة، ومن هؤلاء الشيخ الأستاذ عبد الله الجراري: «وقد تجاوز الستين، لكنه مازال في حيوية ونشاط ابن الأربعين، وقضى سني حياته في الأبحاث الإسلامية والتاريخية، زرتّه مرتين، وقد جلسنا في المرّة الأولى في مكتبته الكبيرة التي يعتز بها، وهي مكتبة غنية بالمخطوطات والمطبوعات الحديثة والقديمة، وقد اطلّعت على بعضها منها بعض المخطوطات النادرة الهامة»³، وقد دار الحديث بينهم عند شرب الشاي حول الحركة الإصلاحية في المغرب والجزائر والتي عاصرها الشيخ وساهم فيها، وعن تجدد

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 221.

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 221.

³ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 224.

الفصل الثاني: الجماليات الفنية والمضامين الثقافية في رحلات سعد الله دراسة مقارنة

بعض العوائد القديمة مثل الأذكار والحلقات، وهذا ما يؤكد صحة قوله وقوة حفظه وغازارة علمه؛ من خلال ذكر تفاصيل جلساته العلمية الثرية والمتنوعة المشارب، فجميل أن تقرأ لمبدع أو تستفيد منه، والأجمل من ذلك أن تشخصه بناظرك وتجالسه، وتشاركه رغبة معرفيا شهيا..

فشخصيات أهل العلم والأدب هي الضالة التي كان ينشدها رحالنتها، وحضور محاوراتهم ومناقشتهم العلمية ومطاراتهم الأدبية كان غايته حتى ينهل من معينهم، فكل منهم فصاحته الخاصة وسجية نزاعة للأدب، فشخصية عبد الله الجراري مثلا تمثل كنزا حافلا بالمعلومات، بل هي شاهد عيان على النضج الفكري في المغرب في مختلف المجالات.

ثم ذكر أنه رأى شيخا طاعنا في السن مرتديا جلابة مغربية: «فتقدم مني لما علم أنني من الجزائر، وحدثني عن أسرتيه التي هي من تلمسان منذ حروب الأمير عبد القادر... وكتب في دفترتي محمد بن تازوالت التلمساني من سلالة المهاجرين من القطر الجزائري تاريخ الاحتلال الفرنسي، وكان تاريخ الهجرة إلى فاس يوم الأربعاء 24 رمضان 1250 الموافق 1830م»¹.

ثم ذكر الباحث الأجنبي ماكسيم كيكثيف: وهو أستاذ الآداب العربية في جامعة موسكو، وقد جاء للمغرب للاطلاع على نسخة نادرة من ديوان المتتبي الذي يقوم بتحقيقه، فحديثه عن أعيان المغرب شيق وشائق، وهو يصول بك بين هذه الشخصيات الثقيلة من مصابيح الدجى.

ونستخلص من مثل هذه الرحلات العلمية التثقيفية نتائج مهمة منها: أن «خبرات صاحبها تزيد، ومعارفه تتنوع وتتضح قدراته، وتتبلور آراؤه وكل ذلك يحدث نتيجة

¹ - المصدر نفسه، ص 213-214.

التّرحال والتّلمذ على يد العلماء»¹، بالإضافة إلى الجلسات العلميّة الشّيقة التي ارتقى فيها النقاش مع نخبة من كبار الأساتذة والباحثين.

وحضور الآخر الثانوي في الرّحلة الحجازية: لم يكن حضوراً مكثّفاً إذا ما قورنت بالرّحلة المغربيّة، لأنّ رحلته اقتصرت كما قلنا على وصف الندوة، وبعد خروجه منها اتّجه مباشرة لأداء الشعائر الدينيّة، لذلك اقتصر على شخصيّة واحدة وهي:

عبد الرحمن الطيب الأنصاري: رئيس قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب بجامعة الرياض، ومنظم معرّض آثار الفاو «وقد نظم المعرض تنظيماً دقيقاً، واحتوى على أشياء ثمينة تعود إلى عهد ما قبل الإسلام»².

وهذه الشخصيات الثانوية في كلا الرّحلتين لا تمتلك الحركة الكثيرة في بناء مسار الرّحلة، كما لا تمتلك ذلك العمق وتلك التحولات كما رأينا ذلك في الرئيسيّة، ولكن كان لها أثرها الواضح في بناء الأحداث وتطورها وفي إفادة الكاتب.

4. الآخر التراثي:

أضف الرّحالة عنصراً مهمّاً لتزيين فضاء رحلاته وتجميل بهائها، ألا وهو توظيف الشخصيات التّراثيّة التي أثرت بإنجازاتها وإبداعاتها التّقافيّة في الفكر العربي، ففي الرّحلة المغربيّة أتى الكاتب على ذكر مجموعة من الأعلام نذكر منهم:

عبد العزيز الفشتالي¹: الذي حقق كتابه الأستاذ عبد الكريم، وعنوان الكتاب (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشّرفاء)، ثم قادته رجلاه إلى مكتبة الطالب عبد القادر المكناسي.

¹ - جمال الدين فالح الكيلاني: الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي، (مرجع سابق)، ص 50

² - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 244.

وذكر لنا بعض الشخصيات التراثية وكتبها منها
شخصية أبي القاسم الزياني²، ومحمد باشا، وهلمّ جرّاً، فالكاتب هنا لم يأت
بسرّد للأحداث فحسب؛ بل إنّه سلك طريقاً آخر في سرده فأرّخ للأفراد قبل
التأريخ للحوادث.

وقد تذاكر مع الجرائي مواقف بعض العلماء، وشمل الحديث شخصيات
تراثية أخرى، نذكر من ذلك أثر الجزولي³، والخزرجي، وابن الونان:
صاحب القصيدة المعروفة بالشمقمقية، التي تبارى الأدباء في القديم والحديث
في تقليدها.⁴

¹ الفشتالي: هو عبد العزيز بن عمر بن إبراهيم الفشتالي، ولد سنة 956هـ/1549م، من قبيلة كانت تقطن بالمغرب ولذلك نسب إليها، برع في علوم الأدب وامتاز بنبوغه في الكتابة والشعر، كان بحراً من العلوم ومجمع الأخلاق، له عدة مؤلفات منها: مناهل الصفا في أخبار موالينا الشرفاء، ومقدمة في ترتيب ديوان المتنبي، توفي رحمه الله عام 1031هـ. ينظر ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة: عبد الله كنون، دار ابن حزم مركز التراث الثقافي المغربي، 2007م، 1224/2.

² الزياني: مؤرخ ووزير الدولة العلوية، أمازيغي الأصل ولد بفاس في المغرب عام (1147هـ/1734م)، لم يؤرخ أحد من المغاربة للعصر الذي عاش فيه الزياني مثلما أرّخ أبو القاسم الزياني لنفسه والعصر الذي عاش فيه هو عصر أعظم ملوك الدولة العلوية، علماً وخلقاً وسياسة وتدبيراً، وهو المولى محمد بن عبد الله بن إسماعيل، سافر مع والده إلى الديار المقدسية عام 1169 لأداء الفريضة، أنتج مؤلفات عدة منها البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، كشف الأسرار في الرد على أهل البدع الأشرار، الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب، وهذه الأخيرة جمعت أمصار المعمور كله، برأ وبحراً من المغرب إلى أقصى المشرق بالصين، ومن أقصى السودان في الجنوب إلى أقصى بلاد الصقلاب في الشمال القاصي.: أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، دار المعرفة للنشر، ط2، 1412هـ/1991م، ص10، 36، 37.

³ الجزولي: (807-870هـ = 1404/1465م) محمد بن سليمان بن داود بن بشير الجزولي السملالي الشاذلي: صاحب دلائل الخيرات، من أهل سوس المراكشية تفقه بفاس وحفظ المدونة في فقه مالك وغيرها و حج وقام بسياسة طويلة ثم استقر بفاس وبها ألف كتابه، وله كتاب حزب الفلاح، ومات مسموماً كما يقال بمكان يدعى آفغال ونقل بعد 77 سنة إلى مراكش، له في خزنة الرباط 119 كتاب ممتع الأسماع بمناقب الشيخ الجزولي: خير الدين الزركلي: الأعلام دار العلم للملايين بيروت لبنان، ط13، 1998م، 151/6.

⁴ ينظر أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة (مصدر سابق) ص221.

كما عرف بمحمد بن علي الخروبي الطرابلسي¹ دفين الجزائر، والذي يقال إنه ذهب في سفارة جزائرية إلى المغرب، فقد وجد له مجموعة كتب منها (كفاية المرید)، وكتب أخرى.

فقد دون الرحالة بكل أمانة؛ كل ما وقعت عليه عيناه، وهذا ما يلبي رغبة القارئ، ويشحذ قدراته ليوطف طاقاته وأفكاره، وهو شحنة مهمة للدارس الذي يبحث عن المخطوطات، وعن المعلومات عامة «كما أنه لا يمكن للإبداع أن يكتمل إلا بالقارئ، لأن المتلقي يقوم بدور الناقد، فقد يختار منهجا ملائما لقراءة النص، وقد تجتمع لديه مناهج مختلفة إلى جانب معارف أخرى لتقديم أفضل قراءة ممكنة للنص»²، فقد امتلك الرحالة ثقافة معرفية شاملة لا تختص بمجال معين، ولذلك ذكر نخبة من رموز الأدب والفكر والثقافة في المغرب والجزائر المتخصصة في مجالات شتى ومؤلفاتهم المخطوطة والمطبوعة، لأن محطاته في الرحلة كانت معظمها لأشهر المكتبات، والتعريف بما فيها من نفائس المجاميع والكتب والمخطوطات.

هذا وقد أسهمت هذه الشخصيات التراثية بأسمائها الحقيقية وصفاتها المادية والأخلاقية وتنوع ثقافتها؛ في منح هذه الرحلة قدرا هائلا من الحيوية والثراء الثقافي، وهذا ما يجعلها تختلف عن رحلة الجزيرة العربية التي لم تخرج شخصياتها عن أعضاء الندوة تقريبا، ولكن هذا لم يمنع من وجود

¹ - الإمام أبو عبد الله محمد الخروبي الطرابلسي (ت 963هـ/1556م) نزيل الجزائر ودفن بها تعين للوفادة على مراكش سنة 961، من أهل الحديث والفقه والتصوف واقف على أغراضهم جمع فن التصوف والأدكار والأوراد كتبها منها شرح الحكم لابن عطاء الله، كان خطيبا بالجزائر وكان له واجهة عند أمراء بني عثمان استعملوه في السفارة بينهم وبين أبي عبد الله المهدي الشريف الحسني. أنظر: محمد أبي القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبيرفوننتانة الشرقية الجزائر، 1906م، ص 483.

² - سعد عودة حسن عدوان: الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية دراسة في ضوء المناهج النقدية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية غزة فلسطين، 1435هـ/2014م، ص 12.

شخصيات تراثية من نوع آخر، فهي تختلف عن سابقتها التي كانت شخصياتها عادية، في حين جاءت شخصيات هذه الرحلة- الجزيرة العربية- دينية ومقتسة فهي تشمل الأنبياء والصالحين والخلفاء.

«ويمكن أن يدخل في هذا الإطار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الرّاشدون والأئمة الأربعة وبعض الأولياء الصّالحين»¹، وقد أورد الكاتب في رحلته هاته الأسماء إما تبركا بها كذكره لموضع سيدنا حمزة، أو للاستفادة من هديهم وحكمتهم وصبرهم كذكره الإمام علي، وسيدنا عمر، وأبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعا، أو التذكير بهديهم وضلال أقوامهم كذكره لمدائن صالح.

بالإضافة إلى ذلك؛ فقد ذكر شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم «وهي أكثر شخصيات الرسل شيوعا، وقد أخذت دلالات متعددة في التراث العربي منها أن الكتاب العرب استدلوا بها على ازدهار الماضي العربي وتألقه، أو تصوير بعض جوانب وأبعاد تجاربهم الخاصة»²، فالشّعور لا يوصف، والسرد لا يكفي وأنت على خطى الحبيب صلى الله عليه وسلم تقتفي أثره، وتقتدي بسنته وتعمل كما عمل، كيف لا وهو لك القدوة الحسنة، والأسوة النيرة.

3.1.2 استدعاء الشخصيات والشخصية التراثية: في رحلتي (خنقة سيدي ناجي

وحفل في ميزاب)

الشخصية الفاعل المركزي والمحرك الأساسي للأحداث، فهي التي تمكّن القارئ من معرفة الآخرين، من خلال تصرفاتها وتعاملها مع الأحداث

¹ - إدريس الكويري: بلاغة السرد في الرواية العربية، دار الأمان الرباط، ط1 ، 1435هـ/2014م، ص306.

² - ينظر: علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية، (مرجع سابق)، ص 79. 80.

والمشكلات، وردود أفعالها اتجاه القضايا والشخصيات الأخرى، فالشخصية يمكن أن تكون مؤشرا دالا على المرحلة الاجتماعية التاريخية التي تعيشها وتعتبر عنها¹، وعلى هذا الأساس يرى عبد الملك مرتاض «أن الشخصية هي الشيء الذي تتميز به الأعمال السردية عن أجناس الأدب الأخرى أساسا، فلو ذهبت القصة عن أي قصة لصنفت ربما في جنس المقالة»².

لقد استهل الكاتب رحلته بأنّ ماكتبه الدارسون عن هاته المنطقة يجعلك تتوق إلى رؤيتها، فكان من بين من شغفتهم حبا، كيف لا وقد خص كتابه تاريخ الجزائر الثقافي بالحديث عنها والتتويه بما كانت عليه سابقا والإشادة بأفاضلها والتعريف بعلمائها، ويذكرنا هذا بقول الورتلاني لما ذكر سبب رحلته المشهورة نزهة الأنظار «وبعد فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والقفار والديار والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء، والأشياخ العارفين والإخوان والمحبين... أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي»³.

والشيء نفسه الذي حصل لرحالتنا سعد الله، لذلك عزم على الرحيل لخنقة سيدي ناجي لتحقيق تلك الرغبة الجامحة التي لا طالما شغف بها بالإضافة إلى أنّ الورتلاني كان من ضمن الرحالة الذين رحلوا إلى الخنقة وتكلموا عنها في رحلاتهم، ومن الذين تأثر رحالتنا بكتاباتهم عنها .

¹ - إبراهيم الكوني: بنية الشخصية في رواية التبر، دار التتوير للطباعة والنشر، ط3 لبنان، 1992م، ص19-20

² - عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية بحث في تقنيات الكتابة الروائية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ص134

³ - ينظر: الحسين بن محمد الورتلاني: الرحلة الورتلانية (مصدر سابق) 12/1.

1- الآخر الرئيسي:

فمنذ بداية الرحلة؛ صرّح بأنه انطلق رفقة زملائه الثلاثة وهم علي التوالي: علي باشا وهو مدير متوسطة في بسكرة، وميموني الغسيري والأخضر الحنفي، وقد استضافهم الدريدي وهو ابن شهيد ومن حفظة القرآن الكريم في منزله، والذي قال عنه: «فقد استضافنا السيد الدريدي بداره على العسل والجوز، وأحضر لنا بعض الكتب منها منار الأشراف لعاشور حنفي فشكرته على كرمه، وأخبرته أن هذه الآثار معروفة لدي وأنا أبحثن غيرها»¹، غير أنّ الشخصيات الثلاث المرافقة له (علي باشا، ميموني الغسيري والشيخ الأخضر) لم نلاحظ لها حركة طوال الرحلة، ولم نسمع لها صوتا أو تفاعلا أثناء الرحلة، ولكنها في مقابل ذلك مدت يد العون للمؤلف بمرافقته طوال الرحلة.

ومما تجدر الإشارة إليه؛ أن الكاتب قد أقام جلسة علمية معرفية رفقة زملائه، وبعض أعيان البلدة ناقشوا فيها أحوال الخنقة اليوم، وما كانت عليه من قبل، فتساقط من بين مذكراتهم العلمية ما تلذه عيون الألباب وتتوق إليه نفس الظمان إلى العلم «ومن الذين حضروا الجلسة: صالح السالمي وهو منسق لشؤون الفلاحة ببلدية الخنقة، وقد حدثنا عن أحوال الخنقة اليوم، وأعطانا صورة عامة عن معالمها الباقية بالتعاون مع السيد الدريدي»².

ومن الشخصيات الألمعية التي التقى بها الكاتب شخصيا أحمد زروق بلمكي، وهي شخصية كان لها وقعها في دفع الأحداث: «من أبرز علماء الخنقة الأحياء فذهبنا إلى داره وخرج إلينا مسلّمًا، ولكنه اعتذر عن الجلوس

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) 258.

² - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 258.

معنا ومحادثتنا لأنه جاء في عطلة فقط، وهو إمام مسجد ابن باديس بخنشلة، وأثناء الوقوف معه في مدخل الدار أخبرني أنه درس في الخنقة قبل ذهابه إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة، وأخرج لي ملفا فيه بعض الآثار المخطوطة، منها قصيدة لوالده وقد وعدني بنسخة منها¹.

ومن هنا يلمس القارئ ما عرض له الكاتب من مشاهد، وما عالجه من قضايا، وما ناقشه من أفكار تدعو إلى النهوض بهذا التراث، والاهتداء بهاته الحقائق العلمية الهادفة، ولما كان السارد من أهل العلم؛ فإنّه ألمه ما آلت إليه الخنقة وما حل ببعض مدارسها.

ومما لاشكّ فيه؛ أنّ هذه الشخصيات كان لها أثر ثقافي فعال من حيث التعريف بالمنطقة ومدارسها وزواياها، والتعريف ببعض الآثار المخطوطة والمطبوعة، ونفض الغبار عن بعض أعلامها.

كما التقى الكاتب في مسجد عبد الحفيظ؛ بشيخ مُسِنِّ (نحو: 82 سنة)، يدعى محمد المولود بوغديري، أخبره بأمر تقوم على الذاكرة فقط منها أن الخنقة كانت عبارة عن غابة، وأن سيدي مبارك قد جاء من الساقية الحمراء، وهو مؤسس الطريقة الناصرية، وسميت الخنقة بهذا الاسم لأن سيدي ناجي هو جد سيدي مبارك، والذي كان أول من استقر بها ولذلك أخذت اسمه، وقد توقفت مدرسة سيدي مبارك عن نشر العلم منذ الاحتلال الفرنسي².

إنّ شخصيّة الدريدي والسالمي وبوغديري أكثر الشخصيات حظا في هذه الرحلة؛ فهي الفاعلة في الرحلة والمحرك الأساسي لأحداثها، لكونها تمتلك

¹ - ينظر: المصدر نفسه، ص 259.

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 260

المرجعية التاريخية للخنقة، ولهذا ترك لهم الكاتب حرية الحديث للكشف عن تاريخ هذه المنطقة، وعن المغزى الذي يريد الكاتب إيصاله لنا، وهو التعريف بها وبيعض أعلامها، ووصل ماضيها بحاضرها وجعلها ناطقة باسمه معبرة أحيانا عن بعض مواقفها، وهذا دليل على ثقافتهم الواسعة واطلاعهم على الكثير من معالم التراث الخاصة بالمنطقة، وبهذا أكرموا بمكنوزهم التراثي، وما جادت به قرائحهم حول المنطقة، وبنظرة استشرافية عن بعض العلماء الذين كان غراسهم العلمي والفكري مثمرا بامتياز.

أما حفل في ميزاب فلم يورد فيها ذكر شخصيات مرافقة كما في الخنقة بل كانت شخصيات مستقبلية، ذكرها بصيغة الجمع فقط فمنذ المطار وجد في استقباله نخبة من المثقفين يتقدمهم زميله الدكتور محمد ناصر فكان الحديث كله عن شخصية القرادي.

2- الآخر الثانوي:

لم يذكر أبو القاسم سعد الله شخصيات ثانوية كثيرة في رحلاته الداخلية ربما لضيق الوقت المخصص للرحلة أو لسبب آخر.

ففي معرض حديثه مع السيد الدردي والسّالمي؛ مرّ فجأة بجانب النافذة شخص ملتحفا بغرارة فقط رغم شدة البرد، ولما رآه في هذه الحالة سأل عنه وقيل له إنه من بقايا أسرة أولاد حسين الشهيرة في هذه المنطقة، وأنه درويش من أهل الله يسكت متى شاء ويتكلم متى شاء¹، فكل رحلة مدعاة لرؤية الحوادث والتقاء شخصيات متنوعة، فليس المقصود بالآخر الأهل أو الصديق

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 258.

المرافق، أو الركب وإنما جميع الشخصيات من العامة والذين صادفتهم الشخصية المركزية.

والشيء نفسه نجده في رحلته إلى ميزاب، فلم يعدد أسماء الشخصيات ولم يفصل في كيفية اللقاء بهم، فكان حديثه عنهم بضمير الجمع كقوله (الحاضرين المثقفين، المتكلمين... الخ) وبطبيعة الحال لأنه بصدد الحديث عن الحفل، غير أنه عند إشارته إلى المكانة العلمية لمنطقة ميزاب وتراثها؛ تحدث عن المرحوم علي دبوز، والذي أكرمنا عنه بنظرة استشرافية عن بعض مشاريعه التي كان بصدد إنجازها كاشفا عن مده ومدده العلمي، ومن ذلك التأريخ للنهضة الجزائرية بالإضافة إلى التأريخ لمنطقة الزاب.

3- الآخر التراثي:

وهي الأسماء التي كان لها أثرها في نشر العلم والمعرفة، ففي رحلة خنقة سيدي ناجي أورد عدة أسماء تراثية نذكر منهم:

1. سيدي مبارك الموجود ضريحه في ملحق بالجامع الكبير هناك
2. عبد الحفيظ الخنقي ناشر الطريقة الرحمانية.
3. أحمد السرحاني تلميذ ابن باديس.

خليفة بن حسن القماري¹ ناظم الشيخ خليل الذي أجابهم على صحة الاستدلال بالأثر.

¹ - خليفة بن حسن القماري السوفي: (كان حيا 1318هـ/1901م) فقيه من أهل قمار بواد سوف، عاش حياته متنقلا بين مسقط رأسه وبين بسكرة وسيدي عقبة وخنقة سيدي ناجي، ورغم عزلته فق ظل ينهل من مصادر تونس وقسنطينة، وهناك مصادر أخرى لغذائه الروحي وهو ركب الحج المغربي، الذي كان يسلك طريق الصحراء في ذهابه وعودته، ومن ذلك ملاقاته لبعض علماء المغرب أثناء مرورهم بالزيبان وإجازتهم له، من آثاره جوهر الإكليل في نظم مختصر الشيخ خليل. أنظر عادل نويهيض: معجم أعلام الجزائر، ص182. وانظر أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، 77/2.

محمد بن عبد الرحمن الأزهري الجرجري (ت1208)¹. الذي ولد في وطن بني إسماعيل وساقته الأقدار لمجاورة الأزهر الشريف، وهو ناشر الطريقة الرحمانية بالجزائر، وغيرهم من الأعلام الذين اشتهرت بهم الخنقة، لكن كما قال إنه يجب علينا البحث في تراثهم، مع المحافظة عليه والتعريف بهم وبأعمالهم، لنكشف عن مدهم ومددهم العلمي.

وإذا كانت الرحلة إلى خنقة سيدي ناجي متعددة الشخصيات التراثية فإنه في هذه الرحلة عرّف بشخصية تراثية واحدة وهي شخصية إبراهيم القرادي الذي أقيم الحفل من أجله، لأنه في رحلة الخنقة جاء قاصدا للبحث عن التراث، وعن بعض الأسماء التي كان لها أثر بارز في بعث الثقافة العلمية من خلال أعمالها ومؤلفاتها، أما حفل في ميزاب فلم يكن ينوي الذهاب إليه، لذلك انشغل فقط بوصف الحفل والمحاضرات العلمية وغيرها.

وقدم لنا بطاقة تعريف عنه حيث ولد القرادي بالعطف بإحدى مدن ميزاب التاريخية في 31 مارس 1923 وتوفي بالمدينة المنورة في 4 يوليو 1989 عالم من علماء الجزائر انتقل في سن مبكرة إلى الجزائر العاصمة رفقة خاله فبدأ مشواره الدراسي ثم رجع إلى مسقط رأسه بعد ثلاث سنوات ليواصل تعلمه ويحفظ القرآن الكريم اضطرّ والده لإرساله للمداواة عام 1931م، فمكث بها ثلاث سنوات لم يغادر المستشفى، واستغلّ الفرصة لتعلم اللغة الأجنبية وتنمية شخصيته، وتوفاه الله سنة 1937م، التحق بمعهد الحياة بالقرارة، حيث تتلمذ على إبراهيم بيوض²، ثم أصبح من معلمي هذا

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة (مصدر سابق)، ص 260/261.

² - الشيخ إبراهيم عمر بيوض (1313-1401هـ/1899-1981م)، ولد بمدينة لقرارة وكان والده من أعيان الإصلاح في البلد، دخل المدرسة القرآنية فاستظهر القرآن الكريم قبل سن البلوغ وانضم إلى حلقة حفاظ القرآن، دخل عضوا في حلقة العزابة ثم انتخب رئيسا لها، أسس معهد سماه معهد للشباب، وجمعية الحياة بالقرارة، وكان رائد النهضة العلمية الإصلاحية بالجنوب الجزائري. من

المعهد، وكان عضوا بارزا في النشاطات الثقافية والأدبية والاجتماعية المحيطة بالمعهد،¹ وفي مدرسة النهضة بالعطف حيث تولى إدارتها مدة طويلة، بالإضافة إلى أنه كان من النشطين في الكشافة الإسلامية، وفي إدارة دار الفكر الإسلامي بالعاصمة ثم في إدارة المطبعة العربية بالعاصمة، ترأس عشيرته على طريقة أهل ميزاب كما عمل في جبهة التحرير أيام الثورة.² كان عضوا فعالا في جمعية النهضة وقام بعدة مهام في حلقة العزابة، كما ترأس دار العيشرة التي كان يحتكم إليها المرابيين وهو في سن مبكرة وهذا لما امتاز به من الذكاء والفطنة. إضافة إلى مساهمته في مجال الثورة التحريرية، وللقرادي آثار علمية قيمة منها مقالاته العديدة وأشعاره القيمة.

توفي بالمدينة المنورة وهو يتأهب لأداء فريضة الحج للمرة التاسعة، ودفن بالبقيع.

وإذا كان الرحالة أشار في الرحلة السابقة الشخصيات التي كان لها دورا في بعث الحركة العلمية في خنقة سيدي ناجي إلا أنه في هذه ذكر بعض الأسماء التراثية من نوع آخر وهم فطاحل العريية وضرب بهم أمثلة عن أهل ميزاب في حذاقة علمهم نذكر منهم: الجاحظ والمبرد، وأبو علي القالي فقد أتى الرحالة على ذكرهم ليوضح لنا الجو الثقافي والعلمي والاجتماعي الذي كان يعيش فيه أهل ميزاب بأنه شبيه بعصر الجاحظ وغيره: «فالشعر يجعلك تتخيل أنك في سوق عكاظ، والنثر يذكرك بعهد الجاحظ والمبرد وأبي علي

مؤلفاته فضل الصحابة والرضا عنهم، البدعة مفهومها وأنواعها وشروطها، مقالات في مختلف المجالات والجرائد والمجلات أنظر: محمد بن موسى بابا عمي وآخرون: معجم أعلام الإباضية، (مصدر سابق)، 20/2

¹ - ينظر: المصدر نفسه 34/2

² - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية، (مصدر سابق)، ص73.

القالى.¹ بمثل هؤلاء يكون الاحتفاء بوركت الحناجر الصادحة صاحبة الكلمة الهادفة.

ومما سبق نخلص إلى أنّ الكاتب استطاع عرض شخصياته بنحوٍ دقيق، فذكر عنهم أموراً ساهمت بصورة فعالة في إقناع القارئ بأنه أمام شخصيات حقيقية وليست خيالية، ورسم صورة ولو بسيطةً في ذهنه عنهم، من خلال بناء الحدث وتفعيله كما أنّ الأحداث تساهم في بناء الشخصية واكتمال صورتها، من خلال المراحل التي تمر بها للوصول للهدف الذي سخرت له وهذا ما يجعلنا نتفاعل مع الشخصيات وكأنها أمامنا، من خلال إنجازاتهم في سبيل العلم والمعرفة، كما أنّ أغلب علاقات الكاتب مع غيره هي علاقات وطيدة أساسها الصداقة الحميمة والتبادل المعرفي للأفكار، فكان لها أثر كبير في صنع حوار عميق الدلالة.

كما نجح الكاتب ببعثه فينا شعلة الأمل لإحياء تراث هذه الشخصيات وتحقيقه إن كان مخطوطاً أو الاستفادة منه، وممّا لاشكّ فيه أنّ عدداً من الباحثين الجزائريين سوف تدفعهم قراءة هذه الرحلات إلى استكشاف الشخصيات التي ذكرها الرحالة، خصوصاً وأنه عرف بالميل الفكرية لها، وبهذا بنى لنا شرفة نطل من عليها على تراثنا المجيد، حديث الرحالة لا يمل؛ موائد علمية متنوعة ودسمة يشدك الحنين لزيارة تلك الأمكنة وتشعر بالغبطة وأنت تقرأ عن رجال العلم بها.

¹ - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية، (مصدر سابق)، ص 69

2.2. جماليات الفضاء المكاني عند سعد الله: مقارنة بين رحلاته

لاشكَّ أنّ القارئ يحتاج إلى جرعة جمالية، بل تتوق نفسه إلى الإحساس الجمالي، وذلك للحصول على لذة النصّ الإبداعي، ويعد عنصر المكان من وسائل التطلع إلى الملامح الجمالية التي تتطوي عليها النصوص الإبداعية فالمكان من العناصر المهمة في تكوين النصّ الإبداعي عموماً وفي النصّ الرّحلي خصوصاً، لأنّ دراسته لم تقتصر على النثر فحسب بل تعدته إلى الشّعْر والمسرح، ويشكل المكان أهم مقومات الحياة بالنسبة للإنسان، إذ هو مجال سيره، وسبيل عيشه ومحط سكناه، وبؤرة معاشه ومستودع رزقه وأسراره إذن هو مكون من المكونات السردية التي لا يمكن الاستغناء عنها مثله مثل الشخصية والزّمن والأحداث.

1.2.2. مفهوم المكان:

هو من المصطلحات السردية التي يصعب تحديد مفهومها، وهذا لتعدد المرادفات المصطلحية التي وضعت له، والتي منها الفضاء الحيز، والموقع والموضع، وعموماً فإنّ هذا التعدد في المصطلحات لمسمى واحد يدل على الاهتمام به وبدراسته منذ القديم، والشعر الجاهلي أحسن دليل على هذا الاهتمام من خلال وقوف الشعراء على الأطلال، فالمكان إذن «لا يعيش منعزلاً عن باقي عناصر السرد، وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الأخرى كالشخصية والزّمن، والأحداث، وعدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها يجعل من العسير فهم الدور النصي الذي ينهض به الفضاء السردية»¹.

¹ - حسن بحرأوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء الزمن الشخصية)، المركز الثقافي العربي ط1 الدار البيضاء، 1990م، ص26.

وللمكان علاقة قوية بالشخصية التي تتحرك داخله وتتفاعل معه، ونظرا للأهمية التي يحظى بها المكان في الأعمال النثرية ارتأينا الوقوف عنده في أدب الرحلة، فمن المعلوم أنّ العرب قديما كانوا أكثر ترحالا، فقد يفضلون مكانا على آخر، وتحن قلوبهم إلى بعض الأمكنة كالحجاز مثلا، ولذلك نجد العديد من الرحالة العرب يصفون عدّة أماكن من خلال رحلاتهم، وللتّعرف أكثر على البعد الجمالي للمكان؛ وقفنا على ذلك في رحلات سعد الله لكن قبل ذلك نشير إلى مفهوم المكان.

أ - المكان لغة:

جاء في لسان العرب: «المكان هو الموضع والجمع أمكنة، كقذال وأقذلة وأماكن جمع الجمع، قال ثعلب: يبطل أن يكون مكان فعال؛ لأن العرب تقول كن مكانك وقم مكانك واقعد مقعدك، فدل هذا على أنه مصدر من مكان أو موضع منه»¹.

وفي القرآن الكريم وردت لفظة المكان بمعنى المستقر، قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَإِذْ نُنزِّلُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾².

والفضاء في اللغة: المكان الواسع من الأرض، والفضاء الخالي الفارغ من الأرض، وهو ما اتسع من الأرض واستوى.³

¹ - ابن منظور: لسان العرب، (مصدر سابق)، 414/13.

² - سورة مريم، الآية 16.

³ - لسان العرب، ابن منظور، (مصدر سابق)، 157-158/15.

ب - المكان اصطلاحاً:

«الفضاء مشتق من espace والتي جاءت من الكلمة اللاتينية spatium والتي تعني الامتداد واللامحدود الذي يحوي كل الامتدادات الجزئية»¹.

وينحو الكاتب عبد الملك مرتاض في المنحى ذاته، إلا أنه يعطي مصطلح المكان تسمية أخرى وهي الحيز ويراهما أشمل وأوسع «فإذا كان للمكان حدود تحده ونهاية ينتهي إليها؛ فإنّ الحيز لا حدود له ولا انتهاء، فهو المجال الفسيح الذي يتبارى في مضطربه كُتَّابُ الرواية»².

المكان إذن يكتسب أهمية بالغة، وذلك باعتباره المساحة التي تجسد وعي الكاتب ووجهة نظره من جهة، ومن جهة أخرى، لأنه يمثل الإطار الذي تتجسد داخله الصيغة البنائية التي يأتي وفقها الخطاب في سير أحداثه، فهو الإطار الذي تتجسد فيه كل أحداث الإنسان، والأرضية التي تتفاعل فيها الشخصيات لتأدية مهامها المكلفة بها سواء كان ذلك واقعياً أو فنياً.

وبما أنّ رحلات سعد الله متعددة ومتنوعة المشارب؛ فإنّ الفضاء المكاني يختلف لاختلافها، فهو يجمع بين الفضاء الانتقالي وفضاء الإقامة، وكل الأماكن التي أشار إليها سعد الله هي أماكن حقيقية واقعية معروفة بمواقعها وأهلها، وكل ما يتصل بها وليست أماكن من نسج الخيال.

¹ - أكرم اليوسف: الفضاء المسرحي دراسة سميائية، دار مشرق، ط1 دمشق، 2010م، ص25.

² - عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، (مرجع سابق)، ص191.

كان سعد الله يتنقل بين شوارع الرباط ويصف لنا ما يستطيه من الأماكن فتارة تقع عدسته على مسجد من المساجد، وتارة أخرى يرتاد أثرا من الآثار، وتارة أخرى مكتبة من المكتبات أو بعض المنشآت العمرانية الإدارية.

كما رسم صورة مجملّة عن نهضة المملكة العربية السعودية، من حيث المنشآت العمرانية والطرق، وتطور المراكز العلميّة من جامعات ومكتبات ومساجد، كما لم ينس جمال الطبيعة الغناء وجانب من نسمات البلد الحرام إضافة إلى ذلك قدّم تصويرًا جغرافيًا عن معالم خنقة سيدي ناجي العلميّة مبدعًا في تحديد مواصفاته، وأجاد فيه على أروع ما يوجد فيه الأدباء، مقربا من المتلقي ما براه من مشاهد تقريب أديب أريب، بأسلوب سلس.

ويمكن تقسيم الجوانب التي عني الرحالة بإبرازها إلى:

2.2.2 المنشآت العمرانية:

1 - العمران في رحلات أبي القاسم سعد الله الخارجية

من خلال تنقلاته في مدينة الرباط المغربية؛ قدّم لنا أبو القاسم سعد الله وصفا أدبيا شيقا، اطلعنا من خلاله على روعة التصوير الفني في فنّ الرحلة و«الذي يحمل معنى الذهاب بعيدا عن الوطن الأصل، وتفتح أفق الانتظار يرتبط بالنوع نفسه ينتظر فيه القارئ وصفا للبلدان والعادات والطقوس، فهي جولة في الفضاء ووصف لما هو مادي ومعنوي»¹، ولهذا بيّن لنا ما تتمتع به المدينة من مشاهد حسان وحدائق غناء، ومما يبدو أن الطبيعة برموزها المختلفة والفاثنة هي الحلقة المكانية الحساسة التي التقطها سعد الله وصور مشاهدها السّامية،

¹ - عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل، (مرجع سابق)، ص 72-73.

فمدينة الرِّباط هي مدينة مليئة بالمنظر الشيقية واللافتة للنظر، وهو ما أثار فضول رحالتنا ودعاه للخروج لها ليلا رغم مشقة السفر.

ولعل من أشهر المعالم التي تميز مدينة الرِّباط عن غيرها؛ هو الجانب العمراني، ولذلك اعتنى به الرّحالة في رحلاته هذه، حيث وصف المنشآت والمؤسسات الدينية والاجتماعية التي تقدم خدمات اجتماعية عامة؛ من مساجد ومكتبات وجامعات وغيرها، وأفاض في وصف مشاعره إزاء هذا الفضاء المكاني الرحيب والعجيب، فأصيب بالدهشة والانبهار، حتى أنه قال عن نفسه: «وكان بصري لا يكاد يقع على الأرض، فقد كان معلقا في اللافتات وأسماء الشوارع والبنىات والأضواء الباهرة... ويكاد من لا يعرفني عندئذ أن يقول عني بأنّ بي مسأ من الهوس»¹.

فالعمران هو أحد المظاهر التي تعبّر عن ثقافة أهل المدينة، وتوجهاتهم الفكرية والاجتماعية، كما أنه يعطي بعدا جماليا في غاية الأهمية، غايته تجسيد رؤى الكاتب في ذلك المكان، ورصد حركة الشخصيات داخله، لأنّ الخطاب الرّحلي بصفة عامة مرتبط بالمعاينة الآنية والمباشرة.

ولم يكتف الرّحالة بالاندهاش والاستغراب؛ بل راح يرسم لنا صورة واقعية فوتوغرافية عن تلك المدينة التي لا زالت تخفي في طياتها كنوزا وأسرارا كونية لم يشاهدها من قبل، وبهذا سلك سعد الله مسلك العديد من الرّحالة الذين سبقوه فقد نقل لنا عدد كبير من الرّحّالين العرب والأجانب صوراً حية عن المدن والمجتمعات التي مروا بها، فالمسعودي مثلا لما مرّ بالعراق قدم صورة عنها وعن أهلها في قوله: «وأما العراق فسرّة الأرض وقلبها، إليه تطاردت المياه وبه

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 208.

الفصل الثاني: الجماليات الفنية والمضامين الثقافية في رحلات سعد الله دراسة مقارنة

اتّصلت النضارة وعنده وقف الاعتدال... وهو مفتاح الأرض ومسلك النور وأهله
أعدل الألوان وأنقى القرائح وأفضل الأمزجة، وفيهم جوامع الفضائل¹ وبهذا
أثنى المسعودي على أهل العراق ونعتمهم بنعت مجمل، وأشاد بشهامة أهله.

ويصف لنا أبو القاسم سعد الله ما تتمتع به الرّباط من معالم حضارية عند
خروجه؛ فيقول عن ذلك: «وفي الصباح شرعت في التجوال في الجزء الأعلى
من شارع محمد الخامس إلى أن وصلت إلى جامع السنة، وهو جامع ضخم مبني
على الطراز الأندلسي... وفي هذا الجزء عددا كبيرا من المنشآت الإدارية
والتجارية كالبريد المركزي، ومجلس النواب، ووزارة الإعلام، وشركة طيران
المغرب، ودور السينما والفنادق... الخ»².

ثم يستطرد من حين إلى آخر في وصف الطبيعة المختلفة؛ تصويرا جمع
جوانب المرئيات من جبال وأشجار، وما توزّع على ساحتها من مؤسسات عامة
وما يعبق مدينة الرّباط من روائح المسك، وما يظهر منها من حدائق وبساتين
حيث كان في وسط «الشارع حدائق غناء تكسوها الخضرة وتعلوها الحدائق
الباسقة وتتفرع منه شوارع تحمل أسماء المدن العربية العتيقة مثل القاهرة عما
نجدة الطائف، وهو تقليد أجاد فيه المغاربة، وهو مظهر من مظاهر العراقة
والمحافظة على التراث»³.

فهذا الوصف العمراني والطبيعي؛ كان قبل أن تفتح المدينة أبوابها للحركة
العلمية وقبل فتح المكتبة الوطنية، ولما ذهب إلى المكتبة العامة وجد نفسه خارج

¹ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، المطبعة التجارية الكبرى ط4 مصر، 1964م، 61/2-62.

² ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة (مصدر سابق)، ص208.

³ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

سور المدينة القديم «في حي غارق في الأشجار المعشوشبة المخضرة وتطل منه المنازل البيضاء الناصعة كأنها بقايا كئيبان الثلج»¹.

فالوصف الواقعي لا ينهض بوظيفته السردية حتى يشمل المناظر الطبيعية والأحياء الخارجية كالرياح والمطر والليل والشمس والقمر، ووصف الأمكنة الحضارية كالتشوارع والأحياء والمساحات، ووصف الأمكنة الطبيعية كالجبال والأنهار وهلم جرا².

وعند تصويره لهذه الأماكن والمشاهد الواقعية؛ يجعلنا نشارك في الرحلة ونتحرك في الأماكن التي مر بها ذهنياً من خلال عملية القراءة، مما يشكل لنا صورة فنية بليغة واضحة المعالم عن تلك الأمكنة، فالرباط هو جزء مهم وصورة مصغرة عن المدينة الكبرى المغرب يقول عنها صاحب معيار الاختيار: «الرباط هو الذي ظهر به من صور الاغتباط حيث القسبة والسباط*، وعنوان بر الدين حيث الحسنات المكتتبة والأوقاف المرتبة والقباب كالأزهار، مجودة بذكر الله أثناء الليل وأطراف النهار، والمثل في الاشتهار»³.

وتزداد جاذبية الرباط وضواحيها في نفس الكاتب، فيحدثنا عن تنقلاته فيها مبدياً انطباعاته عما يشاهده من تقدم في العمران، ويمضي يحدثنا عن داخل المكتبة وما رآه فيها، فقد ذكر موقعها وأهم مصالحها، كما تحدث عن قسم المخطوطات الذي كان محل اهتمامه بالخصوص، وأشاد بأريحته في هذا القسم

¹ أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 209.

² ينظر: عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردى معالجة تفكيكية سمائية مركبة لرواية زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1، الجزائر، ص 205.

³ لسان الدين بن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارات المتحدة، ط 1، دت، ص 152.

* السباط (سقيفة بين دارين تحتها طريق).

وبالاستقبال الرائع من رئيسها الذي لم يكن يتصوره فيقول عن ذلك: «فكان إلى جانب قسم المطبوعات يوجد قسم المخطوطات الذي هو ضالتي، وفي قسم الوثائق قضيت كل أوقاتي ووجدت كل التسهيلات التي لم أكن أتصورها».¹

فقسم المخطوطات معلم من المعالم التراثية الثقافية، ويبدو من وصفه الجميل لهذا المكان وتركيزه على الجانب العلمي هو محاولة بعث الأمل فينا بأن نزور المكان، ونولي اهتمام أكثر لهذا الجزء الهام من تراثنا وثقافتنا، وتحقيق ما يمكن منه، وفي هذا الصدد يذكر الدكتور قمعون عاشوري لما التقى به في مكتب بريد الوادي عام (1982م) أنه «حاول جاهدا أن يقنعني بتحقيق مخطوط العدواني كرسالة علمية، وقد قال لي إن لديه ثلاث نسخ سيزودني بها، وكنت في موقف حرج؛ لأنني أوشكت على الانتهاء من إنجاز رسالتي».²

وتزداد دقة الكاتب في وصف القسم الثاني من شارع محمد الخامس، ألا وهو الجزء الشعبي منه، فقادته رجلاه إلى مكتبة الطالب لعبد القادر المكناسي، ثم يذكر معلما كبيرا من معالم المغرب، وهو القصر الملكي الذي «لا يظهر لراكب السيارة منه سوى بعض القباب والمداخل المحروسة، أما باقيه فتحجبها الأشجار»³، وهو واحد من أكمل نماذج فن العمارة في المغرب.

تشكل البيوت في المدن إحدى المظاهر العمرانية، ويرتبط بناؤها وأشكالها بدرجة رقي المدينة ومظاهرها الحضارية⁴، وهذا ما جعل أبو القاسم سعد الله ينقل لنا صورة جميلة عن منزل صديقه الجراري، والذي كان بديع النقش

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مرجع سابق)، ص 209.

² - ينظر: محمد الأمين بلغيث: رحيل شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، (مرجع سابق)، ص 262.

³ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 221.

⁴ - ينظر جمال الدين فالج الكيلاني: الرحلات والرحالة، (مرجع سابق)، ص 85.

والصنعة، فاخر الأثاث، رفيع الوطاء» فبعد الجلوس في قاعة مفروشة بالزرابي المنمقة، والأرائك الهشة والمُحلّاة بالتحف الثمينة، والمناضد المنقوشة بالزخرفة المغربية توجهنا إلى قاعة الطعام¹، مما يؤكد الذوق الرفيع للفن المعماري المغربي العربي والإسلامي.

وغالبا ما يسعى الكاتب في نصه الرحلي إلى استمالة القارئ بأسلوبه وطريقة عرضه، مما يغريه على فعل القراءة دون ملل، فتجده يبحث عن تفاصيل الرحلة وهوية الآخر المشار إليه في النص.

كما رأى حي باب شالة حيث القصر الملكي، وحي السويس حيث الحي الجامعي ومستشفى ابن سينا الضخم، وكان صديقه يصف له معالم المدينة وخصائص كل حي.

لقد كان من المفيد أن وقف أبو القاسم سعد الله على مثل هذه المواضيع وصور لنا بفتنه جوانب كثيرة ومُهَمَّة من حياة المجتمع المغربي، وبعض مظاهر المنطقة التاريخية والثقافية، وهذا النقل التسجيلي سمة فنيّة جميلة تشد القارئ إليها خصوصا وأنّ الرحالة تنتقل بين أماكن واقعية موجودة بالفعل، وهو دائما يكتشف الجديد لدى المغاربة سواء في تقاليدهم أم في سلوكياتهم، فإذا كانت مستمدة من حياتهم ومن شخصياتهم العربية المتميّزة؛ فإنّها ضاربة بجذورها في حضارتهم التي هي عنوان وجودهم.

كما استطاع أن يعطي القارئ الجزائري فكرة واضحة ومصغرة عن الأحوال العامة للمجتمع المغربي الشقيق، وهذا ما يجعله يقارن ذلك المجتمع

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص224

المغربي بالمجتمع الجزائري، لينتهي إلى نتيجة تتمثل في فرق ما بين المجتمعين، وهذا ما يدعو القارئ للتساؤل والاستفهام.

و غادر الرباط إلى الدار البيضاء رفقة صديقه الجزائري يوم 13 أوت 1973م وفي طريقه بهرتته المدينة وسلبت لبته، فراح يذكر أحياءها وشوارعها وكان أول حي وقف عنده هو حي درب السلطان، وهو حي مليء بالمكتبات من أعلى طراز، ثم يشرع في وصف الدار البيضاء فيتحدث عن طبيعتها وتقدم عمراتها، بل إنه من إعجابه وانبهاره بها وبالتقدم الحضاري والثقافي الذي وجدته بها؛ شبهها بمدينة نيويورك وباريس «الدار البيضاء مدينة تجارية بكل معنى الكلمة، ففيها الشركات والبنوك المغربية والأجنبية، وتتمتع بساحات حديثة وشوارع فسيحة، تتخللها الأشجار والحدائق والفوارات، ويحس المرء في هذه المدينة أنه في نيويورك أو باريس»¹، فهي إذن مدينة كثيرة المتاجر تزخر بالسلع المتنوعة ومنازلها ذات طابع معماري جميل، وهذا ما بعث في نفسه الراحة والرضا.

و حين حط رحاله قرب المحيط؛ لفت نظره كثرة السائحين، وإقبال الناس عليه، والذي كان عددهم يفوق «خلية النحل أو الطيور المهاجرة، وكان الأرض صغرت وتجمع سكانها في شاطئ الرمال الذهبية»²، ثم يفصل في وصف المحيط في أسلوب يعكس فيه إحساسه بجمال الطبيعة، فقد ظهرت مياه المحيط تغمرها حمرة الشفق وصفحة وادي بورقراق تضيئها أشعة المصابيح والقمر وعلى بعد رأينا القطار كأنه خيط من الضوء يتحرك وسط الظلام الذي بدا يلف

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 222.

² - المصدر نفسه ص 223.

الأفق البعيد، هكذا بدت لي الطبيعة وأنا واقف أمام المحيط¹، هذا ويبقى الإحساس المرهف للرحالة والشعراء أحد التقاطعات المهمة التي تقيّد في فهم أسلوب التّدوق الجمالي للمكان، ولعلّ أدب الرحلة من أغنى المحاولات للحديث عن المكان الطبيعي في الأدب العربي.²

و ما يزيد المكان جمالا في هذه الرحلة هو واقعيته؛ لأنّ الاعتماد على الواقع يجعل المتلقي يشارك في العمل، ويتحرك في الأماكن التي يمر عليها من خلال عملية القراءة؛ حتى يتعلّق بالرحلة ويُسائر أحداثها.

عمد أبو القاسم سعد الله في مراحل سرده إلى إتباع تقنية الوصف الدقيق بتفاصيله للمكان الذي يراه، فقد وصف وسط مدينة الدار البيضاء وضواحيها وصفا أدبيا شيّقاً؛ اطلعنا من خلاله على روعة المكان وبراعة التصوير فجمالية المكان لا تنحصر فقط بتحديد أبعاده الهندسية وجماله الطبيعي، وإنما تتجسد قبل ذلك بتفاعل الرحالة معها وبالكيفية التي سيسير عليها.

ثم انتقل للحديث عن منزل آل الصائغ الذي كان عبارة عن مغني (فيلا) من طابقين «وفي القاعة حشايا جلدية ناعمة، وقد زينت الجدران بالزليج الملون المشكل بمختلف الأشكال الهندسية، وفيها أجزاء منقوشة مغربية أندلسية، وقد علّقت ثرايا جميلة كبيرة وسط القاعة، وفي طرفي القاعة حشايا من نوع ولون آخر، وعلى الجدران علقت بعض صور الأسرة»³، فكان هذا البيت مثل التحفة الفنية من خلال زخرفته الفنية التي تلفت نظر الزائر، فالرحالة هنا يحاول التقرب

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 227.

² - ينظر: كنده طباع: المكان في أدب الرحلة دراسة في المعاني وأساليب التصوير النصي، مجلة لورناد للفن والعمارة بلندن المملكة المتحدة العدد السابع، 23 يناير 2012م، ص 2.

³ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مرجع سابق)، ص 223.

من ذهن المتلقي فيعمد إلى وصف هذا البيت وصفا دقيقا، وهذا ما يجعله يخرج بصورة تامة عن بيت الصايغ وينتقل معه ذهنيا إلى كل الأمكنة التي وقف عندها، وهنا استطاع الكاتب أن يجعل من المكان المصدر الذي لا ينضب بالدلالات المختلفة؛ لأنه من خلال التعمق في حيثيات المكان نتعرف على جوانب كثيرة ومهمّة من حياة المجتمع وأهل المنطقة التاريخية والثقافية والسياسية... الخ.

إنّ ما يميّز هذا الفن هو القدرة الإبداعية على المزاجية بين لغة الشّعْر ولغة السرد، وهذا ما يؤكد سمو ذوق الكاتب وبراعته في التصوير، وجودة قريحته البلاغية اللغوية، فالرحالة ليس إنسانا عاديا بل هو ذو قوة نفسية كبيرة وطاقات حضارية وعلمية عالية، كل ذلك يعطيه قدرة خاصة لمخالطة الأمم والثقافات ثمّ نقلها- أي الثقافات- إلى الآخر، وتحريك مشاعره فيسافر مع النصّ الرحلي مقتفيا حيثياته، إذ النفس تواقّة لمعرفة ما رآه الرحالة وما عاناه واحتكّ به.

إنّ أبا القاسم سعد الله وهو يعدد خصائص المدن التي مرّ بها؛ كان يستحضر إلى جانب ذلك الحقائق والأنهار والوديان، ونظافة المدن وزخرفتها فتشترك بذلك المناظر الطبيعية في رسم لوحات حسية ناطقة؛ لخلق نوع من الإثارة وفسح المجال للخيال التصويري، فلما زار الودادية وساحتها الكبيرة اهتزت روحه واضطربت لجمالها الفني، وأعجب بما فيها من مبان وزخرفة، ومن ذلك قوله: «ودخلنا من باب في هذا السور فوجدنا أنفسنا داخل حديقة غناء فيها من كل لون زهرة، وفيها صنّاع تقليديون يزينون الخشب بشتى التزاويق ويتفنّون في ذلك غاية التفنن، وكانت بعض أبواب الحديقة عليها رسوم هندسية ملونة تأخذ الطابع العربي الإسلامي، وهناك أيضا مقهى سياحي يجلس فيه بعض السواح على الدكّات المغطّات بالحصير، يتناولون الشاي الأحمر بالنعناع ويطل

المقهى على المحيط ووادي بورقراق الهادئ الوديعة»¹، فالكاتب هنا كان يهدف بموقفه هذا الحكيم المتبصر إلى التنويه بهذه البلدة والإشادة بأفضاليتها، فقد قدّم وصفاً دقيقاً منبهاً بذلك إلى أهمية المغرب ومكانته، وتعتبر المادة التي قدمها على جانب كبير من الأهمية لأنها عرفت بأماكن جغرافية كثيرة في المغرب، فأبو القاسم سعد الله لم يكن رحالة دقيق الملاحظة فحسب؛ بل كان إلى جانب ذلك عالماً موسوعياً متمكناً.

وإذا انتقلنا إلى الرحلة الحجازية؛ نجدها تختلف عن رحلته المغربية من حيث الاستعداد الروحي لها، فيصف أماكنها وصفاً مطعماً بأشواق الروح والتي بدت بظلالها الدينية خفاقة في نفس الرحّالة تتوق إلى رؤية الأماكن المقدسة» فالسفر إلى الجزيرة العربية ليس كالسفر إلى أي جهة أخرى، فإنك بالنسبة إلى الجزيرة العربية تستعد قبل كل شيء استعداداً روحياً مهماً كان غرضك المادي»²، فهي رحلة الراحة والأمان على الأرواح والأموال، ولهذا وقف وقفة متأنية عند كثير من وجوه الحياة العامة في البلاد العربية: «ولاغرو في ذلك فإن البقاع المقدسة حريّةً بذلك وأكثر، وحسبك من ذلك أن قصة الحضارة الإسلامية قد سطعت أنوارها مع انبثاق فجر الدعوة الإسلامية من فوق أراضيها الطاهرة، وترعرعت في صحاريها ووهادها وجبالها أمجاد التاريخ وتالألأ من بين جدران غار حراء ضياء الوحي الإلهي بجوار البيت الحرام بمكة المكرمة»³، ومما لاشكّ فيه أنّ علاقة الرحّالة بهذا المكان ستكون علاقة حميمة تتجلى من خلالها الفرحة والسعادة وروح الاطمئنان والخشوع، فإذا كان المكان هو الفسحة التي تحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والآخر؛ فإنّ هذا المكان يصبح فيه الرحّالة

¹- أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 228.

²- ينظر: المصدر نفسه، ص 235.

³- باعزیز بن عمر رحلتي إلى البقاع المقدسة، وزارة الثقافة، ط2، الجزائر 2007م، ص 17.

قاب قوسين أو أدنى من أداء الشعائر الدينية وتحقيق الهدف، فلم يعد بقعة مادية فحسب بل هو تركيز عاطفي وامتداد للخيال ومنهل للذاكرة.

«كما لهذا البلد قيمة دينية وتاريخية لما يشتمل عليه من أماكن مقدسة يقصدها كل العالم بأسره ليعاينوا محل ظهور الإسلام وأماكن غزوات الرسول وأصحابه ضد المشركين»¹، فهي رحلة خير وبركة على من وفقه الله إليها، فمن خيراتها أنها مشروع روي عند العلماء يدونون فيها مروياتهم ويسجلون فيها ملاقاتهم، ويذكرون فيها اختياراتهم العلمية في أبواب العلم المختلفة.

ومع أن التعب كان قد أنهك سعد الله ورفقائه من طول الرحلة ومن المداخلات وترأس الجلسات؛ إلا أنهم أبوا إلا أن يزوروا الحرمين الشريفين وذهبوا مسرعين لتلبية نداء الله فأحرموا ونسوا ما كان بهم من تعب، وهذا من روعة المنظر والشوق إلى رؤية قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهي لحظات مميزة من الاعتراف بسحر التجربة وسيطرتها على الذات فتفجر بحالات من الحنين وتفيض أحاسيس الرحالة المسلم حين وصوله إلى هذا المكان المقدس بل يحاول إشراك القارئ في هذه الأجواء الروحانية التي عاشها هو نفسه.

وتذكرنا هذه الصورة برحلة الورتلاني لما زار مكة فيقول: «فدخلنا مكة فلم تغادر في النفس ترحة، وأزالت عن الجفون كل فرحة، فدخلناها في زحمة عظيمة كادت النفوس أن تزهق فيها، غير أن فرحتنا بالوصول إليها خفف بعض الألم بل قد زال التعب، بل الأرواح قد تجلى عليها ربها فخرت صاعقة مغشياً عليها فلم تكثرث لما أصابها من الهم والمشقة فلما هب عليها نسيم جوار الحبيب أيقظها وأشهدها رسوم مكان الوصال... فدخلنا المسجد من باب بني شيبه فأفاض

¹ - سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، (مرجع سابق)، ص 159.

الله علينا من جوده كرم وهيبه، فظفرنا بالأمن والأمان والسلام من باب السلام»¹.

ولهذا لم يخرج رحالتنا من نهج أسلافه، فنوّه واحتفى ببلاد الحجاز ووصفها وصفا مرسلا رائعاً وشاملاً لجميع المجالات، وبالأخص الطبيعة والمنشآت العمرانية، فتكلم عن المرافق العامة فيها حيث توجد حول الحرم محلات كثيرة بعض مالكيها من غير العرب، وتجول في أحياء مكة وأسواقها منها رواق المغاربة وسوق أبي سفيان وغيرها.

وكما نوه بما رآه من معالم حضارية في رحلته المغربية؛ كذلك نجد في هذه الرحلة يشيّد بالمجهودات الجبّارة التي تبذلها السلطات السعودية في خدمة ضيوف الرحمن في كل حي من أحياء مكة المكرمة، وذلك حين يقول: «ويلاحظ المرء نهضة عمرانية ضخمة؛ سواء كنت في الرياض أو جدة أو مكة المكرمة أو المدينة تجد المشاريع الكبيرة وتعبيد الطرقات وتشجيرها وإقامة الحدائق والساحات وتجديد الأحياء القديمة، وتوسيع الحرمين وتكبير المطارات والمراسي وخاصة ميناء جدة²»، وجميع أماكن الشعائر الدينية مما يساعد الحجاج على أداء المناسك على أتم وجه وأكمل أريحية .

وإذا كانت الرحلة المغربية علمية محضّة، فإنّ الرحلة الحجازية علميّة وثقافيّة وسياحيّة لذا؛ نجده يشير إلى كل ما له علاقة بالعلم والثّقافة بداية من تفصيله لتوزيع المؤتمرات، فأشاد بالتنظيم المحكم وبخصال السعوديين وما يتحلّون به من أخلاق فاضلة وشيم عالية، وبذل سخي في سبيل نهضة وطنهم، والتفاؤل بمستقبل بلادهم، وأبدى إعجابه بجامعاتهم ومنها جامعة الرياض التي

¹ - ينظر: الحسين بن محمد الورتلاني: الرحلة الورتلانية، (مصدر سابق) 452/2.

² - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب ولرحلة، (مصدر سابق) ، ص 235

تمتاز بمطبعة خاصة وجامعة محمد بن سعود الإسلامية، وتضم الجامعات أحدث المكتبات والمخابر والأدوات والمطابع، كما أشاد بتوفر مظاهر الحضارة والتمدن الثقافي والعلمي.

ثم عرج بعد هذه الجلسات إلى وصف الحفلة التي أقامها مدير الجامعة ووصف المكان الذي أنزلهم فيه والاحتفال الذي استقبلهم به، ليدل بهذا على أن مظاهر الرئاسة كامنة في المدير، وذكر أشكالاً من العادات والتقاليد الثقافية وتحدثت عن كل ذلك حديثاً مختصراً، ثم ذهبوا إلى المعرض الذي افتتحه مدير الجامعة بكلية الأدب: «وهو معرض يضم آثاراً عثرت عليها هيئة أثرية برئاسة عبد الرحمن الأنصاري، واحتوى على أشياء ثمينة تعود إلى عهود ما قبل الإسلام»¹.

كما أطلعنا في أفق الرحلة المغربية بحرية الحركة؛ فالكاتب ينتقل من مكان إلى آخر بدون قيود أو حدود ومن مظاهر الحرية جل مرآه من جماليات طبيعية في لوحات رائعة ممتلئة بالبهجة والإشراق، لكنه في هاته الرحلة كان مقيداً بالزمان والمكان وفي حدود ما سمحت لهم به اللجنة.

وعلى جانبي الطريق تختلط الرمال بأحجار الجبال والكدي؛ فتذكر المرء بأجزاء كثيرة من الصحراء الجزائرية وطبيعتها، كما شاهد الشوارع الواسعة والأشجار الباسقة، وعلى العموم تعرض سعد الله إلى الحديث عن الأحياء والشوارع وجانب من الإصلاحات التي شهدتها العربية السعودية، كما أجمل حديثاً عن نهضة السعودية وتقدمها في مجالات كثيرة أبرزها مجال التعليم.

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 244

فهي بلاد العلم بالدرجة الأولى، رحل إليها الكثير من الرّحالة من أجل طلب العلم «فقد كانت المقصد الأول للرّحالة الجزائريين، فقد أدرك هؤلاء قدسية أرض الحجاز وعلّموا خيرات التوجه إليها، فهي باب علم يدوّن عبرها الحجاج الحكماء مرويا تهم وملاقاتهم بالعلماء»¹.

ويمثل عنصر التواصل العلمي الوجهة الأكثر إثارة في أعمال الرّحلات الحجازية، فشارك فيها جميعا دون استثناء مع اعتبار نسبة التفاوت بينها، حيث تتيح هذه الرّحلة التواصل العلمي بين المجتمعات وخاصة الأماكن التي تمتد فيها إقامة الحجاج الراحلين، فيكون فيها متسع من الوقت للتعرف على نشاط أهلها الاجتماعي والعلمي، ويكون لأهل هذه المناطق أيضا معرفة من بركب الحجاج من الشخصيات التي تستحق التعرف إليها والاستفادة منها، إما في وضعها العلمي المتميز، وإما لصلاحها فيتبرك بها ويغتنم دعاءها.²

ولعلّ أبرز الأماكن التي اختصّها سعد الله في الرّحلة المغربية بتصور فني رائع هو القصر الملكي وما يمتاز به من حدائق غناء، وهو ما ينطبق على رحلة الجزيرة حيث وصف مشاهداته في منطقة الدرعية، وفي الطريق إليها مررنا بعدة قصور ملكية وأميرية حول الرياض، ومشاريع عمرانية حديثة والدرعية القديمة عبارة عن خرائب لمباني استراتيجيه، وهي تقع على وادي بوحنيفة وحولها النخيل والأشجار وبعض الكدى، وهي تذكر ببعض مدن الصحراء الجزائرية كبسكرة وبوسعادة وغيرها، وما زالت هذه الخرائب وهي عبارة عن قصور وقلاع ومباني ومقاصير وأبواب خشبية مزخرفة وأشكال هندسية؛ جديرة بالدرس والمحافظة لأنه من ثراث الجزيرة العربية³. «والملاحظ هنا أن

¹ - زهوري وليد: أدب الرحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة دراسة وصفية تحليلية مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، العدد الأول 2012م، ص 2.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 155.

³ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 244.

وصفه الجغرافي لا يقوم على نقل ما هو في الواقع؛ بل على معرفة واكتشاف ما هو أبعد من ذلك هي علاقات المسلمين فيما بينهم التي أساسها التشابه الطبيعي، وعليه فالعلاقات بين المسلمين كانت محل حديثه في هذه الرحلة وذلك من خلال احتكاكه بالمحيط الاجتماعي السعودي.¹ كما زار رفقة الوفد المتحف الوطني بالرياض «فهو على صغر حجمه تحفة من حيث التنظيم والتنسيق وطريقة العرض».

وإذا كان الرحالة في رحلته المغربية يتنقل في أكثر الأوقات بمفرده؛ فإننا نجد في هذه الرحلة يتجول رفقة بعض الزملاء المشاركين في الندوة، ومن ذلك خروجه إلى مكتبة جامعة الرياض التي أبهرته بتقدمها التكنولوجي ونالت إعجابه والمكتبة الحالية من أحدث طراز، وفيها جهاز ذاتي لإطفاء الحريق وتضم قسمين قسم المطبوعات وقسم المخطوطات، وذكر رغبته في زيارة جناح المخطوطات «وكننت أرغب في زيارة القسم الثاني لكن الوقت لم يسمح لي...وقيل لنا إن المكتبة حديثة العهد وتضم أربعين ألف كتاب مطبوع، وبين أربعة آلاف وخمسة آلاف مخطوط، وفيها أقسام متخصصة للفهرسة والتبادل والشراء ولها إدارة حازمة»². فهذه البراعة في أسلوب النقل تجعله بحق رائدا ريّادة أدبية شاملة بامتياز، كما أنه مؤرخ ومرجع مهم في تاريخ الجزائر.

فهذا الوصف المستقصي دال على ذات علمية متميزة بالذكاء والحكمة والفظانة في نقل صورة القوة، والتقدم الذي رآه في المملكة إلى ذهن القارئ

¹ عبد السلام ضيف: الكتابة الأدبية عند أبي القاسم سعد الله، مذكرة دكتوراه في الأدب الحديث جامعة الحاج لخضر باتنة 2005/2004م، ص 224

² أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 246.

الفصل الثاني: الجماليات الفنية والمضامين الثقافية في رحلات سعد الله دراسة مقارنة

وتشييده بهذه المكتبة التي تحتفظ بنفائس العلوم والمؤلفات المطبوعة والمخطوطة.

وإذا كان وصفه لمساجد المغرب وصفا يقف على مشاعر الإعجاب غير أن وصفه لأماكن الجزيرة العربية، تداخلت فيه المشاعر واختلطت فيه الأحاسيس إلى أن يصل إلى المدينة المنورة والتي لم يصدق أنه يسير على أرضها من شدة فرحته بالولوج إليها، وخاصة لما زار الحرم النبوي وقبره صلى الله عليه وسلم وهذا لما يقول: «ولا أستطيع في هذه العجالة أن أصف المشاعر التي غمرتني وأنا أشاهد المسجد من بعيد وأنا بداخله، وكذلك عندما كنت أقف على الضريح الطاهر»¹، «فالنظر إلى وجوه الأولياء والصلحاء عبادة، وفيه أيضا حركة بالرغبة للاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وآدابهم»²، فالمكان هنا ليس ككل الأمكنة إذ لم يعد يستمد قيمته من كونه مجالا تقع فيه الأحداث فحسب؛ وإنما بماله من قيمة جمالية ذات أبعاد دلالية دينية مرتبطة بتاريخ الأمة الإسلامية.

فالرحلة الحجازية تسجل ما ينتاب الرحالة من شوق وحنين إلى البقاع المقدسة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وما يحمله الزائر من مشاعر تجاه المعالم الدينية التاريخية.³

والحديث عن هذه الأمكنة يكاد يكون متشابها بين مختلف الرحلات الحجازية، وهذا ما يجعل الرحلة عملا ثابتا لا يتغير، تشترك فيه أعمال جميع الرحّلات، وتحتفظ في الأغلب على اختلافها برصد آثار المواجهة

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 249.

² - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، كتاب السفر، (مصدر سابق)، 743/2.

³ - ينظر: زوهري وليد: أدب الرحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة، (مرجع سابق)، ص 152.

الأولى عند الحاج، وما تحدثه من انفعال في نفسه، وهو يشاهد المعالم الدينية أول مرة في واقعتها، بعد أن ظل وجودها لديه ذهنياً، فيحدث له من الأثر ما يحول الموقف إلى موقف خشوع وتبتل وعبادة، ورهبة وسكينة، ويفجر له من الأحاسيس والانفعال ما تعكسه تلك الآداب والأعمال الشعرية التي ينشدها تعبيراً عن الفرحة وعن هذا الموطن يقول المقرئ: «ومنذ شممنا من أرح تلك الأرجاء الذاكية، واستضأنا بسرُّج تلك الأضواء الزاكية، ظهر من الشوق ما كان بطن، ولم يخطر ببالنا مسكن ولا وطن، ويا سعادة من أقام بتلك البقاع الشريفة وقطن»¹

وهذا ما يجعلنا ندرك أن جمالية المكان تحيل على بنية ثقافية رائعة تبرز تعامل الكاتب مع العنصر المكاني، وجوانب رؤيته له والأهداف المتوخاة من ذلك، فمنذ البداية يحاول أن يزرع فينا عواطف الشوق والحنين والانجذاب إلى المكان، وغالباً ما يسعى الكاتب في نصه الرحلي إلى ذلك و فعلاً نجح في تحقيق هذا الهدف، إذ إن هذا الوصف ولد فينا قرب المكان نفسياً وروحياً وإن كان المكان بعيداً منا جغرافياً.

ومن خلال جرأته المعهودة التي تتم عن وعيه وإدراكه لهدفه العلمي نجده يعقب على النائحين على قبر الرسول والذين كانوا يفعلون شيئاً من الجاهلية، فكان لابد عليهم فهم الدين ومعرفة طريقة حب النبي صلى الله عليه وسلم «فالمرء يشاهد هناك أموراً مبالغاً فيها ليست من الدين في شيء، وهي بلا شك نتيجة الجهل الذي خيم على أجيال من المسلمين، فأنت ترى الباكين والنائحين والمقبلين للحجر والحديد والداعين غير الله، وتسمع قراءات منكرة لآيات من القرآن الكريم والأحاديث وكانت الشرطة تنهى عن

¹ - أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1995م، 48/1.

فعل بعض الأمور ولكن بلا جدوى، لأن التربية الحقيقية في نظري تعود إلى موطن المسلم الأصلي»¹.

فهذه التصرفات ينبغي أن يسمو عنها سلوك المسلم، وخاصة في هذه الأماكن الطاهرة فمثل هذه السلوكيات قد تؤدي بصاحبها إلى الشرك بالله والعياذ بالله: «وإن المتأمل فيما يصطدم به الإنسان في تلك الأرض الطاهرة من هاتيك المظاهر المشينة؛ يدرك أنّ أصحابها إنما أتوا بها من بلدانهم التي جاؤوا منها وذلك بسبب النقص في العناية اللازمة بتكوين الحجاج وحسن إعدادهم في بلدانهم، بما يمكنهم من السمو بسلوكهم إلى مقام هذه الرحلة الميمونة»².

ولكن الآن تغيرت الظروف وعرفت تحسنا ملحوظا وارتقى المسلمون عن هذه التصرفات الخارجة عن الدين، وخاصة مع وجود البعثات المرافقة لهم المكافئة برعايتهم وتوجيههم فقد تحسنت الظروف العامة، المتصلة بأداء المناسك في جميع أماكنها وأصبحت البعثات خير رفيق بالبيت العتيق، «فمن واجب المسلمين في كل زمان أن يفهموا دينهم ويعرفوا حكمة فرائضهم وعقائدهم فليس من الإيمان الصحيح أن يحال الفهم على من سلف وينقاد الخلق كله لغير ما عرف، ولا يكتمل إيمان مسلم بغير الفهم والاجتهاد في كل مواطن من العالم وفي كل حقبة من الزمن»³، «كما يجب على العلماء أن يسعوا في بيان الشريعة وبث تعاليمها في صدور الناس، وأن يسألوا عن ذلك والمسائل الدينية يجب على العالم تعليمها ولو بدون سؤال بخلاف غيرها فلا يطالب بتعليمها إلا عند السؤال»⁴.

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 249.

² - باعزیز عمر: رحلتي إلى البقاع المقدسة، (مرجع سابق)، ص 18

³ - عباس محمود العقاد: الرحالة عبد الرحمن الكواكبي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مطبوعات المجلس الأعلى 1959م، ص 116.

⁴ - محمد صالح الجابري: رحلات جزائرية دار الغرب الإسلامي، ط1 الجزائر، 2001م، ص 45

ولعل الهدف الأسمى من زيارته للمغرب هو زيارة كبريات المكتبات التي تشتمل على نفائس الكتب، أمّا الهدف من زيارة الحرمين الشريفين ففيه ازدواجية و هو التعرف على الأماكن الأثرية كأماكن الغزوات ومساكن الصّحابة والمساجد التاريخية من جهة، وزيارة المكتبات من جهة أخرى «ولتحقيق الأول اكرتينا أنا وبعض المغاربة والتونسيين بعد صلاة الصبح سيارة حملتنا في جولة إلى مكان غزوة الأحزاب وموضع سيدنا حمزة مسجد بنات النجار ومسجد قبا»¹.

وكما اهتم بالمكتبات في رحلته المغربية؛ فكذلك كان لها حظ من وقته في هاته الرّحلة فتمكّن من دخول مكتبة الأوقاف التي تقع قرب الحرم المدني، وهذا الاهتمام الزائد بارتياح المكتبات؛ يدل بصدق على المرجعية الثقافيّة له وتسجيلها في هذه الرّحلة، حتى تكون وثيقة تاريخية يستند إليها من زار المكان. ثم شرع في وصف الأماكن المجاورة للحرم المدني وصفا موجزا لأسواقها ومواصلاتها ويُسّر الحياة فيها وأخلاق أهلها التي أعجب بها فمدحهم في طبائعهم فوصفهم بالأدب والاحترام في المعاملة، يقول في ذلك: «وأهل المدينة مؤدبون جدا في معاملاتهم، وكان الأستاذ السعودي الذي يرافقنا خلال إقامتنا بالمدينة من أطيب خلق الله خلقا لطيف المعشر ومتواضعا»².

فهذا الموقف يعكس لنا القيم الخلقية والخصوصيات الثقافيّة والأصول الدينية ومبلغ ما وصل إليه الشعب السعودي من حسن المعاملة وصلاح الحال وصفاء السريرة، وهذا ما سرّ به رحالتنا.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص249.

² - المصدر نفسه ، ص250.

ولما انتهى من الندوة عرّج إلى مكة المكرمة فتركزت اهتماماته أيضا على زيارة الأماكن والمعالم الدينية والتاريخية، بل إنه من شدة شوقه إلى رؤية الكعبة المشرفة وما جاورها نسي التعب وشدة الجوع والعطش، فكان حريصا على تصوير بعض خلجات نفسه وخواطر وجدانه فبين زهده في الطعام وأخذته في ذلك المكان رقة وسكن في أعماقه الاعتبار، وأظهر كل ذلك في تصوير أدبي رفيع حين قال: «ثمّ قادنا المطوف إلى الحرم لأداء العمرة... وكان الجو رطبا والنفس مشوقة رغم الحاجة إلى النوم والطعام، ومع ذلك فإنّ شعور المرء بأنّه يمشي على الأرض التي ولد فيها الرسول، ونزل فيها الوحي وانهزم فيها الكفر، وانتصب فيها مقام إبراهيم؛ جعل كل تعب يهون وكل حاجة دنيوية تتضاءل وكان المطوف خبيرا بأداء الشعائر فصيح اللسان ويبدو أنّه متمرس أيضا على الطواف بالوفود الرسمية»¹.

وكان حريصا على متابعة المشاهد، ولدقته الكبيرة في الملاحظة لفت انتباهه أقوال بعض زملائه وهم يطوفون بأرجاء البيت الحرام فتذمر لذلك وعقب على أقوالهم إذ يقول: «ذلك أننا سمعنا بعض المطوفين الآخرين يقرؤون قراءة مكسرة، وقد كان معنا بعض الجهلة باللغة العربية من الوفود العربية فكانوا يرددون الخطأ ويزيدونه لحنا من عندهم»². ولا غرو أن الذي يتصدى لنقد الشعر والنثر لابد أن يكون له حظ وافر من الثقافة والذوق الفني، فقد قرض الشعر وأبدع فيه، ودرس نصوصا تعددت من حيث الأنواع الأدبية عند أكثر من شاعر وأديب وكاتب مسرحي ورحالة، وأجاد فيها النقد.

وصف الكاتب مكة وصفا أدبيا شيقا أطلعنا من خلاله على روعة التصوير في فنّ الرحلة، بل إنّ كل من زار البلد الحرام تتوق نفسه إلى تسجيل ما يراه وما يصادفه من أنماط اجتماعية وظواهر طبيعية، مما يؤدي ببعضهم في الأخير إلى تدوينها في رحلة

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) ص 251.

² - المصدر نفسه، ص 251.

أدبية ذات صورة أدبية رائعة وأسلوب شيق، «ومن ذا الذي يستغني من أولي الأبصار عن معرفة أسماء الأماكن وتصحيحها وضبط أصقاعها وتنقيعها، والناس في الافتقار إلى علمها سواسية وسر دورانها على الألسن في المحافل علانية، لأنّ من هذه الأماكن هي مواقيت للحجاج والزائرين ومعالم الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ومشاهد للأولياء والصالحين ومواطن سرايا سيد المرسلين»¹. ولهذا نجد الرحالة العبدري (ت700هـ/1300م) يصف مكة والأثر الذي تركته في نفسه الكعبة المشرفة فيقول: «إن مكة -شرفها الله- من عظيم آيات الله في الأرض الدالة على عظيم قدرته فإنها بلد يسبي عقول الخلق، ويستولي على قلوبهم ويتملك رقها من غير سبب ظاهر فالنفوس إليه نزاعة من كل أرض، ولا يدخله أحد إلا أخذ بمجامع قلبه، مع عدم الدواعي إلى ذلك، ولا يفارقه إلا وإليه حنين، ولو أقام به على الضنك سنين لا يمل سكناه»²

مكث الكاتب في مكة خمسة أيام، يومان في الفندق من أجل إتمام الندوة وثلاثة أيام عند أخيه البشير سعد الله، وكما ذكرنا أن هاته الرحلة علمية ودينية سياحية ولهذا نجد الكاتب يكرر ما فعله في المدينة في مكة: «كما في المدينة عكفت على تحقيق أمرين الأول إشباع فضولي الديني والثاني إشباع نهمي العلمي، وقد حثنا الإسلام على السير في الأرض وجعل طلبه عبادة قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾³ ونقول الحكمة «اطلبوا العلم ولو في الصين».

فكان هدف الإسلام من كل هذا دعوة الناس إلى السير في الأرض والتسلح بالنظر الدقيق والرؤية الموضوعية للأشياء واستخلاص العبر والدروس، كالتفكير في خلق

¹ - شهاب الدين أبو عبد الله الرومي ياقوت الحموي البغدادي: معجم البلدان، دار صادر بيروت 1397هـ/1977م، 1/03.

² - أبو عبد الله محمد بن علي العبدري: رحلة العبدري، حققها وقدم لها علي إبراهيم الكردي، وشاكر الفحام، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط2 دمشق، 2005م، ص326.

³ - سورة آل عمران الآية137.

السموات والأرض وتحصيل الخير الديني والثواب الأخروي، وكذا تصحيح العقيدة والبحث عن السند الصحيح.

كما لا يخفى علينا أنّ مسألة التفقه في الدين يليها كل علم يعد في وسائل الرّسوخ كالنحو والبلاغة وما من شأنه أن يضيف معارف جديدة لابدّ منها في طلب العلم اكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ، ولا يتأتى ذلك إلا بالصبر على الصعاب والفراق والأمانة في العلم وإنصافاً للبلاد التي ينزل فيها¹.

وحتى يحقق الهدف الديني؛ جاور الحرم فكان لا يخرج إلا للضرورة، في حين حقق الهدف الثاني بزيارته لمكتبة الحرم المكي «والثانية تقع فيما يعتقد أنه مسقط رسول الله صلى الله عليه وسلم في بطن جبل أبي قبيس ومنبت بيوت أبي هاشم، وفي الأولى تعرفت على مديرها ومساعدته ووجدت منهم كل المساعدة والتفهم والاستعداد العلمي، فوجدت فيها أخباراً علمية كثيرة على كتابي تاريخ الجزائر الثقافي»².

ولهذا تعلق أبو القاسم بهذا المكان ولم يكن يخرج إلا لحاجة ماسة، ولاغرو في ذلك فطبيعة المكان تجعل زائره ينجذب نحوه ولا يستطيع فراقه «فالمكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكاناً لا مبالياً ذا أبعاد هندسية فحسب فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل كل ما في الخيال من تحيز إننا نجذب نحوه، لأنه يكتف الوجود في حدود تتسم بالحماية»³، وبهذا كانت أغراض رحلته متنوعة في اتجاهاتها؛ فكان بعضها يتعلق بالموضوعات الدينية الثقافية، وبعضها نحا منحى علمياً ثقافياً، وفي كل الحالات كان تركيزه على الموضوعات الثقافية، ولكن في مقابل ذلك لم يستغن عن الوصف الجغرافي.

¹ - شهاب الدين أبو عبد الله الرومي ياقوت الحموي البغدادي: معجم البلدان، ص 27.

² أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 252.

³ غاستونيشلار: جماليات المكان، (مرجع سابق)، ص 31.

و كما تعرّض سعد الله إلى الحديث عن بعض الأحياء والشوارع المغربية وأعجب بأسمائها المكتوبة بالعربية، كذلك أشاد ببعض شوارع المملكة السعودية فذكر بعض الأحياء الإفريقية والمغربية للبلاد الحرام، ومن هذه الأحياء:

حي بورنو الذي يمتلئ بالزنوج.

رواق المغاربة الذي قيل إنّه حبس عليهم منذ عهد سيدنا عثمان.

وسفح جبل أبي قبيس الذي قال عنه صاحب البلدان: «ومكة بين جبال عظام، وهي أودية ذات شعاب فجالها المحيطة بها أبو قبيس الجبل الأعظم منه تشرق الشمس على المسجد الحرام»،¹ وهو: «الجبل المشرف على الصفا سمي برجل من مدحج كان يكنى بأبي قبيس لأنه أول من بنى فيه»².

كما أجمل حديثه عن نهضة السعودية وتقدّمها في جميع المجالات وذكر الجهود العلمية الجادة والمخلصة لرجال العلم والفكر والمحيط الثقافي الجامعي الجيد، ثم تحدّث عن مدينة الرياض التي أبهرته ونالت إعجابه لدرجة أنّه شبهها ببعض عواصم العالم المتقدم، وأخذ عنها انطبعا إيجابيا فتحدّث عن عادات أهلها وشوارعها وجوّها، وجوانب من تاريخها وتجاريتها وطبيعتها: «فهي مدينة شاسعة تأخذ موقعا جذابا جميلا تتخللها الشوارع الواسعة الطويلة، الأشجار الباسقة التي لولاها لكان للشمس ضحايا كثيرون، كما يشاهد فيها المرء المباني الحكومية الفخمة ذات الطراز المحلي الواقعي من حرارة الشمس والعمارات الشاهقة والفنادق التي تنسيك أحيانا أنك في صحراء نجد، وتجعلك تحس أنك في أعظم عواصم العالم الحديثة»³.

¹ - أحمد أبي يعقوب إسحاق بن جعفر: البلدان دار الكتب العلمية بيروت، ط1 لبنان 1422هـ/2002م، ص153.

² - الزمخشري جار الله محمود بن عمر الخوارزمي: الجبال والأمكنة والمياه، تحقيق أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، ص27.

³ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص245.

وبعدما كانت الساعة المحددة للطيران وركبوا الطائرة السعودية وقد صعدت في سماء جدة وحومت فوق الميناء؛ كان سعد الله يحن إلى مهبط الوحي تارة بينما كانت مراتع الأهل والخلان تتاديه تارة أخرى، ثم تذكر والطائرة تفارق أرض الجزيرة العربية مقالة أحد السعوديين: "عندما ذكرني بما كان الخليفة عمر يقوله بعد أداء فريضة الحج وهو يا أهل الشام شامكم ويا أهل المغرب مغربكم، وتساءلت ما مصلحة الإسلام إذا كان جميع المسلمين يقطنون الجزيرة العربية"¹، فتعلقت روحه بالبلد الحرام وكان يرغب في الاستمرار بها، وهي رغبة صادقة نابغة من قلب متشبع بالدين الإسلامي، لكنه تنازل في الأخير عن هاته الرغبة واستجاب لرغبة الأهل والخلان.

من خلال اطلاعنا على مضمون الرحلتين الخارجيتين نخلص إلى أن كلا الرحلتين كانت مفيدة للكاتب والقارئ، لتعدد مواضيعها فهي ليست علمية محضة ولا جغرافية محضة، بل هي عمل أدبي موسوعي يستفيد منه الجميع، وتمثل جزءاً مهماً من التراث المغربي والسعودي مع وجود اختلاف بسيط؛ وهو أنه في آخر الرحلة المغربية كان مولعا بمكان الكتب والمخطوطات والمكتبات، فكان يعرف بإنتاج بعض العلماء وينقل بعض مؤلفاتهم ويحضرها إلى الجزائر، مما قد يحرك قريحة بعضهم فيكتبون ردودا ومناقشات عليها.

غير أنه تشبث في آخر رحلة الجزيرة العربية بالبلد ككل، وهي عاطفة إنسانية صادقة نقلت ما عاشه بالفعل ونقلت صورة ما شاهده، وهي فطرة في المسلمين عامة بأن يتشبثوا بأقرب القرى، منزل الوحي وموطئ أقدام النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن مع ذلك لم يقتصر سعد الله في رحلاته على البلدان الخارجية فقط وإنما اهتم كذلك بالرحلات الداخلية بل بزيارة القرى والمدامر، وتحمل الكثير من أجل الوصول إلى

¹ - المصدر نفسه، ص255.

الهدف العلمي المنشود. والارتباط بالوطن عند أبي القاسم سعد الله حاجة ماسة فقد ينقطع عنه أو يتغرب في أوطان أخرى لكنه يحمله بداخله، كما أن الإنسان يرتبط لاشعورياً بالمكان الذي نشأ وتترعرع فيه، فيكون هذا المكان مدعاة لاستحضار الماضي والتأمل في الحاضر والمقارنة بين ما كان وما هو كائن.

2- العمران في رحلات أبي القاسم سعد الله الداخلية.

يشكل المكان جزءاً مهماً في بناء الرحلة ذلك أنه يحمل ذكرى ما لشخصية سعد الله، فحركة الشخصية من مكان إلى آخر تعني البحث عن وضع جديد فصاحب الرحلة هو الذي يتحكم في سير خطواتها لأنها تعكس آرائه وتحمل ملاحظاته.

فالمكان يساهم بكل حال في بناء واكتمال وتوازن مضمون الرحلة، لذا نجد الكاتب قد توقف في خنقة سيدي ناجي عند واد العرب العظيم الذي تحيط به الدور من جهة والنخيل وأشجار الفاكهة من جهة أخرى، يقول عن خنقة سيدي ناجي «ونظرت نظرة طائر هنا وهناك فإذا المباني الجديدة قليلة وتوسعها جغرافيا محدود»¹، ثم ذكر أن اهتمامه كان منصباً على زيارة المعالم الأثرية والمراكز العلمية لهذه المدينة التي عرفت ازدهارا علميا في القرن 18 فلم يشتغل على الجانب الاجتماعي الحضاري المصور للمساكن والمآكل؛ بل اهتمّ بالمعالم الأثرية لخنقة سيدي ناجي، وقد قال عنها الورتلاني: «الخنقة قرية مباركة طيبة ذات نخل وأشجار وسط واد بين جبلين، وقد قيل إنها تشبه مكة في وضعها وفي البركة»²، وبالرغم من قصر الرحلة إلا أننا نجد ثرية بالملاحظات والانطباعات الحية عن المراكز العلمية زار المدرسة الناصرية، ووقف على مجموعة من المساجد والزوايا غيرها.

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة (مصدر سابق)، ص 259

² - الحسين بن محمد الورتلاني: الرحلة الورتلانية، (مصدر سابق)، ص 150

ومن الأماكن التي أشار إليها الرحالة جبل ششار، وقد وصفه وصفا حسيا ووجدانيا فبعد ذكره للقري التي مرّ بها ذكر جبل ششار «وحين اقتربنا من الخنقة كاد جبل ششار يسدّ الطريق في وجوهنا حتى تساءلت أين المدينة وسط هذا المثلث الصخري الهائل»¹

وقد قيل أنها أوشكت على الخراب سنوات الثورة، إذ لم يبقَ فيها إلاّ عدد من السكان حين اتخذها الفرنسيون نقطة ارتكاز لموقعها الجغرافي، ثم إن كثيرا من أهلها - وخصوصا العائلات الميسورة والشبيبة - لم يعودوا إليها بعد الثورة وانتشروا في المدن الأخرى.²

وتحدث عن دار السيد الدريدي الذي أشاد بكرمه وجوده وبدا ذلك جليا من خلال حديثه عن استضافته لأصحاب الرحلة قائلا عنه «واستضافنا السيد الدريدي على الجوز والعسل وأحضر لنا بعض الكتب»³

فالحنين إلى المكان التاريخي هو ما قاد الكاتب للحديث والتساؤل عن ماضي هذا المكان، والرغبة في الكشف عن حقائقه وأسراره فعبّر بإحساسه المرهف عن ذاكرة المكان التاريخية والأثرية، كما يدل على أن المكان يحمل بعدا حضاريا ودينيا وثقافيا، ويكشف عن الأثر الروحي لتلك الزوايا آنذاك.

ووفقا لما جاء في الرحلة؛ رأينا أبا القاسم ينتهج أسلوب التحليل والمقارنة بين الوقت الذي كانت فيه الخنقة منارة للعلم والوقت الذي زار فيه الخنقة والتّغير الذي طرأ عليها بسبب الاستعمار الذي ذهب بكل خيرات البلاد، ومكان وجود الاستعمار الفرنسي: «هذا الفضاء المفتوح المشحون بالخوف والرعب يفقد الناس فيه طعم الحياة

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، ص 257

² - المصدر نفسه، ص 259.

³ - المصدر نفسه، ص 285.

ويصبح على رحابته سجنا كبيرا سواء كان هذا في القرى أو في المدن فحضور الاستعمار الفرنسي على امتداد النصوص حضور عنيف ومسيطر¹، مع أن الهدف الذي أراده كان واضحا من ذكر هاته المعلومات، وهو توجيه نداء للأيدي الغيورة على هذا التراث الزاخر كي ترسم السبل الكفيلة للحفاظ عليه.

وكعادته لا بد أن يذهب في كل بلد يزوره إلى المكتبات، لكنه لما سأل عنها لا سيما عن مكتبة المدرسة الناصرية سمع إجابة غير مقنعة والأمر يحتاج إلى بحث من المؤرخين الآن، وذلك حتى نعلم الحقيقة بصرف النظر عما قالوه فالأمر أيضا يحتاج إلى متخصصين، لأن الرحالة قدم معلومة تاريخية، ووثقها وأعطى دليلا عليها، فما علينا نحن إلا البحث والتقيب عنها.

ثم ذهب إلى دار أحمد زروق بلمكي من أبرز علماء الخنقة الأحياء كما ذكر ذلك عنه في الرحلة وكما سبق أن أشرنا إلى ذلك أنفا أنه اعتذر عن محادثتهم والجلوس إليهم.

وختم هذه الرحلة بالمرور بزريبة الوادي أين أدى صلاة الجمعة بمسجدها هو ورفقاؤه، فوصفه بأنه بعيد حيث اضطروا للسؤال عنه عدة مرات لأنه لا صومعة له، لكنه أخذ صورة إيجابية عنها فوصف الزريبة بالتقدم والتجدد، وذلك خلافا للخنقة التي أصبحت خرابا منسيا، وبهذا يتطابق عند رحالتنا الفكر والإبداع ويتطافر التاريخ النظري الذي يعكس لنا ثقافته الواسعة، ثم يشكر في الأخير الذين رافقوه والذين استقبلوه ثم يمتطي سفينه السفر للرجوع إلى الأهل والخلان.

¹ - وردة سلطاني: التشكيل المكاني في النص الثوري قصص زهور ونيسي أنموذجا، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية العدد أربعون 1428هـ، ص 617

أما رحلته الثانية وهي حفل في ميزاب؛ فنجد أنّ حضور المكان فيها كان حضوراً فنياً جمالياً، لما أُتيحت له فرصة حضور حفل تأبين إبراهيم بن يحيى القرادي جعل لهذا المكان رؤية خاصة، فإذا كانت الأمكنة متعدّدة في الرحلة السابقة؛ فإنّه اكتفى هنا بذكر بعضها فقط، وإذا كانت رحلته للخنقة رحلة علمية فإن هذه الرحلة علمية وإخوانية فمنذ المطار وجد في استقباله نخبة من زملائه منهم الدكتور محمد ناصر، «وقضينا المساء في منازل بعض المثقفين أيضاً جلسه هنا حول الشاي وجلسة هناك حول العشاء»¹، وانجر بهم الحديث إلى مسألة النهضة العلمية في ميزاب وعن بعض الكتب التراثية.

فبالإضافة إلى كرم الضيافة وحسن اللقاء؛ كان الجو علمياً والمناخ ثقافياً في هذه الجلسة، فلم تكن للسمراً أو للهو؛ إنما كان جواً علمياً متميزاً، وهذا ما يشد انتباه القارئ فهي مليئة بالأخبار الثقافية والأعمال الجادة التي تكشف عن عمق التمازج والتبادل العلمي بين هاتين النخبتين المثقفتين، مما يفجر لدينا آمالاً واسعة بمستقبل الجزائر العلمي.

وبعد طي بساط ذلك المجلس الليلي؛ توجه في صباح اليوم الموالي إلى الجامع العتيق بالعطف وكان الطريق «غاصاً بالضيوف الذين جاؤوا من كل حدب وصوب واكتظ الجامع على اتساعه»²، وهذا الحضور العلمي المكثف يدل على أنّ القرادي كان شخصية علمية متميزة لها مكانتها عند الله وفي قلوب هذا الجمع الغفير من الحضور وكما في رحلة الخنقة نجده يخصص الجزء الأكبر من الرحلة لأهل العلم وفضلهم على البشرية نجده أيضاً ينوّه في هاتين الرحلتين بجهود العلماء الذين كانت لهم بصمة في تاريخ الجزائر العلمي والثقافي.

¹ - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية، (مصدر سابق)، ص 68

² - المصدر نفسه، ص 68

ومن الجديرة بالذكر الإشارة إلى تلك الأمور التي تتعلق بالحياة الاجتماعية والفكرية والتي تبين لنا ميل الكتاب ومن بينهم رحالتنا إلى «الاحتفال بالماضي واستدعائه لتوظيفه بنائياً؛ عن طريق الاستذكار التي تأتي دائماً لتلبية بواعث جمالية وفنية خاصة في النص»¹.

«وقد جرى الحفل في الجامع الذي شيّد في الإسلام على التقوى والجهاد والعلم يجلس المسلم فيه متربعا إلى جانب المسلم، الركبة بالركبة والكتف إلى جانب الكتف بدون منصة ولا كراسي ولا ممرات فهو الموحد للصفوف وهو الإشعاع في العلم وهو التوجه بكل ذلك إلى الله»²، فأراد الرحالة أن يكشف بذلك بساطة المجلس بعيدا عن الرسميات فلك حرية الجلوس على الأرض بالتربية، كما أن في هذا الجلوس المساواة إذ لا يوجد فرق بين فقير أو غني، ولا بين وزير أو شخص عادي، فالكل هنا في مرتبة واحدة، وكل هذا من شيم التواضع والاتحاد.

كما نلاحظ أنّ الكاتب دقيق الملاحظة؛ لذا نجده يصور كل ما وقعت عليه عيناه هناك، هذا لأن وصف المكان يستدعي ذلك، «لأنه تقنية إنشائية تتناول وصف أشياء الواقع في مظهرها الحسي، وهي نوع من التصوير الفوتوغرافي لما تراه العين عند الأدباء الواقعيين الذين استقصوا تفاصيل الأماكن والأشياء»³.

وجرت على بساط الحفل مسائل مختلفة ابتدأت «بآيات من الذكر الحكيم، ثم تنوعت التدخلات، فكانت الأناشيد والمدائح الدينية والوطنية منها ما نظمه الشيخ القرادي وكانت المحاضرات الدسمة التي يحلل فيها المحاضر الأوضاع المختلفة لميزاب في عهد المرحوم القرادي وغيرها، بل إن بعضهم كانت كلماته يتخللها شيء

¹ - حسن بحرواي: بنية الشكل الروائي، (مرجع سابق)، ص 121.

² - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية، (مصدر سابق)، ص 68.

³ - محمد عزام: شعرية الخطاب السردي منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2005م، ص 69.

من الدموع»¹، وهذا ما يكشف عن أثر هذا المصباح النوراني وهو القرادي في خدمة العلم والعلماء بل خدمة الإنسانية، فهو منارة علمية انطفأت شمعتها لما رحل إلى الدار الآخرة، ومما لاشكّ فيه أنّ الوضع العلمي والاجتماعي في عهده كان مزدهراً، وهذا ما أوجب هذا النوع من الاتصال وهذا التفاعل الخطابي الرائع.

ثم امتدت أوصافه لتصور لغة الخطاب الأدبي وبراعة الأسلوب، كما استتار صدره تأنساً بمحاوراتهم العلمية في سائر اليوم، وسحر لبه تذوقهم للغة فكان الإيقاع الشعري الجميل وتتابع الكلمات وزنا وصوتا، فالقوم لا يزالون على عهدهم بالشعر الجميل والنثر الجزيل، فالتشكيل الجمالي للغة الشعر الذي جاء في مقالات المتدخلين سكب في نفس الرّحالة اللذة الجمالية من خلال عنايتهم بانتقاء الألفاظ وبراعة التعبير، حتى أنه من شدة إعجابه بفصاحة لغتهم شبههم ببلابل الأدب العربي، وذكر أنّ مارآه في ميزاب من التمسك بلغة الضاد جعله يطمئن على مستقبل وطننا العزيز.

وإذا كان أبو القاسم قد عدّد منارات العلم في خنقة سيدي ناجي، فإنه لم ينس أن يشير إلى معهد الحياة بالقرارة والذي اعتبره بحق مصدر الحركة الإصلاحية في ميزاب أي النهضة التعليمية التي جاءت بعد غفوة طويلة، وفي هذا السياق يشار إلى البعثات التعليمية التي توجهت إلى تونس للمزيد من العلم²

هذا وقد أشار في الخنقة إلى بعض مظاهر الطبيعة ومنها جبل ششار ووادي العرب العظيم، كذلك أعطى إشارة مهمة في ميزاب عن أماكن الإنتاج الزراعي، وإن كان لم يتمكن من زيارة بساتين ميزاب غير أنه رأى قطعة الأرض التي يمتلكها «وهي واقعة في مثلث بين ثلاثة جبال جرداء، فكان هو ومن معه يسوون الأرض وينظفونها من الحجارة، وقد مد الأنابيب للسقي، وقد أطلعنا على كيفية تفتيت الصّخور عن طريق

¹ - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية، (مصدر سابق)، ص 69.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 72.

الألغام، كل ذلك لكي يغرس النخيل»¹، وهذا ما يدل على صعوبة الحياة في هذا المكان وأنه لابدّ من البذل في سبيل الحصول على لقمة العيش، فمع أنّ الأرض قاحلة إلاّ أنّهم صبروا على جعلها أرض منتجة ونجحوا وأفلحوا وأبدعوا في ذلك.

وهذا التعدّد في الأمكنة العميقة هو الذي حرّك الأحداث، لأنّ ارتباط الأحداث بالمكان يجعلها تكتسب جانبا من الحقيقة والمصادقية، والإطار المكاني² «يعطي الحدث من المعقولية ما يجعله قابلا للوقوع على هذه الصفة أو تلك»³، فالقيمة الجمالية للمكان العلمي لا تكمن في الإطار الخارجي له؛ بل في البعد التاريخي الذي يحمله أو يعبر عنها.

ولهذا قدم الكاتب في الأخير؛ شكره لهم على إبداعهم في خدمة الأدب والعلم، وذكر أنه من حقهم أن تعرف الجزائر ما أنتجوه من المعارف، وأن تستفيد منه كل الجهات والنواحي في كامل القطر الجزائري؟، لأنّه بحق نابع من شخصيات علمية تفردت بحب العلم والإبداع فيه والمحافظة عليه.

من خلال ما سبق؛ نخلص إلى أنّ كلا الرّحلتين جاءت موجزة ومختصرة بخلاف الرّحلتين الخارجيتين اللتين كانتا مطوّلتين، كما أنّ اللافت للنظر في هاتين الرّحلتين هو احتواؤهما على أماكن عميقة ذات أبعاد ثقافية وعلمية، تسدعي ضرورة البحث والتفتيش عنها والاستفادة منها، لأنّها حافلة بالأسرار والأخبار التاريخية. هذا ويرتبط المكان الديني بدلالات متنوّعة يغلب عليها طابع القداسة كالصلاة والدعاء، وهي ملاذ كل شخص يطلب السكينة والراحة.

¹ - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية، (مصدر سابق)، ص 71.

² - إسماعيل زغودة: بنية المكان في الرواية الجزائرية المعاصرة عبد الجليل مرتض أمونجنا، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان 2013/2014م، ص 178.

³ - حبيب مونسى: فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2001م، ص 05

3.2.2 المساجد والزوايا والأضرحة:

مما اهتم به الكاتب في رحلته ووقف عنده؛ كثير من بيوت العبادة والأضرحة وما يقوم حولها، وتعتبر المساجد بيوت الله في الأرض، وهي أماكن لعبادة الله سبحانه وتعالى، ومكان لطلب الراحة والسكينة النفسية والروحية، إذ يوظف «المسجد في النصوص السردية على أنه بنية ذات أثر إيجابي في توجيه السلوك وتهذيبه»¹، ولهذا يعطينا الكاتب تصويراً دقيقاً لبعض المساجد والجوامع التي مر بها في رحلاته الأربعة.

1- المكان الديني في رحلات سعد الله الخارجية:

ففي الرحلة المغربية مر بجامع السنة، «وهو جامع ضخم وحديث مبني على الطراز الأندلسي المغربي، وقد وجدت مكتوباً عليه أن الذي بناه هو مولاي محمد بن عبد الله سنة 1785 وأن الذي جده هو الحسن الثاني، ويضاء هذا المسجد ليلاً كما تضاء صومعته العالية فيرى من بعيد كأجمل ما تكون الرؤية»²، إذن نرى أن الكاتب قد أعجب بهذا المسجد؛ فذكر إحكام صنعة وإبداع بنائه وفخامته ونباهته وارتفاعه، وهو ما يدل على حضارة المغرب وتقدمها في الجانب العمراني، وما لفت انتباهه أكثر هو المعلومات التاريخية المسجلة عليه.

لينقل بعد ذلك صورة تذكارية رائعة عن جامع محمد الخامس الملحق بضريحه، والذي «لا زالت الأعمال قائمة به، لكن الجزء الذي انتهى منه يمثل أعجوبة في الذوق والصناعة والمهارة، فهو يحتوي على فيسفاء نادرة، ورخام ملون ونقوش مذهبة في الأسقف والجوانب العليا، وقد حفرت آيات من القرآن الكريم على مدار القبة الخضراء والصفراء التي يزيد لها لمعان الكهرباء جلالاً وجمالاً، وللضريح أيضاً عدة أبواب في الأسفل بعضها يقود إلى الجامع الملحق به وبعضها يؤدي إلى الخارج... وقد

¹ - محمد إبراهيم: تجليات المكان في السرد الحكائي، فضاءات للنشر والتوزيع عمان، ط1، الأردن، 2009م ص121.

² - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 208.

علقت بالضريح أيضا مصابيح وثريات نفيسة، بالإضافة إلى الجامع فإن الضريح ملحق به أيضا مكتبة¹.

وبالرغم من أنّ هاته الرحلة علمية إلا أنّ اهتمامه لم يصبّ على وصف المكتبات فقط؛ وإنما اهتم أيضا بالجانب الفني والجمالي، الذي احتوت عليه بعض الأمكنة التي مرّ بها، وهو ما يكشف عن تعدّد رؤى الرحالة للمكان وتنوع مشاعره واتجاهه، بالإضافة إلى استخدام ثقافته الدّينية في النصّ الرحلي، «ولهذا يبدو الوصف الوسيلة الأساسية في تصوير المكان، وهو محاولة لتجسيد مشهد من العالم الخارجي في لوحة مصنوعة من الكلمات، والكاتب عندما يصف لا يصف واقعا مجردا، وإنما يصف واقعا مشكّلا تشكيلا فنيا»².

ثمّ يمر بضريح سيدي ابن عاشر³ ومسجد سيدي عبد الله بن حسّون، ثم الجامع الكبير، إذ يقول بهذا الصدد: «سألت عن إحدى القباب وقيل لي إنها قبة سيدي ابن عاشر وعن مسجد فقيل لي إنه لسيدي عبد الله بن حسّون وعن صومعة عالية لاشكّ أنّ القادمين من البحر يهتدون بها فقيل لي أنّها صومعة الجامع الكبير»⁴، فلا بدّ لكل من ذاق حلوة السفر والسيّاحة أن يغوي أقدامه الطريق، ليبحث عن ما تزخر البلاد من معالم أثرية وثقافية ودينية، يعرف بها القارئ ويجعل قلبه يستهوي زيارة المكان، من خلال براعة التعبير، واختيار الألفاظ وحسن الأسلوب.

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 227.

² - قاسم سيزا أحمد: بناء الرواية دراسة مقارنة ثلاثية نجيب محفوظ سلسلة دراسات أدبية، دار التنوير ط1، بيروت، 1985م، ص 110

³ - هو عبد الواحد بن أحمد بن أحمد بن أنصاري نسبا، الفاسي منشأ وداراً يعد من فقهاء المدرسة المغربية في المذهب المالكي البارزين، كان عالما ورعا عبدا مفتيا في علوم شتى كالنحو والتفسير والإعراب، والرسم، وعلم الكلام والأصول والفقه، والحساب والفرائض يؤرخ لولادته (990هـ/1528م)، وتوفي سنة (1040هـ) تاركا وراءه تآليف كثيرة. ينظر الشيخ محمد بن أحمد ميارة المالكي: الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر، دار الفكر بيروت 2005م، ص 5/4.

⁴ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 229.

فالمكان الممثل للرحلات في المدن والقرى بأفاقها وأسواقها، والمساجد بعمرانها والمسالك العسيرة بمشاقها والأضرحة وما بني عليها تزار لبركاتها، وأماكن مقدسة تعمر القلوب بمن فيها فترق الأرواح للاتصال العلوي والتلذذ بحقائقها؛ كل ذلك يرسم لوحة فنية للمكان في الرحلة¹.

«فالبرغم من التباين والاختلاف بين رحالة كل عصر؛ إلا أن هناك قاسما مشتركا بينهم لمجموعة من الأفكار وتوجهها بارزا للنظر إلى ثقافة الغير ومفاضلة ثقافة الذات على الغير»².

ولا ريب في أن الرحالة نقل لنا هذه الصور من الثقافة المغربية، حتى يبعث فينا لبّ الجمال الذي رآه في زخرفة المساجد، وهي سمة جلية في الثقافة العربية ولا تقتصر على كتاب الرحلة فقط؛ وإنما قد يتعدى الأمر إلى كتاب الروايات والقصص، «لأن أبا القاسم سعد الله عشق الأدب شعرا ونثرا ونقدا وإبداعا، وكان لا يكتب إلا عن تجربة عاشها، ولا يخضع إلا لما يراه حقا ولا يفترى، وهو يعرف الكاتب الحق قائلا: إن الكاتب الحق يجب أن يقول كلمته الحرّة المقتنع بها سواء أَرْضت الآخرين أو أسخطتهم»³.

وإذا كان مروره بمساجد الرحلة المغربية من جانب الفسحة والتنزه؛ فإنه بزيارته للمساجد في الرحلة الحجازية كان قد تحقق له أمل عريض حين أتحت له الفرصة بزيارة الحرمين الشريفين ومجاورة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فبعد إتمام الندوة توجه مباشرة لزيارة الحرم النبوي كيف لا يستحق هذه السرعة والسعادة وقبر الرسول

¹ - ينظر: إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي، (مرجع سابق)، ص45

² - حسين محمد فهم: أدب الرحلات عالم المعرفة، سلسلة كتب شهرية ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب الكويت يوليو 1989، ص175.

³ - محمد الأمين بلغيث: رحيل شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، (مرجع سابق)، ص341.

صلى الله عليه وسلم هناك، «وبعد إن اغتسلنا وغَيَّرْنَا ملابسنا؛ توجَّهنا فوراً إلى الحرم فأدَّينا حق المسجد، وحقَّ قبر الرسول صلى الله عليه وسلم»، فتحدَّث عن شساعة الحرم، وكيف سيوسع في المستقبل، فهذه الزيارة تؤدي دوراً تطهيرياً، إذ يشعر فيها الزائر بالراحة والاطمئنان، ويبلغ الاندماج الروحي مع المكان مبلغاً عالياً لا يخالف فيها شرع الله سبحانه وتعالى.

ومن المشاهد التي زارها أيضاً مقبرة البقيع؛ وهي أشهر مقبرة في العالم الإسلامي وتضم عدداً كبيراً من الصحابة رضوان الله عليهم وآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ومساكن الصحابة رضوان الله عليهم، وموضع سيدنا حمزة وفي هذا المكان دفنت جثامين شهداء غزوة أحد وفي مقدمتهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، بجوار جبل أحد وهو معلم تاريخي يزوره الحجاج والمعتمرون كل سنة، ومسجد قباء وهو أوّل مسجد بني في الإسلام، وأوّل مسجد بني في المدينة المنورة يزوره الحجاج والمعتمرون اقتداءً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وطلباً للأجر والثواب، ومسجد بنات النجار « ويبعد عن مسجد قباء بتسعمئة متر، وسمي ببنات النجار نسبة إلى بنات النجار من بنات أخوال النبي صلى الله عليه وسلم، فعندما قدم من مكة مهاجراً إلى المدينة، قابلته بنات النجار»¹ ينشدن الأبيات: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع²

ولم يفصل الكاتب في وصف هذه المزارات الدينية الأخيرة، وإنما هو وصف عام وشامل لمشاهداته، ثم قصد مكة المكرمة (المسجد الحرام) قصد أداء العمرة، ولم يكن مُهْتَمّاً بالوصف العمراني للمسجد لانشغاله بأداء الشعيرة الدينية نظراً لضيق الوقت،

¹ - عبد الله اليوسف المساجد والأماكن الأثرية في المدينة المنورة، دار المؤرخ العربي، وط1 لبنان، و1416هـ/1996م، ص66.

² - المرجع نفسه ص66.

ومن الأماكن المقدسة التي زارها جبل عرفات وحرّاء ومنى والمزدلفة ونحوها، فأصبح المكان الجسر كما قال بعض المؤلفين «فيصبح المكان أمكنة ليس فقط للعبور، وإنما للتزود بالزاد والمعلومات والحكايات والتجارب، مما يجعل العبور أخصب، وكلما كانت نقط العبور كثيرة حققت للنص ثراء في الحكايات والصور»¹.

وإذا كان الرحّالة قد اعتنى بوصف المساجد المغربية وذكر تواريخ توثيقها، ووصفها على ما هي عليه من نقوش وفخامة البناء؛ فإنه في هذه الرحلة كان منشغلا بأداء الشعائر الدينية فقط أو ربما لم يصف الحرميين الشريفيين لأنهما وصفاً من قبل في جميع الرحّلات الحجازية التي سبقته، فتكلم عن شعوره بالفرح والسرور لزيارته قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يقف طويلاً عنده، بل إنه لم يقدم له أي وصف يذكر، أما المساجد الأخرى غير الحرميين فإنه عدد أسماءها دون وصف أو تحديد تاريخ إنشائها، وهي مسجد قبا، ومسجد بنات النجار.

2- المكان الديني في رحلات سعد الله الداخلية.

في رحلته لخنقة سيدي ناجي؛ ذكر مجموعة من المراكز الدينية والعلمية التي تميزت بها قديماً، إلا أنه صرّح بأنه لم يمر بها جميعاً وإنما أخبره ببعضها بها الدردي والسالمي، نذكر منها:

1/الجامع الكبير المعروف بجامع سيدي مبارك الموجود ضريحه في ملحق بالجامع، وهو جامع الجمعة العتيق الذي يعود تأسيسه إلى القرن السابع عشر ميلادي.

2/مسجد السوق الذي تقام فيه الصلوات الخمس، بني خلال القرن الثامن عشر.

¹ - مجموعة مؤلفين: الفضاء الروائي، ترجمة عبد الرحيم زحل، إفريقيا الشرق، المغرب، لبنان، 2002م، ص 32.

3/مسجد زاوية عبد الحفيظ الخنقي ناشر الطريقة الرحمانية«وقد جدد المسجد أخيرا فقط (سنة 1979)¹.

4/ مسجد كرزدة(اسم إحدى القبائل القديمة) الذي اندثر الآن لأن الفرنسيين هدموه وسكنوا فوقه.

5/مسجد سدراته(اسم قبيلة أيضا) وقد بني قبل دخول الفرنسيين وتقام فيه الصلوات الخمس بطريقة غير منتظمة، وهو المسجد الذي قرأ فيه أحمد زروق بلمكي.²

أما عن الزوايا؛ فقد ذكر الكاتب زاويتين مشهورتين، وهي الزاوية المنسوبة إلى محمد بن ناصر، تعود إلى القرن الحادي عشر الهجري، أما الزاوية الثانية فهي الرحمانية وهي حديثة نسبيًا، تعود إلى القرن الثالث عشر، ومؤسسها عبد الحفيظ الخنقي³ ثم يطنب في وصف الزاوية الناصرية، وتاريخها: "فطافوا فيها وحلوا بجامعة مدرستها هي التي أشعت على المنطقة بالعلم والمعرفة طيلة قرنين أو يزيد، وكانت موئل علماء الزاب والصحراء، والأوراس وقسنطينة وزواوة"⁴، فمعرفة خبايا هذا المكان ولد الإحساس بالتاريخ باعتباره انعكاسا للأنا الأخرى القابعة في العمق.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص260.

² - المصدر نفسه، ص260.

³ - العارف بالله الشيخ سيدي عبد الحفيظ بن محمد ولد عام(1203هـ/1789م) بخنقة سيدي ناجي الحاضرة الثقافية، وفيها حفظ القرآن وتعلم علوم الدين الإسلامي على يد عدة علماء، هاجر إلى طولقة والتقى بالشيخ سيدي محمد بن عزوز وتعلم علوم الدين وأخذ عنه الطريقة الرحمانية، ثم عاد إلى خنقة سيدي ناجي وأسس بها زاويته المشهورة في القرن 13هـ قام فيها على تعليم علوم الدين والطريقة الرحمانية، يمتاز الشيخ إلى جانب تبحره في العلم والتصوف بالكرم والثقة بالنفس والعفة والفصاحة والشجاعة والوقار والموضوعية والإيثار والوطنية وبسبب المستعمر الغاصب والمنتم من المنطقة وتاريخه من جهة، والإهمال من جهة ثانية فإن تاريخ وفاته يطرح جدلا واسعا غير أن التاريخ الأقرب (1266هـ/1850م). ينظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الجاهلي، ص102. وانظر أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1996م، ص52.

⁴ - ينظر أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص260.

وتجول أبو القاسم في المدرسة التي تعرف بالناصرية، وفي الجامع وبين الأضرحة، «وتوجد نقوش رائعة الجمال على الرّخام المحاط بالبواب الخارجي للمدرسة؛ تحتاج إلى التصوير والحفظ في أحد المتاحف لأنها على وشك الضياع، فهي تحفة فنية من التّراث المحلي الوطني»¹، كما تمنى أن توجّه أنظار علماء الآثار إلى هذه النقوش الآيلة إلى الزوال بسبب الضياع والتهميش، «وليت مصلحة الآثار تلتفت إلى هذه النقوش فتصورها وتحفظها»²، فهذا المكان موغل في القدم وهو يتغير عبر الأزمان بما يملؤه من عامريه من بشر وحيوان وعمران، وهذا المسكوت عنه يمكن للقارئ تخيله أو استحضار بعضه.

وأخيرا مسجد زربية الوادي الذي لا يكاد يرى من بعيد، وهو جامع ضخم واسع العرصات ومبني بالجبس وكان غاصا بالمصلين³، فالخنقة إذن محطة هامة في تاريخ الجزائر الثقافي.

وإذا انتقلنا إلى رحلة حفل في ميزاب؛ نجده وقف على مسجد واحد لأنه هو المقصد في هاته الرّحلة ولم يتنقل فيها الرّحالة إلى أماكن أخرى، كما في رحلته السابقة وهو المسجد العتيق بالعطف، الذي جرى فيه حفل تأبين القرادي، كان دون منصة ولا كراسي كما تعود الكاتب أن يرى في الحفلات الأخرى، وكان الوصف عاماً وشاملاً لما جرى في الحفل، ولم يخصص للنقوش والزخرفة جانب من هذا الوصف.

من خلال ما سبق؛ نخلص إلى أنّ المكان يكتسي أهمية بالغة، وذلك باعتباره المساحة التي تجسد وعي الكاتب ووجهة نظره من جهة؛ ومن جهة أخرى لأنه يمثل الإطار الذي تتجسد داخله الصيغة البنائية التي يأتي وفقها الخطاب في سير أحداثه في

¹-ينظر: المصدر نفسه، ص 261.

²- المصدر نفسه، ص ن.

³-ينظر: المصدر نفسه، ص 264.

الأعمال السردية، فلا يمكن للمكان أن يأتي بمعزل عن عنصر الشخصية، فهما مرتبطان ارتباطاً شديداً، وباعتبار شخصية الكاتب هي محور الرحلة نجده يطلب مشاركة القارئ ويستحدث حضوره ليؤكد أنه شريكه في عملية الرحلة، وأنّ هذا العمل لا يمكن أن يوجد من دونه، لذلك فهو يحاول التقرب من ذهن المتلقي فيعمد إلى وصف هذا المكان وذاك وصفاً دقيقاً، وهذا ما يجعل المتلقي يخرج بصورة تامة عن هذا المكان وينتقل معه ذهنياً إلى كل الأمكنة التي وقف عندها، إذ هي أمكنة حقيقية وليست خيالية. وجميع الأمكنة المذكورة في الرحلات الأربع أعطت بعداً جمالياً رائعاً رغم اختلافها من حيث الأهمية والقصد فبعضها كانت الرحلة إليه صدفة والبعض الآخر كانت نية الذهاب إليه ميبية.

أن ما يعطي المكان حيوته ونشاطه داخل العمل الأدبي هو تعالقه مع عنصر الزمن، لأن دلالة المكان الفنية والجمالية لا يمكن القبض عليها إلا من خلال اتصاله مع الزمن.

3.2. جماليات الإبداع الزماني دراسة مقارنة بين رحلات سعد الله الداخلية

والخارجية

1.3.2.. مفهوم الزمان

1.1.3.2. الزمن في القرآن الكريم:

وردت هذه الكلمة مرتين في القرآن الكريم مرة بمعنى الزمن والديمومة، ومرة بمعنى القضاء والقدر، ففي الأولى قوله عز وجل: ﴿هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا¹﴾.

¹ - سورة الإنسان، الآية 01

ويقول في الثانية بلفظة الدهر: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾¹.

2.1.3.2. الزمن في المعاجم العربية:

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة (زمن): «أن الزمن والزمان: اسم لقليل الوقت وكثيره، الزمان زمان الرطب والفاكهة، وزمان الحر والبرد، والزمن يقع على فصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل، وأزمن بالشيء طال عليه الزمن، وأزمن بالمكان أقام به زمانا»².

وجاء في معجم مقاييس اللغة مدلول مادة (زمن) بأن: «الزاي والميم والنون أصل واحد يدل على وقت من الوقت، وذلك الزمن هو الحين قليله وكثيره، ويقال زمان وزمن والجمع أزمان وأزمنة»³.

وقد وردت في تاج العروس للزبيدي في مادة (زمن): «الزمان مادة قابلة للقسمة ويطلق على القليل والكثير، وعند الحكماء مقدار حركة الفلك الأطلس، وعند المتكلمين: متجدد معلوم يقدر به متجدد آخر موهوم، كما يقال: أتيتك عند طلوع الشمس، فإن طلوعها معلوم ومجيئه موهوم، فإذا قرن الموهوم بالمعلوم زال الإبهام»⁴.

من خلال التعريفات اللغوية نخلص إلى أن الزمن يدل على مدة محددة ومضبوطة من الوقت، كالأيام والشهور والساعات، وأن الزمن متحرك متجدد.

¹ - سورة الجاثية، الآية 24.

² - ابن منظور: لسان العرب، (مصدر سابق) 233/3-234.

³ - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت لبنان، 1999م/22.

⁴ - مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جوهر القاموس، دار الهداية، ط2 الكويت 152/3.

3.1.3.2. تعريف الزمن اصطلاحاً:

تري الدكتورة مها حسن قصرأوي: «أن الزمن في الحقل الدلالي الذي تحتفظ به اللغة العربية إلى اليوم هو زمن مندمج في الحدث، وظواهر الطبيعة وحوادثها، إنه نسبي حسي تداخل مع الحد ثمثله مثل المكان الذي يتداخل مع المتمكن فيه»¹.

والزمن عند عبد الملك مرتاض لا يرى بل هو وهمي، وأنه يسيطر على كل شيء من التصورات والأفكار والأنشطة².

إن مقولة الزمن متعددة المجالات، وكل مجال يعطيها دلالة ويتناولها بأدواته التي يصوغها في حقله الفكري النظري، وكانت حصيلة تصور مقولة الزمن تجد اختزالها العلمي والمباشر مجسداً بجلاء في تحليل اللغة في أقسام الفعل الزمنية في تطابقها مع تقسيم الزمن الفيزيائي إلى ثلاثة أبعاد وهي: (الماضي، الحاضر، المستقبل)³.

«ويمثل الزمن عنصراً من العناصر التي يقوم عليها فن القص، فإذا كان الأدب يعتبر فناً زمنياً، فإن القص هو أكثر الأنواع الأدبية التصاقاً بالزمن»⁴.

من خلال التعريفات السابقة نخلص إلى أن الزمن لفظة متشعبة الدلالة، فكل عرقه حسب الطريقة المناسبة له، لكنه لا يخرج عن القليل والكثير من الوقت، كما يختلف استعمال الزمن من مبدع لآخر، ولهذا تعتبر اللغة من أهم المجالات التي يظهر فيها الزمن بنحو واضح .

وزمن الرحلة هو ذلك الزمن الذي يخضع لظروف الارتحال ومصاعب الطريق... الخ، إنه زمنٌ «فيزيائي» له بداية ونهاية، ومسالكه خاضعةً لطبوغرافية

¹ - مها حسن قصرأوي: الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، 2004م، ص12.

² - ينظر: عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، (مرجع سابق)، ص179.

³ - ينظر: سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير) المركز الثقافي العربي بيروت ط3 لبنان، 1997م، ص61.

⁴ - سيزا قاسم: بناء الرواية دراسة مقارنة، (مرجع سابق)، ص27.

مرسومة، والرحالة لا يتردد في الإشارة إلى اليوم والتاريخ.. إلخ.¹، ويخضع لظروف الارتحال ومصاعب الطريق.

2.3.2. الزمن الطبيعي التاريخي:

وله جانبان: الزمن التاريخي الذي يجري فيه إسقاط الخبرة البشرية على خط الزمن الطبيعي وهو يمثل ذاكرة البشرية، والزمن الكوني أو الفلكي من حيث إدراك الرحالين للزمن وكيفية التعامل معه وينقسم إلى.²

1. زمن الانطلاق والمسير.

أ- زمن الانطلاق في رحلتي المغرب والجزيرة العربية:

كما هو الحال في الرحلة المغربية، أين عمد الرحالة إلى تحديد التاريخ وربطه بالحدث المؤرخ له بدقة متناهية، فجعل من رحلاته يوميات، مضيفاً إليها عنصر الزمن المقدر بالساعات بناء على زمن الانطلاق وزمن الوصول، فكان لابد للرحلة من نقطة انطلاق تبدأ منها، وقد اختار الرحالة نقطة البداية من المغرب لما زارها خلال الصيف، من 29 يوليو إلى 19 أغسطس 1973، حيث انطلق من مطار الدار البيضاء بالجزائر العاصمة وصولاً إلى مطار النواصر بالمغرب، «وقد استغرقت الرحلة على طائرة البوينغ التونسية ساعة وربعاً»³، ولم يمكث سوى بضع دقائق في المطار حتى خرج من مطار النواصر.

¹ ينظر: عبد الرحيم مودن: الرحلة في الأدب المغربي، أفريقيا الشرق، دط، المغرب، 2006م، ص20.

² ينظر: سيزا قاسم: بناء الرواية، (مرجع سابق)، ص46/48.

³ أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص207.

إنّ زمن المسير هو ذلك الزمن الذي يحتوي على بنيات حكاية مليئة بالحركة المتكونة بين السرعة والبطء، فهو أكثر الأقسام استغراقاً للزمن ويضم هذا القسم مرحلة الذهاب إلى كل من المغرب والجزيرة العربية.

لأشكّ أنّ الزمن الذي وصل فيه الرّحالة هو الليل، ومما يدل على ذلك رؤيته للأضواء الباهرة التي زينت المغرب، وهناك بعض المؤشرات الزمنية الطبيعية التي تشير إلى المساء /الصباح /الفجر/ الفصل، ودعمت واقع الزمن التاريخي للرحلة وحافظت على تسلسلها الزمني، ونستدل على ذلك بقوله: «ولم أعد إلى غرفتي إلاّ بعدما انقضى الهزيع الأوّل من الليل»، ويقول في موضع آخر: «وفي الصباح خرجت حوالي الساعة السادسة والنصف من الفندق»، «كنت أعرف أنّ الفصل كان وقت عطلة للمدارس والجامعات»¹، وغيرها من المؤشرات الدالة على التحديد والتوقيت.

إنّ هذه التّحديدات الزمنية في الرّحلة؛ ترمي إلى تعالقتها الشّديد مع المكان بحيث يحدّد الرّحالة الزمن ثم يليه المكان مباشرة، ثم يقدم الأحداث في خط متسلسل تسلسلاً زمنياً كما هي في الواقع، وتكرّس الرّحلة نزوعها الزمني التاريخي من خلال توظيف بعض الخطابات التاريخية المؤرّخة زمنياً، ويظهر ذلك مثلاً أثناء حديثه عن جامع السنة أنه بني سنة 1785، وتم تجديده سنة 1969.

كما نلاحظ تسجيله للزمن من يوم الخروج من الجزائر إلى يوم الرجوع، في كل حين ذهب فيه إلى مكان ما، فنراه يسجل تاريخ أو وقت كل تنقل أو نزول بيت ما، وهذا ما يجعل الرّحلة أقرب إلى المذكرات اليومية، فكانت كل حركة محسوبة ومؤرّخة بدقة، وكل هذا من أجل إمداد القارئ بوقائع حقيقية، و«أهمية المكان في الرّحلة لا تتعلّق

¹ - المصدر نفسه، ص 207-208-209.

بوضعه في سياق الانتقال من مكان إلى آخر فحسب؛ بل تعود إلى تاريخيته من جهة ووظيفته من جهة ثانية».¹

كما تنفتح الرحلة على يوم الدخول إلى الدار البيضاء، ذلك اليوم الذي كان مليئاً بالتجارب وهو يوم 13 أوت 1973م رفقة صديقه القراري، ثم يذكر وقت الوصول إليها وكم لبث في الطريق من الوقت، لما يقول وصلنا الدار البيضاء نحو الساعة العاشرة، ولم نقض في الطريق إلا ساعة وربع²، ثم يذكر بالتفصيل الأماكن التي مر بها، وزمن الحكي هو الزمن الماضي والحاضر، فظهور المكان في الزمن الحاضر مناسب للأحداث والتنقل عبر الأمكنة، ليصور المشاهد وجانباً من تفاعله معها، ونحو الساعة العاشرة غير وجهته فانتقل إلى الرباط «وحوالي الساعة العاشرة مساء تحركت بنا السيارة نحو الرباط سالكة طريق المحمدية»³، فالزمن في هاته الرحلة يسير بأبعاده الثلاثة (الماضي/ الحاضر/ المستقبل)، غير أننا نلاحظ هيمنة الماضي أكثر لأنه يشكل معيناً لا ينضب بالدلالات، كما أنّ العودة إلى الماضي زيادة في التأكيد على لحظات مؤثرة من خلال الجذور والامتدادات التي يمتلكها المكان.

ثم يسجل التاريخ المحدد لكتابة مذكراته، وحين يستعمله يشير أحيانا إلى معالم كبرى ويوظف مؤشرات زمانية ومكانية حديثة تصور الواقع وتربطنا به، «وإليك ما كتبت في هذه المناسبة أنقله من يومياتي بتاريخ 04 أوت 1973 بدون زيادة ولا حذف»، كما يعتمد على التاريخ الفصلي أحيانا وظواهره الطبيعية كحلول الشتاء والصيف والرياح والحرارة وغيرها، ومن ذلك: «كانت الشمس قد غربت ولم يبق في الأفق إلا الشفق وطلع من الشرق القمر الذي أخذ يكبر وظهرت النجوم في السماء،

¹ - عبد الرحيم مودن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدي للنشر والتوزيع ط1، المملكة الأردنية، 2006م، ص375.

² - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) ص222.

³ - المصدر نفسه، ص223.

والمصاييح في الأرض» ويبدو من سياق الكلام أنّ الزمن الذي يتحدث عنه هو الليل وليس النهار، وهذا ما يساعد على تصوّر الواقع تصورا حسنا، وفي أحد أيام الأحاد غضبت شمسها وكثف ضبابه واشتعلت حرارته خرجت مع الأخ شحلان نتجول¹، فهنا استعان الرحالة بعناصر الطبيعة ليحدد لنا الزمن.

إنّ زمن الاستعمار هو زمن وحشي دام يمتد في الزمن الحاضر، لذا نجده يؤرّخ في رحلته هذه لبعض الأحداث أيام الاستعمار الفرنسي حين صعد إلى أعالي شارع محمد الخامس: "وصعدنا العلو حيث دخل الفرنسيون عام 1912، وفي اليوم نفسه الذي زار فيه العلو، سحرت لبه مدينة سلا فأخذ الحافلة هو وزميله وذهبا إليها ووصلوا في نحو 10 دقائق، لينتقل بعدها إلى الحديث عن جامعة محمد الخامس وعن تاريخ تعريبها تماما وذلك ابتداء من 1973/1974²، وبهذا تكون رحلته المغربية قد انتهت وقد استغرقت الرحلة واحد وعشرين يوما.

من خلال ما سبق نلاحظ أنه لا يذكر الزمان إلا ويذكر معه المكان، وهذه العلاقة الوطيدة التي تجمع بينهما فالمكان لا يمكن أن يأتي بمعزل عن الزمن، ويكتسب المكان حيوته ونشاطه من خلال ارتباطه بالزمن، فدلالة المكان لا يمكن القبض عليها إلا باتصالها مع الزمن، فالزمن لا بد له من مكان يحتويه ويجري في فلكه، وهذا ما يُضفي على النص جانبا من الحقيقة والواقعية.

وإذا انتقلنا إلى الرحلة الحجازية؛ نجد أنه زمن مختلف عن جميع الرحلات، فهو زمن التدبر والتعني بالماضي (أي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم)، من خلال معاينته للأماكن المقدسة والآثار والمعالم وهو شعور أو إحساس معنوي ترك في الكاتب أثر النشوة والغبطة بالمكان، كما كان في صراع مع الزمن الذي كان سريع

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 226/228.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 229.

اللحظات في رحلة الحجاز التي انطلقت رحلته يوم 21 أبريل من مطار الجزائر وصولاً إلى مطار جدة 1977.

إنّ الإحساس بالزّمن لا يفلت منه إنسان، بل هناك اختلاف فقط في درجة الإحساس بظاهرة الزمن «فهو خيط وهمي نراه في غيرنا مجسداً في شيب شعر الإنسان وتجاعيد الوجه وتقوس الظهر»¹، ومن هنا يبرز التنوع بعنصر الزمن، وتوظيفه لخدمة الأحداث المحيطة به والمكان أيضاً يؤدي إلى تنوع الزمن، فهناك الزّمن الطبيعي التاريخي والزّمن الديني.

فقدسية المكان في الرّحلة الحجازية هي التي جعلت منه زمن ديني متسارع فالزّمن المرتبط بمكان جوهري حقيقي يجعل القارئ متعلقاً بالنص، متفاعلاً مع أحداثه متماشياً معه في كل صغيرة وكبيرة، كيف لا وللرجل نفس تواقّة للعلم والتعلم، راغبة في معالي الأمور، زاهدة في الدنيا ومتاعها، مبتغية وجه الله العظيم، وتابع الكاتب زمنه تتابعا منطقياً لأحداث الرّحلة مع شيء من التقديم والتأخير، وهذا من أجل خلق جو فني على القارئ وتشويقه لتتمة الرّحلة.

وصل الكاتب إلى أرض الحجاز على الساعة الحادية عشرة، ونزل بمطار جدّة فبعد أداء الندوة زار الحرمين الشريفين، وفي المطار شعر بالضيق والملل لأنّه قضى زمناً قدره ليلة كاملة جالسا على كرسي الجلوس، وهذا ما أثار استياءه: «وعلى كل حال؛ فقد بتنا تلك الليلة مسافرين أيضاً على مقاعد المطار كما قضينا النهار السّابق مسافرين على مقاعد الطائرة، لذلك أخذ منا التعب مأخذ شديد، وتحجّر النوم في العيون

¹ - عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، (مرجع سابق) ص 201

كالرصاص أو أشدّ منه، وعندما أشرق شمس الجزيرة العربية لم تستطع أن تحطم
صخور النوم التي استقرت في عيوننا»¹.

فكان الوقت وقت الراحة والنوم، ولكن لسوء حظهم بقوا تلك الليلة في المطار
حتى أنهكهم التعب، فالكاتب تحدث عن مدة زمنية من زمن الرحلة، وأشار لما جرى
فيها من وقائع وأحداث.

وحوالي الساعة السادسة صباحاً؛ توجهت بنا الطائرة العمومية في أول رحلة لها
صباحية إلى الرياض، وقد استغرقت الرحلة حوالي ساعة²، ولكن هنا تغير الوضع إلى
أحسن، فوجدوا حينها من يستقبلهم ويوجههم، غير أنّ التعب كان قد نال منهم، فارتدى
كل منهم على سريره وكأنه فاقد للوعي، ولكن اليوم الذي وصلوا فيه كان يوم الجمعة
ولهذا مكثوا قليلاً ثم خرجوا لأداء الصلاة، ليعودوا بعدها إلى الفندق: «وبعد أداء الصلاة
عدنا إلى الفندق واسترحنا فيه مدة ساعة فقط، لأنّ الافتتاح الرسمي للندوة كان قد
أوشك على البداية»³.

فالكاتب يشير لما جرى من وقائع وأحداث، ولا يكتفي بتحديد العبارات الزمنية بل
قد زاوج في هاته الرحلة بين التواريخ الطبيعية والمؤشرات الزمنية المحددة، فيستعمل
التاريخ المحدد لما يشير إلى معلم من المعالم الرئيسية، يوظف المؤشرات الزمنية
عندما يستدعي المقام ذلك، كما يذكر الأيام والليالي التي يقضيها في الإقامة والتنقل بين
مكان وآخر وهذا ما يزيل الالتباس على القارئ، إلى جانب ذكر المسافات بين المدن،
«وفي المدينة بقيت ثلاثة أيام»، «وقادنا المطوف لأداء العمرة، وكان الوقت حوالي

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) ص. 239.

² - المصدر نفسه، ص 239.

³ - المصدر نفسه، ص 239.

الساعة الثانية صباحا وكان الجو رطبا¹ وبعد صلاة الصبح مباشرة توجه لزيارة مكان الغزوات وموضع سيدنا حمزة، ومسجد قبا، ومسجد بنات النجار، ومسجد بنيت علي أنقاض بيوت الصحابة كالإمام علي وعمر وأبي بكر، وهذا الشعور الخفي الكامن في النفوس دليل على حب الصحابة وحب آل البيت ومآثرهم، غير أنه لم يصف هذه المواقع وصفا مستقيضا ولم يتأمل بل لم يستشعر واكتفى بالوقوف عليها فقط، ولعل ذلك جاء نتيجة لضيق الوقت، أو لأن أسلافه سبقوه لوصفها.

وفي الساعة المحددة؛ اجتمع عقد الندوة وذلك في قاعة المحاضرات بجامعة الرياض فشرع يفصل في أجواء ما رآه وبعدها جاء موعد العشاء الذي أقامه مدير الجامعة وهكذا انقضى اليوم الأول بالرياض، وفي اليوم التالي بدأ العمل العلمي للندوة²، فالكاتب يقسم الزمن إلى زمن القصّ وزمن الكتابة «فzمن القصّ هو الذي يوازي زمن الكتابة أو زمن نهوض السرد، وزمن الوقائع الذي يفتح على الماضي ليروي التاريخ والأحداث الشخصية»³، فبعد مدة من الزمن لابدّ من العودة إلى هذه المذكرات، سواء كان ذلك للقارئ أو الكاتب، فالعودة إلى الماضي زيادة في التأكيد مؤثرة من خلال الجذور والامتدادات التي يحملها ذلك الماضي.

لا تبدو أهمية الزمان الجمالية والفنية إلا من خلال علاقته بعنصر المكان، فعلاقة الزمن بالمكان علاقة عضوية، إذ لا مكان يتشكل إلا بعامل الزمن، ولا زمان يرصد لذاته مسكنا حيث يظل تائها إلى أن يجد مكانا يسكن فيه، ولا تجليات للمكان دون أن يتجادل مع الزمن، لهذا نجد الكاتب وظّف هذا الترابط والتوالي بين الزمن والمكان فلا ذكر للزمان إلا بوجود المكان، والعكس صحيح بل أحيانا نجده يذكر حتى الأميال أو

¹ أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 250/249.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 240.

³ - يمنى العيد: في معرفة النص، منشورات دار الأفق الجديدة ط3 بيروت. 1985 م، ص 227.

المسافات بين بعض المدن، كما يقول عن الدرعية لما زارها «هي منشأ الدولة السعودية الأولى وبينها وبين الرياض بعض كيلومترات فقط»¹.

إنّ نظام الزّمن في الرّحلة الحجازية؛ مختلف عن نظام الرّحلة المغربية لأنّه يخضع في شكّلة العام للترتيب، انطلاقاً من نقطة البداية وصولاً إلى النّدوة، ومنها إلى البقاع المقدّسة، فجاء المطار ثمّ النّدوة ثمّ زيارة الحرمين الشريفين، كما نجد في هذا النصّ تداخلاً زمنياً بين الأمكنة التي زارها فعندما وصلوا إلى المحطة ذهبوا إلى المطار ومنه إلى الفندق، ومن هناك إلى أداء صلاة الجمعة لتختم بافتتاح النّدوة، ومع هذا التداخل والسّرعة فإنّ «هناك انتظاماً مبنياً على قرائن لفظية تربط القارئ بوقائع وأحداث، مما يؤدّي إلى هذا التّناسق الموضوعي وفق مقتضيات الانتظام»².

ولما انتقل الرّحالة إلى مكّة المكرّمة لبث فيها مدة خمسة أيام، وفي غالب الأوقات كان منشغلاً بأداء الشعيرة الدينية، ولا يخرج إلّا للضرورة أو إذا حل الليل ليذهب لبيت أخيه.

فالرّحالة هنا يسرد لنا أحداثاً ماضية وكأنّها وقعت في الحاضر؛ ليجعل القارئ يظنّها حاضرة، لهذا فإنّ الزّمن في هذه الرّحلة ينطلق من الحاضر زمن التدوين، إلى الماضي زمن الأحداث، فهذه التركيبة الزمنية جعلت من الزمن حيلة فنية لنقل الماضي، وإسقاطه على الحاضر.

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 224.

² - ينظر : غاستونبشلاز: جدلية الزمن، تر خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية ط2، الجزائر 1985م، ص 117.

كما لم يفت الكاتب قضاء بعض الساعات في طلب العلم والنهل من معينه، كما فعل في رحلته المغربية، فلم يُعْطِ كل وقته وجهده لأداء الشعيرة «أما الأمر الثاني فقد حققته عن طريق قضاء عدة ساعات في مكتبة الحرم المكي»¹.

وفي اليوم الخامس من مايو 1977 صليت الصبح في الحرم المكي مع أخي البشير سعد الله، ثم اكرتيت سيارة حملتني إلى جدة رفقة زميلي المغربي، الدكتور عبد الكريم كريم، وفي أقل من ساعة كنا في جدة، وفي الساعة المحددة للطيران طلب من الركاب تغيير قاعة الانتظار، وبعد حوالي ربع ساعة من الانتظار جاءنا خبر بإلغاء الرحلة تماما، وبعد ساعتين من الانتظار الإضافي ركبنا طائرة سعودية غير التي كانت مقررة حملتنا إلى القاهرة في ظرف ساعتين².

فهذا الاسترسال في وصف الزّمن والتلخيص المستقصي للأحداث المتتابعة؛ يوجز لنا مرحلة كاملة من السير والمشاهدة، فكل هاته الوقائع لم تحدث في الزّمن الحاضر، بل هي أحداث ارتبطت بالزّمن البعيد المرتبط بالتراث القديم، استحضرتها الذاكرة في اللحظة الآنية أي لحظة سرد الأحداث للمتلقي، لهذا استدعى الكاتب ماضيه بواسطة حوار داخلي صامت يكشف من خلاله عن أحداث زمن وجوده بالجزيرة العربية، حيث استغرقت رحلته هاته خمسة عشرة يوما.

من خلال ما سبق نخلص إلى أن الزّمن في هاتين الرحلتين جاء متنوعا جمع بين الماضي والحاضر، مع التطلع لآفاق المستقبل، كما أنّ لهذه التقنية الزمنية التي سار عليها الكاتب فاعلية كبيرة في اكتشاف أماكن عميقة ذات دلالات تستقطب قيما جديدة وتقوم على صراع زمني تناظري بين الماضي والحاضر.

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) ص 252.

² - المصدر نفسه، ص 254.

ب- زمن الانطلاق في رحلتي الخنقة وميزاب:

انطلقت رحلته إلى خنقة سيدي ناجي يوم 08 فبراير 1980، وتوجهت بكرة الساعة السادسة رفقة علي باشا إلى زيارة خنقة سيدي ناجي انطلاقاً من بسكرة وكانت المسافة بين النقطتين نحو 95 كلم¹، إن معرفة خبايا هذا المكان وكدَّ الإحساس بالزمن والتاريخ فيضفي الكاتب على الزمن صفات الإعجاب حين يذكر مروره بقري ومداشر الخنقة ويعرض كل ذلك في تسلسل زمني منطقي، بل إن ما يميز هاته الأعمال ككل هو توالي الأحداث وتعاقبها، إلى جانب الاهتمام بالتصرفات والحركة في الخنقة، فوقف على أكبر قدر من المعالم فيها واختصر لنا مسار العلم الذي تميزت به قبل مجيء الاحتلال الفرنسي، والدور الذي لعبته في تلك الفترة.

«وأثناء خروجي من دار السيد الديردي؛ توقفنا عند وادي العرب العظيم الذي تحوط به الدور من جهة، وأشجار الفاكهة من جهة أخرى، ونظرت نظرة طائر هنا وهناك فإذا الخنقة خلافاً لمدن القطر الأخرى... بل إن كثيراً من أهلها لم يعودوا إليها بعد الثورة.»² فهو يصف حالة الخنقة في المدة الزمنية التي جاءت بعد الاستعمار، لأن هذه القرية كانت تحت وطأة المحتل الغاشم، بل اتخذها مركزاً له وهذا ما جعلها تنهار وتعود للوراء، لذلك نجده يقارن بينما كانت عليه وكيف أصبحت، فلا شك أن هناك فرق كبير من الناحية الفكرية والثقافية بين مرحلة ما قبل الاستعمار وما بعده، بل وكان الماضي أعاد نفسه مرة ثانية ليرى حال خنقة سيدي ناجي بعد التحولات الاجتماعية التي فرضتها الأحداث التاريخية، وهذا من أدوار الزمن الرئيسية إذ يبعث على الاستمرار، كما يربط اللاحق بالسابق، وهذا ما يخلق تلك الاستمرارية في العمل الإبداعي.

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 257.

² - المصدر نفسه، ص 259.

ثم يذكر المدّة التي درس فيها أحمد زروق بلمكي الذي كان من أبرز علماء الخنقة الأحياء في الخنقة، فهو من مواليد 1910 وبدأ الدراسة فيها عام 1921، وتخرّج سنة 1933¹، وهذا التأريخ لهاته المرحلة الزمنية التي درس فيها أحمد زروق تحيل على خلفية فكرية للمنطقة، والأثر الذي تركته سابقا في سبيل العلم، ثم ينتقل إلى تحديد المراحل الزمنية التي أنشئت فيها المساجد، والمراكز الدينية والعلمية الموجودة بها وتجديدها، وكل هاته الأزمنة تتبثق من الواقع المعاش آنذاك والذاكرة التاريخية، مما يضيف على الرحلة تلك الجمالية المعمارية الزمنية، وعند مروره بزريبة الوادي كان وقت صلاة الجمعة فأدى الصلاة بمسجدها ثم عاد إلى بلده.

أما رحلته في ميزاب انطلقت يوم الثاني من مايو 1990 حين أتيحت له الفرصة لحضور حفل تأبين المرحوم القرادي في مدينة العطف، وإذا كانت زيارته للخنقة بترتيب وتنسيق منه، فإن زيارته كانت من باب الصدفة، لأنه في هذا الزمن نفسه دُعي فيه إلى الحفل وحضور مجموعة من الندوات، ومنها ندوة العمودي بسوف، ندوة التعريب بقسنطينة، ندوة المستقبل الإسلامي بالعاصمة، وغيرها واستطاع في مدة زمنية قصيرة أن يعتذر للجميع ويذهب لميزاب، مما يفسر أنّ كل دقيقة من عمره محسوبة، فالوقت أحد ركائز الحضارة، وقد حث على حفظ التراث و تقديره واغتنام فرص الحياة واستغلال الإمكانات²، وهذا ما يتوافق مع قول النبي صلى الله عليه وسلم « عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: بادروا بالأعمال سبعا: هل تنظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفنيا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشر

¹ ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الادب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 259.

² ينظر: هلايلي حليفي: مجلة الحوار المتوسطي، التاريخ لمسار قلم أبو القاسم سعد الله، العدد 07 ص جامعة جلايلي الياس سيدي بلعباس 39.

غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر»¹، ثم يذكر أنه زارها قبل هذا التاريخ مع عائلته آخر عام 1970، زيارة سياحية لا غير.

وإذا كان أكثر حديثه في رحلته إلى خنقة حول تاريخ المنطقة ودورها العلمي؛ فإن رحلته إلى ميزاب كان الحديث كله منصبا حول المدّة الزمنية التي عاش فيها المرحوم القرادي والإشادة بأعماله.

2. زمن الوصول:

لكل بداية نهاية، ونهاية الرحلة تكون غالبا من مكان بدايتها، إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون وصول الرحالة إلى المكان المبتغى معيارا لتحديد زمن الوصول فلربما كانت تلك النقطة بداية رحلة جديدة، فستكون لدينا إذن سلسلة رحلات ووفقا للمعيار المكاني-ضمن رحلة واحدة إلى منطقة معينة، يجول فيها الرحالة عبر أقطارها من مدينة إلى أخرى، فحط الرحال فيها يكون بداية لرحلة ثانية، فتكون نقطة وصول وانطلاق في آن واحد.

اشتملت رحلات سعد الله على أحداث الانطلاق والوصول، إلا أننا لم نجد في رحلته المغربية ما يشير إلى زمن الوصول باليوم والشهر، وذكر اقتراب موعد وصوله فقط حين يقول: «وكانت الساعة تشير إلى السادسة والربع عندما أعلنت المضيفة التونسية بصوت رخم أن الطائرة ستبدأ بالهبوط في مطار النواصر»².

وفي رحلته إلى الجزيرة العربية؛ وصل الكاتب إلى أرض الحجاز على الساعة الحادية عشرة ونزل بمطار جدة، ثم انتقل بعدها إلى عاصمة السعودية الرياض «وصلنا

¹ - محمد بن عيسى الترمذي: سنن الترمذي الجامع الكبير، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996، رقم الحديث 2228.

² - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) ص 206

مطار جدة حوالي الساعة الحادية عشر والرابع مساء بالتوقيت المحلي، وهو وقت متأخر بالنسبة للمطار».¹

وفي رحلته إلى خنفة سيدي ناجي نجده لا يذكر زمن الوصول، واكتفى بزمن الانطلاق فقط، أما في رحلته إلى حفل في ميزاب فقد حدد الكاتب زمن وصوله، وهو يوم الثاني مايو 1990م، يقول عن ذلك: «كان ذلك حين أتيت لي فرصة حضور حفل تأبين الشيخ إبراهيم بن يحيى القرادي يوم الثاني من شهر مايو».²

2.3.3. زمن السرد.

نتحدث فيه عن مولد السرد وإعلانه عن ذاته، لأنّ زمن الكتابة يصبح أدبيا منذ اللحظة التي يُدخَل فيها في القصة، أي الزمن الذي يتوفر للكاتب لكتابة سرده وحكايته لنا، «وزمن السرد هو الذي يقدم من خلاله السارد القصة، ولا يكون بالضرورة مطابقا لزمن القصة، بعض الباحثين يستعملون زمن الخطاب بدل مفهوم زمن السرد».³

1. زمن السرد في رحلاته الخارجية.

في الرحلة المغربية يقول أبو القاسم: «وقد سجلت أثناء رحلتي كعادتي في كل بلد أزوره؛ يوميات صببت فيها مشاعري ومشاهداتي وقراءاتي ولقاءاتي صبّا عفويا لا تنسيق فيه ولا تفنّن، وعند عودتي إلى الجزائر نظرت في هذه اليوميات فوجدت فيها ما يصلح للنشر الآن وما لا يصلح للنشر إلا بعد انقضاء جيل، لهذا فضّلتُ أن أنسج هذا العرض لأخبار الرحلة نسجا آخر لا يتقيد باليومية ولكن بالحادثة نفسها، مقتصرًا على الأحداث والمناسبات الثقافية».⁴

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 238.

² - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية، (مصدر سابق)، ص 67.

³ - محمد بوعزة: تحليل النص السردى، تقنيات ومفاهيم، الدار العربية للعلوم، ط1، 2010، ص 87.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 204.

من خلال المقطع ندرك أن أبو القاسم سعد الله لم يكن يكتب رحلته أثناء الإنجاز مباشرة؛ وإنما يسجل يوميات فقط وعند عودته إلى الوطن الحبيب يسجل ما استقام منها وما رآه صالحاً للنشر بالتنسيق بين أجزاء هاته اليوميات بالتقديم والتأخير والحذف وعلى ما تقتضيه قوانين التأليف، حتى إذا بلغت حداً من الكمال نشرها، وهذا ما يجعلنا نخلص إلى أن زمن نشر الرحلة كان بعد إنجازها وتنقيحها وفرزها.

أما عن الرحلة الحجازية فتختلف عن سابقتها من حيث زمن سردها، لأنها عنده ليست كباقي الرحلات، فيقول عن هذه الرحلة: «وقد سجلت كعادتي في كل بلد أزوره يوميات وانطباعات ومشاهدات تغطي جميع مظاهر الحياة التي يصل إليها انتباهي وفضولي العلمي، ولعلي لم أسجل من ذلك على بلد كما سجلت على رحلتي إلى الجزيرة العربية، ويعود ذلك لأهمية الحادث في حياتي، ولأهمية الجزيرة العربية في تاريخ العرب والمسلمين من جهة أخرى... وليس في نيتي الآن ولا في إمكاني نشر كل ما سجلت من يوميات، وحسبي أن أستعرض جوانب من هذه الرحلة»¹، «لذلك يعالج زمن الحدث الروائي إما بتطويل شديد أو بقفز سريع، أو بتلخيص حسب معطيات النص»². وعلى ما تقتضيه صنعة وقوانين التأليف.

فهذه الرحلة كذلك لا تختلف عن سابقتها من حيث التسجيل، فكان يقيد المشاهد ويسجل المناظر ذات الخصوصية ثم يقوم بفعل التنسيق، والحذف الكثير فما سجله كثير لكن ما نشره في الرحلة جزء منها، وهناك زمن فاصل بين فعل السفر وفعل الكتابة، فلا شك أن المراجعة والتنسيق تأخذ وقتاً كبيراً حتى يخرج العمل الفني إلى النور، كما حظيت هذه الرحلة بشيء من الاهتمام على غرار سابقتها فهي ليست أي رحلة بل ليست أي بلد أو قرية إنها أم القرى، والأرض الطيبة التي شرفها الله سبحانه وتعالى.

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 236.

² - مها حسن قصرأوي: الزمن في الرواية العربية، (مرجع سابق) ص 39

2. زمن السرد في رحلاته الداخلية.

وفي رحلته إلى الخنقة؛ فعلمنا فعله في الرحلات السابقة فعله كذلك، ففي كل الحالات يسجل الغث والسمين ثم يخرج لنا عصارة جهده في حلة جميلة ومنسقة، فهناك أخبار واقعية في هذه الرحلة مؤرّخ لها بالزمن الطبيعي بالقرب منها، وهناك أخبار شفوية فقط، لذلك كان عليه أن يراجع وينسق بين هاته الأخبار، غير أنه لم يفصل كثيرا بين زمن السرد وزمن الرحلة، كانت الرحلة يوم 08 فبراير 1980 بينما كنت الكتابة يوم 25 فبراير من السنة نفسها.

أما رحلته إلى ميزاب لا يتمكن الدارس من التفرقة بين زمن السرد وزمن الكتابة والتنسيق، فهناك تتابع منطقي وتسلسل زمني مطابق لزمن الرحلة، فهو يسرد أحداث ماضية ولكنك تشعر وكأن هذا الحفل أقيم اليوم، بل تتخيل وقوع الأحداث أمامك فتشاركه ذلك الحفل، والعلاقة بين عناصر هاته الرحلة قائمة على التتابع الزمني في سيرورة الأحداث.

مما سبق؛ نخلص إلى أن للزمن أهمية كبيرة اكتسبها من خلال موقعه في الدراسات الأدبية الحديثة خاصة السردية منها؛ لأنه أحد مكونات السرد الأساسية، فالكاتب أصبح يوظف الزمن توظيفا جماليا، فقد يعود للماضي ليختار لحظة تملأ الحاضر، مما يجعلنا نعيش ذلك الماضي في الحاضر، وهذا ما يعطي فن الرحلة أدبيته وفنيته وشعريته.

إنّ الأزمان في الرحلات واضحة البداية والنهاية، والرحالون ينجزون أفعالهم داخلها، وهم على دراية بمشروعهم مما يجعلهم يعدون المادة التي تستحق الكتابة، فيعرضونها على غيرهم أحيانا ملتجئين من القراء التشجيع أو التوجيه، حتى إذا أنهى عمله يعمل على تنسيقه ومراجعته ومن ثمّ نشره.

2.3.4. الوقف:

ونقصد به أن الرحالة أحيانا يقف أثناء رحلته ليعرض بعض المواقف، أو ليصف مركبه، أو ليصف بعض الشخصيات، أو بعض المسائل التي ناقشها مع زملائه، ويغلب على رحلات سعد الله طابع الوصف، فكل شيء فيها يغدو قابلا للوصف، وسوف نستعرض بعض النماذج.

ففي الرحلة المغربية يبدأ بوصفة لمدينة الرباط إذ يقول: «وبدأت أنوار المدينة تتلألأ بعضها يشكل أسهما وبعضها ينافس نجوم الليل، وكانت الألوان المتعددة والأشكال الهندسية المتنوعة تكاد تخطف الأبصار، وهي من دلائل التأثير على المارة، ولكن مثلي لا يستطيع الحكم على هذه المدينة عندئذ فأنا لم أرها نهارا... وستتاح لي زيارة هذه المدينة الكبيرة أثناء الرحلة»¹، نلاحظ في هذه الوقفة أن الوصف كان أساسا لها حيث وصف لنا الرحالة حالة الرباط في الثلث الأول من الليل وجوه المفعم بالحركة، والمزین بالأضواء في كل أركانه.

كما وقف في رحلته الحجازية عند مدينة الرياض، فوصف بعض جزئياتها في صورة أشبه ما تكون بشريط مخزون في الذاكرة، أتحننا به حين وجد الفرصة مواتية، ومن خلالها عرض لنا المظهر الشامل للرياض حيث يقول: «وفي مساء أحد الأيام تجولنا في مدينة الرياض، فإذا هي عاصمة كبيرة تمتد على مساحات شاسعة تتخللها الشوارع الواسعة الطويلة، والأشجار الباسقة... كما يشاهد المرء فيها المباني الحكومية الفخمة، والعمارات الشاهقة، التي تنسيك أنك في صحراء نجد... الخ»²، وتخلل هذه الرحلة وقفات أخرى كالمزارات، والمساجد، ويهتم بأسوار المدن وآثارها وما آل إليه

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة (المصدر سابق)، ص 206-207.

² - المصدر نفسه، ص 245.

أمرها، فهو يستحضر الماضي البعيد ويقارنه بالحاضر المتطور والعجيب، فالمنظر الساكن يتحول إلى منظر مجسم ينقل إلى القارئ الانطباعات التي تنقلها اللوحة الفنية.

وكذا الوقفة التي وصف لنا فيها مولاي الطاهر بقوله: «مولاي الطاهر الذي قضى ردها من حياته عاملاً بقسم الوثائق (المخطوطات) عارفاً بالموجود من المخطوطات والمفقود منها، وهو لا يبخل بمعارفه، ولا يتوقف عن فلي البطاقات وتسجيل الأرقام، متصرفاً تصرف من هو على يقين بأنه أمين على أشياء ثمينة، وإن تلفها خسارة لبلاده وللعلم في آن واحد...»¹، والوصف في هذه الوقفة لا يتوقف عند حدود الملامح الفيزيولوجية؛ وإنما يلجأ إلى الغور في بواطنها والكشف على ما تحويه أعماقها.

إضافة إلى الوظيفة التصويرية؛ يوضح لنا مشاركة الشخصية في تفعيل الأحداث وحركتها، ومثال ذلك ما قاله عن زميله عبد الكريم كريم: «وعندما عرف أنني حديث عهد بالوصول إلى المغرب أخذني في جولة على الأقدام، فأراني مرتفع من المدينة... وحرارة اليهود القديمة، وشارع سيدي فاتح...»²، فوصفه هنا يتعدى الأوصاف البشرية المعهودة، بل هي شخصية فاعلة ساهمت في تفعيل أحداث الرحلة وحركتها.

ومن اهتمامات أبي القاسم سعد الله؛ الوقوف على الأضرحة والقباب، مما يجسد لنا نوعاً آخر من المكان بعد رحلة أهلة، وتعاقب الأحداث عليه وتغيير معالمه ففي رحلته إلى خنقة سيدي ناجي؛ ذكر حسن أحكامها وإبداع صنعها وما آلت إليه لقدم عهداً بوصف بصري قريب من الموصوف، قائلًا عن قبة ضريح سيدي مبارك: «وتوجد لوحة خشبية عند ضريح الشيخ عليها كتابات بالسّمق في اتجاهات

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 209.

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (المصدر السابق) ص 215.

مختلفة، ويبدو أنّ الزوار كانوا يسجلون بيتاً، أو حكمة، أو دعاء... حتى أسأؤوا إلى السطور الأصلية¹ «أما ضريح عبد الحفيظ فهو معتم ورطب وهو نفسه تحفة أثرية عليه سبحة ضخمة ذات حبات بنية اللون... إلخ²، فوقفت الرحالة تدور حول نقطة واحدة، لكن عين السارد تنظر إليها من جهات متعددة حتى ينقل الصورة بدقة متناهية، أدمجت فيها النظرة الموضوعية مع الذاتية، مما يجعل القارئ يعجب بالصورة المنقولة له.

ومما أشار إليه الرحالة وأثار دهشته، وتفردت به ميزاب هو العزّابة، ومجلس عمي السعيد الذي يمثل هيئة عليا يحتكم إليه الناس، مروراً بمعهد الحياة الذي لازال نبضه المعرفي يسطع على المستوى المحلي وحتى الوطني، متمثلاً في العلماء الذين تخرجوا من هاته المدرسة، أو شكّلت لبنتهم الأولى، والأجمل من ذلك كله حديثه عن الحفل الذي جمع بين الأصيل والتراثي، أتحننا من خلاله بأطباق شهية تسلب الفؤاد وتأخذ اللب ابتداءً من عبيق شذاها الفواح بالكلمات الترحيبية، مروراً بما تضمنته من محشو بداخلها من مداخلات دسمة، وصولاً لتأثيرها الإيجابي على الحضور لا محالة فهذه وجبة صوتيات سيبويه، وما أحوجنا للعودة للأبجديات التي رست عليها اللغة، ثمّ وجبة الشعر الفصيح الذي يجعلك تتخيل أنك في سوق عكاظ فيقول عن ذلك: «فالقوم لا يزالون على عهدهم بالشعر الجميل والنثر الجزيل، يحسون بوقع الكلمات وموسيقى النبرات وجلال المقاطع»³، وغيرها من الوقفات التي ارتشفنا من معنيها رغيفاً معرفياً شهياً ولأنّ البنيان مرصوص وأساسه محكم غير منقوص، كان إطلاق الألسنة بالأدب الرفيع والأخلاق الكريمة، والتغني بالوطن والعروبة.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) ص 262.

² - المصدر نفسه، ص 363.

³ - أبو القاسم سعد الله هموم حضارية، (مرجع سابق) ص 69.

4.2. جماليات الأسلوب واللغة

إنّ اللّغة كما هو معروف نظام متكامل متعارف عليه من الرموز التي يتفاهم بها الناس، غير أنّ الأمر في الرّحلات التي بين أيدينا يتجاوز ذلك، فهو يشمل بناء الجمل والتراكيب والألفاظ والخيال والموسيقى، وللحديث عن لغة الرّحلة لابدّ لنا أن ندرك أنّ «الرّحلة نص مهجّن التّفّت فيها الأصوات، واللغات، وتجاوزت عبر مستوياتها المرويات والخطابات»¹، فتداخلت فيها النصوص الجغرافية، والتاريخية، واللغوية، والأدبية والدينية... وهلمّ جراً، من النصوص التي تحضر في هذا الخطاب التفاعلي السردّي، إنّ اللغة هي الحامل لأفكار الرّحالة ومضامين كتابته، وهي الوسيلة التي تميز الأدب عن غيره من الفنون، لذا على الكاتب أن يوظّفها أجمل توظيف ليبتكر من خلالها عوالم جديدة، وفي هذا المقام نميّز بين عدة عناصر في البنية اللغوية للرحلة وهي:

1.4.2. المحسنات البديعية والصور البيانية:

تتميز معظم الرّحلات بلغة تتعمد التأنق وتترين بالحلى الأسلوبية مهذبة المعاني والألفاظ، فجاءت لغة النصوص فصيحة مناسبة لرسم معالم الحدث الرّحلي ونقل حواراته، وعلى بساطتها إلاّ أنّها كانت عميقة، مما حمل النص بمحمولات جمالية ودلالات فنية متعددة جعلته يفتح على قراءات مختلفة، لذا نجده وظف بعض عناصر اللغة التصويرية والإبداعية؛ مما يجعلك تتذوق نشوة الجمال والإحساس بالمتعة ومنها.

أ- المحسنات البديعية:

يحفل أدب الرّحلة عموماً بالمحسنات البديعية والتصوير البياني باختلاف أصنافه أما البديع فلا يرد بكثرة في نصوص سعد الله إذ كان أبعد ما يكون من أصناف الصنعة اللفظية، لذلك تكاد تخلو نصوصه من السّجع أو الجناس وغيرها ومن أمثلة ذلك

¹ - عبد الرّحيم مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء، سنة 1996م، ص6.

الجناس في قوله: «ولعلي أقدمه في مناسبة أخرى بشكل أبجدي يفيد المستفيد ويستزيد منه المستزيد» فهذا التجانس بين مفردتي المستفيد والمستزيد يحدث نغما موسيقيا ناتجا عن التوافق الإيقاعي واللفظي للكلمتين، وهذا ما يعطي الرحلات نوعا من الشاعرية ويعطيها شحنة التعبير الجمالي، أما السجع فيظهر من خلال قوله: «أما الزيارة الثانية فقد جمعنا فيها لذيذ الطعام وشهي الكلام»¹.

كما وظف المقابلة التي كانت بؤرة الرحلة بين الجمل: وعندنا عائلات مغربية ~~هو~~ عندهم عائلات جزائرية، وقد اختلط منظر الأحياء السابحين بمنظر الأموات الهامدين.

ب- الصور البيانية

إن لغة أبو القاسم غنية بمفرداتها وبعدها البلاغي الجميل، بدءا مما هو مألوف من استعارات وتشبيهات، وكنيات فيها من دقة التصوير قسط كبير ولغته إيحائية غاية في الدقة، بالإضافة إلى جمالية الترادف والتعدد اللفظي، والتوازنات اللفظية والتركيبية وتساق الجمل، أما المستوى الاستعاري نجد صور جذابة يسحرك أسلوبها الجزيل، وقد برع في تعبيره الجميل عندما قال: «كتبت يوميات صببت فيها مشاعري ومشاهداتي»، إذ شبه المشاعر وهي شيء معنوي بالماء أو أي شيء يصب، فحذف المشبه به الماء المصبوب، وبدلا عن ذلك جئنا بكلمة تدل على المشبه به المحذوف وهي: صببت، وهي استعارة مكنية.

ويقدم حالة الجو الخانق في وصف جميل، تتجسد فيه الاستعارة المكنية لما يقول: «وفي أحد أيام الأحد غضبت شمسه وكثف ضبابه واشتعلت حرارته»²، فعبر عن

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (المصدر السابق)، ص 224.

² أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (المصدر السابق)، ص 228.

تواري الشمس وراء الضباب بلفظ الغضب ليستعيره من الإنسان، ويطلقه على الشمس للدلالة على تغير حالها، ومع احتجابها إلا أن حرارتها كانت مشتعلة.

ومما زكى جذوة الجمالية وأضفى على الرحلات تأنقا في الذوق، وكمالية في المعنى الكناية ومن ذلك قوله: "سقط الليل" كناية عن حلول الليل وقدمه فهناك معنى خفي وهو المقصود وهو الظلام، وفي موضع آخر من نفس الرحلة، ولم يسلم باب الضريح وهو نفسه تحفة أثرية، كناية عن روعة وجمال هذا الضريح، وفي رحلة ميزاب "كان الطريق غاصا بالضيوف"، فهي كناية عن امتلائه بالزائرين الذين حضروا حفل التابئين.

التشبيه في قوله: "والسقر بالنسبة لي كالماء والهواء"، إذ شبه أهمية السقر عنده مثل حاجته للماء والهواء، فهو لا يستغني عنه ولا بد أن يسافر ولو داخل الوطن، يبرز أيضا في قوله: "تطل منه المنازل البيضاء الناصعة كأنها بقايا كتبان الثلج في غابة من غابات الشمال"، أي من شدة بياضها الناصع ووقوعها بين الأشجار، فهذا التشبيه الجميل يضيف على النص صبغة جمالية، فاللون الأبيض دلالة على الأمل والحياة فيتراحم النقاء والصفاء والرونق الأبيض، لتضفي البهاء والجمال على المكان.

وفي موضع آخر "اندفع الناس بلهفة إلى الماء فكنت تراهم كما ترى أسرابا من سمك السردين، أو أمواجا من الطيور السابحة فوق الماء"، حيث شبه كثرة السواح حول المحيط بقطعان من السمك أو الطيور.

وفي الرحلة الحجازية؛ في قوله "وتحجر النوم في العيون حتى أصبح كالرصاص أو أشد منه ثقلا"، حيث شبه التعب الذي أصابهم من قلة النوم بل من عدمه بألم الرصاص في الجسد.

كما لا يختلف التشبيه بالأداة (كأنه) عن التشبيه بعبارة تتخيل أنك فقامت بهمة كاف التشبيه، بمعنى يتمثل إليك فقد تعامل الرحالة مع هذا النمط البلاغي الجميل بحدائثة وتجديد وتكيف الأمثلة مع الواقع والعصر، ومن الأمثلة على ذلك في حفل تأبين القرادي تبارى المتكلمون طيلة الصباح، فالشعر يجعلك تتخيل أنك في سوق عكاظ، والنثر يذكرك بعهد الجاحظ والمبرد وأبي علي القالي، ولو بحثنا عن سوق نافقة في الجزائر المعاصرة لوجدناها في ميزاب.¹

كما يتحدث عن روح التعاون التي تسود المجتمع الميزابي، وهذا الترابط يجعل مجتمع ميزاب كخلية النحل نشاطا وتماسكا وتفاعلا، فشبّه مجتمع ميزاب في ترابطه وتماسكه وانسجامه بخلية النحل التي لا يمكن فصلها وإذا فصلتها كسرتها، إذن هو لا يقبل الانفصال والتشتت.

كما نلمس في لغة الرحلة عموما جمال اللفظ وحسن التعبير وخاصة عند الوصف الذي يرتقي ويسمو حتى يبلغ به درجة كبيرة من الدقة والتفصيل، ويظهر الوصف بنوعيه المادي والمعنوي كعنصر من العناصر الفنية التي تؤدي دورا كبيرا في بناء النص الرحلي، ومن أمثلة الوصف المادي «رأيت شخصا كبير السن طويل القامة أبيض البشرة يرتدي ثيابا مغربية خفيفة بيضاء وحذاء أصفر جالسا في ناحية، يرتفع صوته إذا تحدث»²، فأعطى لهذا الشيخ صورة ظاهرية تتناسب مستواه، أما الوصف المعنوي فهو أقل حضورا في النص الرحلي لانحسار الحاجة إليه في الغالب طول الرحلة، وما كان منه ضروريا فقد أحسن سعد الله توظيفه خاصة عند وصف بعض الشخصيات التي التقى بها، ومن هؤلاء محمد المنوني الذي يعرفه: «معظم المثقفين حيا عاملا في

¹ - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية (مصدر سابق)، ص 69

² - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) ص 208.

صمت... مؤلفا باحثا خبيراً في المخطوطات وأستاذ في إحدى الثانويات»¹، وبهذا جمع الرحالة بين صفات المنوني كالحياء والشهرة والهدوء، وبين عمله الدؤوب وخبرته في عبارات موجزة وافية بالعرض.

2.4.2. الاستشهاد:

ولتجميل الرحلات استعمل بعض الأبيات الشعرية في رحلاته، فأحيانا يأتي ببيت شعري للاستشهاد على موقف معين، وأحيانا أخرى لتذكر موقف ما، ومن ذلك:

تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد²

فاستشهد بهذا البيت على فائدة السفر العظيمة التي تحقق فوائد جمة.

ولما رأى المستعرب الروسي الذي جاء إلى المغرب للاطلاع على نسخة نادرة من ديوان المتنبي الذي يقوم بتحقيقه؛ تذكر هذا البيت الشعري من شعر المتنبي:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم³

وأتى بهذا البيت هنا لأنّ الشعر في الرحلة تأكيد للكلام، وإيضاح للمعاني.

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفسا إذا حكم القضاء

فاستشهد بهذا البيت عن حكمة القضاء والقدر، ولا بدّ علينا بالرضى بما قدره الله سبحانه وتعالى علينا دون تدمير.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 213.

² - الإمام الشافعي: الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس ديوان الإمام الشافعي، مكتبة بن سينا للنشر ط2، القاهرة 2015م، ص 159.

³ - أحمد بن حسين الجعفي المتنبي أبو الطيب ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، ط1، 1403هـ/1983م، ص 444.

كما استشهد بهذا الجزء من الحديث الشريف: «كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»¹، فاستشهد بهذا الحديث عن تلاحم وترابط أهل ميزاب المتين الذي لازالوا محافظين عليه، وحضور هاتين الخاصيتين عند الرحالة لدليل على براعته في نظم الشعر، وسعة اطلاعه على تأليف الغير، ولجونه إلى الاستشهاد لإبعاد جو الرتابة الحاصل في السرد، ولإيناس القارئ بآيات من القرآن الكريم والحديث الشريف وأبيات من الشعر، وتتجلى جماليته في حسن الربط والتأليف، ومراعاة المقام ومقتضى الحال.

وينتقل بنا الرحالة في رحلته بلغته الفصيحة المتشججة بالطابع الرومانسي الحالم والجو العاطفي الدافق مع مهارته التي جلبها من المحيط وكأنه يتكلم عن امرأة حقيقية حين يقول عنها "ولا شكَّ أنّها تعذّبت خلال إقامتها معي، ولكن الحب أيضا عذاب كما أنّ الموت عذاب.

3.4.2. التناس:

في قوله "ولقد مرت بنا سبع سنوات عجاف حتى أن أحد منا لم يصعد صومعة المسجد للأذان" مع قوله تعالى «سَبَعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عَجَافٌ»²، أيضا في قوله حافظوا عليها بالنواجذ مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «عضوا عليها بالنواجذ».

4.4.2. الشبكة الضمائية:

لازمَ الرحالة ضمير المتكلم "أنا" المعبر عن ذاته «خرجت، توجهت، أفهمني قضيت، التقيت، رأيت، قادتني، أخبرني، لفت انتباهي، اقتضتني...» وغيرها من ضمائر المتكلم الدالة على صدق التجربة الشخصية وعلى الذات الباحثة والفاعلة. كما أنّ هذا التنوع بالضمير "أنا" والذي تجلّى بحالات إعرابية متعددة كالفاعل والمفعول به؛

¹ صحح مسلم: الإمام مسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم الحديث 2585، 1999/4.

² سورة يوسف: الآية 43.

يكشف عن شخصية الرحالة وعن الوصف الموضوعي له ومكنه من التنقل بحرية من الحاضر إلى الماضي القريب.

كما يتيح هذا الضمير للرحالة استمالة المتلقي نحوه وتشويقه، ذلك أن البوح عن المشاعر بصوت صاحبها تكون أكثر تشويقاً وأدعى للتفاعل مع صاحبها ودخول الراوي بشخصيته كطرف في القضية، وفي التجربة الفنية بوجه عام يجعلنا نرى التجربة من خلال عينيه ونحكم على الأشياء من خلال حكمه عليها، وهذا ما يجعل التجربة أكثر موضوعية، ويحيلها على اختيار ذاتي، قد يكون رائعاً وصادقاً.

كما استعمل ضمير المتكلم "نحن" المعبر عن ذاته "أنا" وعن الآخر المرافق له ومن ذلك «وصلنا توقفت بنا، جمعتنا، ونعتقد، سمعنا تجولنا دخلنا...»، ومنه نلاحظ المزج بين ضمير المتكلم وضمير الجمع، أو بتعبير آخر المزج بين التجربة الشخصية والتجربة الجماعية، وهذا لأن الرحالة في هذه الفكرة لم يكن بمفرده، بل بمعية زملائه من الوفود الذين حضروا الندوة معه.

5.4.2. سلاسة الأسلوب:

لقد نحا أبو القاسم منحى سابقه من العلماء، متوسلاً في ذلك لغة فصيحة، وعبارات واضحة، مع أسلوب جزل، سهل ممتنع، يأسر القارئ سحراً وجمالاً، ويرهف أحاسيسه ليجد اللذة والمتعة في آن واحد.

جاءت أساليب الرحلات سلسلة خالية من تعقيدات التركيب وألفاظها مألوفة للجميع ولا يستغلق فهمها على أحد من القراء، رصينة وجزلة ودقيقة، لأن الكاتب يريد أن ينقل ما رآه بدقة وموضوعية ووضوح، وغلب الأسلوب الخبري وحضر الأسلوب الإنشائي قليلاً من خلال منها أسلوب النفي: في قوله في رحلته المغربية: لا تتساق ولا تفنن أسلوب، وفي موضع آخر: لا يبخل بمعارفه بل لم يبخل علي بسيارته، وفي رحلته

الحجازية استعمل أسلوب الاستفهام حين يقول: «ومن يستطيع أن يزور السّعودية دون التعرّيج على الحرمين الشريفين؟ ثم من يزور الحرمين الشريفين أوّل مرة ثم لا يسجل ما تركاه في نفسه من أثر؟»¹ وغيره من الاستفهام الذي أضفى على النص رونقا وجمالا.

اعتمد أيضا الأسلوب المباشر الذي برز من خلال محاكاة المرئي قبل المحكي عنه، في مواطن متعدّدة من هذه الرّحلة؛ بدءًا بوصفه لرجال العلم والأسانذة «كا محمد إبراهيم الكتاني عضو فعال في الخزّانة يستفيد منها وتستفيد منه... زرتة في اليوم الموالي فوجدته محاطا بأكداس من المخطوطات، حتى خيّل إلي أن الكتب هي طعامه وشرابه وكساؤه، كان كثير الاطلاع على حركة حزب الشعب والحركة الإصلاحية بالجزائر، وعلى العلاقة بينها وبين رجال الإصلاح في المغرب، وكان له شخصيا دور في ربط هذه العلاقة»²، ثم يسترسل في حكي رحلته وأحداثها.

6.4.2. توظيف أسلوب الجمل الفعلية القصيرة.

هناك حضور واضح للفعل الماضي الذي ينقل الحدث ومن ذلك: وأطلعني الكتاني على نسخة من رسالة كان المرحوم الإبراهيمي قد أرسلها إليه... وأهدى إلي الكتاني نسخة من كتاب عبد الله منصور... لم يبخل علي الزميل كريم بعلمه... وأفهمني أن عطلته الصيفية تبدأ يوما الفاتح أغسطس، ورأيت في المكتبة شخصا طاعنا في السن طويل القامة أبيض البشرة... وتعرفت على الأستاذ محمد حجي، فكلها جمل فعلية قصيرة لكنها أفادت المعنى التام.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص 236.

² - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) ص 211.

ومنها أيضا كنت قد تعرفت على عباس الجراري في دمشق سنة 1971... أتاح لي الجراري فرصة التعرف على نواحي كثيرة من المغرب... ورافقني صديقي الجراري مرة لزيارة محمد بن عبد الله مدير مجلة دعوة الحق اتصلت جامعة الرياض بدعوة للمشاركة في الندوة... شرعت في الاستعداد الروحي والمادي معا، بدأت تسجيلاتي من مطار الجزائر ذهابا إلى مطار جدة عائدا، وغيرها ما الجمل الفعلية التي تدل على الاستمرارية في الزمن، وأضفت على النص لونا رائعا وصبغة جميلة.

وهذه الجمل القصيرة جاءت متوافقة مع الحالة الشعورية التي يعيشها الرحالة، وهي شدة الإعجاب بالتقدم العلمي والتكنولوجي للمغرب، والشوق واللهفة للزيارة المكتبات والاطلاع على أمهات الكتب المختلفة المخطوطة منها والمطبوعة.

وقد تستعمل الجمل القصيرة أحيانا تلخيصا لأحداث كثيرة وقعت في الماضي وعتبة لأحداث تالية، ومثال ذلك: «أما اطلاعي وقراءاتي في المخطوطات الجزائرية فإنني لم أذكرها الآن مؤملا أن أفرد لها دراسة خاصة قريبا»¹، ويقول في رحلته الحجازية: "وقد تجمع لدي من ذلك كراسة لو نقحت وطبعت ل جاءت في مجلد وسط، وليس في إمكاني الآن نشرها"².

7.4.2. غلبة الأسلوب الخبري التصويري.

في نقله للأحداث والأماكن التي مر بها؛ فهو الأنسب لنقل الحقائق الواقعة والمشاهدات والمرويات، فالخبر يطبق على كل الأنماط خاصة السرد والوصف، وهما الغالبان في نص الرحلة، ومثال ذلك: «وفي وسط الشارع حدائق غناء تكسوها الخضرة، وتعلوها الأشجار الباسقة، وتتفرع منه شوارع

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق) ص 204.

² - المصدر نفسه، ص 236.

تحمل أسماء المدن العربية»¹، وشاهدنا من ذلك أيضا في رحلة الجزيرة كيف وسع الحرم وكيف سيوسع في المستقبل، ويجري الآن هدم بيوت قديمة كاملة حول الحرم وتعويض أهلها لتوسيع الحرم توسيعا كبيرا²، فتداخل اللغة الإخبارية مع التصويرية المرتبطة بالطبيعة الحية، لهي نقلة نوعية تميز عمل رحالتنا، ويبدو تصوير الرحالة للبلدين تصويرا شاعريا عذبا يفيض بالبهجة، ويمتلئ بالحركة والحياة، ويخرج فيه الرحالة إلى إقناع القارئ ودونما إشكال يلقاه، ويظل معتمدا في نفسه بعد الانتهاء من القراءة.

وقلما يوظف الرحالة الإنشاء إلا ما كان عفويا بدافع الضرورة، كالاستفهام في قوله: «يا أخي متى تعربون جواز سفركم؟ ألم تخرج فرنسا من عندكم؟»³ فالغرض من هذا الاستفهام هو التعجب والإنكار للفرنسية التي مازالت تلقي بظلالها على جواز السفر الجزائري، بالإضافة إلى النداء الذي وظفه في قوله: «يا أهل الشام شامكم ويا أهل المغرب مغربكم»، فالرحالة خص أبعاضا من الناس، وينادي كلا منهما على حدة، مما يعبر عن حالته النفسية وهو يودع الحرم، ويكشف عن نجواه القائمة على تشخيص عنصر بنائي قادر على التعبير عن مشاعره المختلطة بين الرغبة في البقاء بالحرم وبين رغبة الرجوع إلى الأهل والخلان، وهذا العنصر هو العاطفة ذات القدرة العالية على الإيحاء بهذه المشاعر.

¹ - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 208.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 250.

³ - المصدر نفسه، ص 255.

8.4.2.أسلوب التكرار:

فقد كرّر بعض الكلمات والجمل لتأكيد المعنى وتوضيحه، مثاله تكرر جملة:بحرية مطلقة بحرية مطلقة، وإما أن يكرر اسما من أسماء شخصيات الرّحلة، وهذا دلالة على مكانته العلمية والأثر الفعال لهذه الشخصية أثناء الرّحلة، ومثال ذلك: عبد الكريم كريم الذي يقول عنه: و"عند خروجي من المكتبة صادفت عبد الكريم كريم"، وفي موضع آخر "وكننت قد تعرفت على عبد كريم كريم في الربيع الماضي"، ولم يبخل علي الدكتور كريم بوقته وإمكانياته" وكما لم يبخل علي الدكتور كريم بعلمه لم يبخل علي بطعامه،لاشك أن لهذا الرجل أثراً فعالاً وللتأكيد على ذلك تكرر اسمه في الرحلة.

9.4.2.أسلوب تساوق الجمل والتراكيب:

فهو من العناصر الجمالية في الأعمال النثرية ويصطلح عليه التوازي البلاغي، وهو أن تتوازي جملتان من حيث حملهما معا لعناصر متشابهة ومختلفة¹، ومن ذلك قوله جلسة هنا حول الشاي، وجلسة هناك حول العشاء، وفي رحلة الخنقة وكانت المدرسة تحتوي على خمس عشرة غرفة، وتضم كل غرفة من خمسة إلى عشرة طلاب، فوظف الرحالة من خلال هذه التقنية أسلوب التدرج التنازلي مما جعل التركيب رقيقا جذاباً.

10.4.2.فصاحة اللغة:

جاءت لغة الرّحلات في غالب النصوص مباشرة واضحة، و سهلة ومفهومة لجميع القراء،خالية من التعقيد والألفاظ الصعبة وفصيحة،ويتضح ذلك في حسن بيانه وجودة عباراته وقدرته على الإيجاز غير المخل في

¹ ينظر: إدريس الكريوي: بلاغة السرد في الرواية العربية،(مرجع سابق)، ص213

التعبير والدقة في اختيار الألفاظ، فلا تقع له على تقطُّع ولا تقعر في المفردات ولا تكلف في الأسلوب.

ولم يستعمل اللغة الأجنبية واللغة العامية إلا نادراً، ومن الألفاظ اللهجية التي وردت في الرحلتين لفظة (بود، التربيعة) وهي ألفاظ من اللهجة المغربية، وهي قليلة إذا ما قرنت بالألفاظ الفصيحة، أيضاً لفظة زنقة وهي لفظة من اللهجة الجزائرية والمغربية، أما الألفاظ الأجنبية فقد ذكر لفظة (فيلات) ويقصد بها البيوت المتطورة ذات الطابقين، ولفظة (فيات) وهي اسم لنوع من السيارات.

يتكوّن النسق اللغوي للرحلات من أفعال وأسماء مفاعيل، وحروف الجر وجمع المذكر السالم، والمضاف إليه وغيرها من الأنساق اللغوية المختلفة، مما عزز تلاحم مستويات النص وحكم بناؤه.

11.4.2. تراكم الأفعال:

جاء تراكم الأفعال في الرحلة بشكل جميل، يجسد الكاتب من خلاله دور الثقافة والبحوث العلمية الثقافية والمكتبات، ومجالسة المثقفين في إثراء خزينته العلمية، ويحث القارئ من خلالها إلى فضول الكشف أكثر بزيارة الأماكن المذكورة، وبهذا يتطابق الفكر والإبداع ويتطافر التاريخ النظري والتطبيقي الذي يعكس ثقافة الكاتب، وشخصيته المتصفة بصفات جمّة، وهذه بعض الأمثلة للأفعال الماضية، تعرّفت على أحمد العلوي، ومحمد الروداني وقد رحبوا بي أحرّ ترحيب، وفتحوا لي أبواب المكتبة، وأمروا العمال بوضع

جميع الكتب تحت تصرفي، ودار الحديث بيننا عن المكتبة وتنظيمها الجديد، وعن الحركة الفكرية في الجزائر.¹

فخمسة أفعال ماضية متتالية جاءت لتجلية أثر مجالسة أهل العلم في شخصية الكاتب، بالإضافة إلى الإحساس بحب الوطن والاهتمام بالحركة الثقافية فيه، فجمع هاته الأفعال تؤكد جهودات الكاتب في جمع المعلومات الخاصة بكتابه تاريخ الجزائر الثقافي وغيره من الكتب التي ألفها.

وفي فقرتين متتاليتين يأتي التراكم الفعلي للمضارع لأهداف فنية تخدم الكاتب وتجسد عبقريته في سبر أغوار رحلته، وتصوير تفاصيلها ومثال ذلك قوله: وبهذه المناسبة أذكر أنني سمعت سعوديا كبيرا... يشكو لأحد المشاركين في الندوة قسوة المعاملة التي خضع لها شخصيا في مطار الجزائر، ويقول في الفقرة الثانية، ولا نكاد نصدق غير أنني شاهدت بنفسي.²

فجاءت هذه الأفعال لتجسد حركية سير الدخول والخروج لمطار الجزائر الدولي وتصرف الشرطة مع القادمين من الخارج، فمن الأحسن أن يقابل القادم من السفر بالبسمة والفرح حتى نخفف عنه بغض وعتاء السفر، إذ أصبح السفر هاجسا للمسافر من جراء سوء المعاملة، وهذا ما جعل نفسية الشاعر أثيرة، تنتوزعها أحاسيس تتأرجح بين الوفاء والإخلاص والتأنيب والرحمة.

ويتجلى التراكم أيضا عن طريق تداخل الأفعال الماضي بالحاضر، وفيها يتقابل فعل الشخصية مع الرؤية، ومن ذلك: ونظرت هنا وهناك فإذا

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (المصدر نفسه) ص 220

² - المصدر نفسه، ص 237.

الخنقة خلافا لمدن وقرى القطر الأخرى إذ لم يبق فيها إلا عدد من السكان... على أن قصر زيارتي لم يسمح لي بالتوسع فيها¹، فجاء التراكم لأفعال الزمن الحاضر الدال على الاستمرارية والحركة.

12.4.2. غلبة المشاعر الفياضة:

فحين التقائه بعالم أو شيخ أو أهل العلم كافة أو عند التقائه بطائفة لازالت محافظة على أصول اللغة، فتراه يطرب فرحا ويشعر بغبطة نفسية أثيرة ويصف شعوره فيقول: «المغربية لما التقى بزميله الجراري، وطاب الحديث وتشجن حتى شمل مواقف بعض علماء التاريخ في بلادهم، ويقول في رحلت الحجازية وتعرفت على مدير مكتبة الحرم المكي فوجدت منه كل المساعدة والتفهم والاستعداد العلمي، النفس مشوفة رغم الحاجة إلى النوم والطعام غير أن شعور المرء بأنه يمشي على الأرض التي ولد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وانهزم فيها الكفر جعل كل تعب يهون وكل حاجة دنيوية تتضاءل، وفي ميزاب وما رأيتيه وأحسست به في ميزاب جعلني مطمئن البال... الخ»، وهي مشاعر صادقة نابغة من فؤاد رجل يعرف قيمة العلم وفضله، وفضل أهله على البشرية.

13.4.2. الوسيط المرجعي (حوارية النص):

من خلال التصريح بالمصادر والمراجع المعتمدة في تكوين نص الرحلة، والاستشهاد بالنصوص الدينية واللغوية والشعرية التي أشرنا لها سابقا: كالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر.

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (المصدر نفسه)، ص 260.

وعموما نخلص إلى أن لغة هذه الرحلة هي لغة تواصلية تستخدم أنظمة متعددة لتقديم صورتين: صورة مكتوبة، وأخرى مسموعة، تميزت بالغنى والتنوع وباحتوائها على رصيد ثقافي لا حد له، واصفة الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية للبلدان التي زارها نسجت بأسلوب العلماء، وتناسخ في المبادئ والأفكار تمتاز بالبساطة والسهولة أحيانا وبالإيحاء تارة أخرى نقلت لنا تجربة الرحلة عند أبو القاسم سعد الله، بأسلوب دقيق وشامل، يحسننا كقراء بالحياة التي تشع في صفحات هذه الرحلات، كما أن الإطلاع الغزير للكاتب على الأعمال العالمية جعله يمتلك رصيذا لغويا وأسلوبيا لا تنتضب مصادره ولا تغور مياهه، على الصعوبات الجمّة التي لقيها في الكتابة حيث وصف الكتابة في الجزائر بالمعجزة، ومع ذلك أبدع وتفنن في الكتابة بطريقة منتقاة، وذلك لتمرسه بالكتابة والتقليد والتجديد، فيقدم لنا عملا متكاملا يطابق محتواه قلبه الذي قدم به «وجمع العلم من مختلف أطرافه، فهو شيخ العلوم الشرعية وعارف بدقائقها، لأنه خريج جامع الزيتونة، وهو شيخ الأدباء منذ شروعه في كتابة الشعر والقصة ونال التكوين الأساسي بدار العلوم بمصر، واكتسب اللغات الأجنبية في مراحل سعيه لطلب العلوم وارتقى إلى مشيخة التاريخ عندما أخذ هذا العلم من مضانه في أرقى الجامعات الأمريكية واحتك بفطاحل العلماء فأتقن المنهج»¹

ووفائنا لهذا الرجل المعطاء يكون عبر التوسع في مواضيعه بالنقد والتحليل والدراسة، وأيضا باستلهم أخلاقه العالية، وتواضعه، وما ميزه من الجد والانضباط في العمل.

¹ محمد الأمين بلغيث: أبو القاسم سعد الله بقلم أحبائه، (مرجع سابق) ص 245-246.

الفصل الثالث: أشكال التراث الثقافي في رحلات أبي القاسم سعد الله

1. التراث الثقافي الفكري

2. التراث الاجتماعي:

3. الموروثات الشفوية والمادية مقارنة بين رحلات سعد الله الداخلية والخارجية:

1. التراث الثقافي الفكري

يشكل التراث الثقافي لأيّ منطقة ما عنصراً مهمّاً، فهو رمزا للهوية والإنسانية الخاصة بالشعوب المختلفة، كما يساهم في تعزيز الروابط بين الماضي والحاضر والمستقبل بالإضافة إلى زيادة التماسك الاجتماعي والمساعدة على تعزيز السلام بين المجتمعات ولهذا كان لابدّ من بذل جهود مضيئة للمحافظة على التراث من الضياع وذلك باتخاذ أساليب علمية حديثة و يشمل هذا النوع من التراث الثقافي القطع الأثرية والتي تشمل اللوحات والرسومات والفسيفساء والمنحوتات والمعالم التاريخية والمباني والمواقع الأثرية، كما يشمل الصور والوثائق والكتب، والمخطوطات وغيرها.

والتراث الثقافي لانهني به تلك الرواسب والمخلفات الثقافية لماضٍ سحيق فقدت وظيفتها دون أن تكتسب وظيفة أخرى، لأنّ هذه النظرة الساذجة للموروث الثقافي تعمل على بتر التاريخ وتسلب حقه في التعبير عن الحاضر والتأثير فيه، وتجعله شيئاً من مخلفات الماضي السحيق.¹

والرحلة هي إحدى مظاهر مخلفات دراسة التراث الثقافي، وأهم مصادره التي اهتم فيها الرحالة بالتراث العربي عامة والمغاربي والجزائري على وجه الخصوص، كما اهتمت اهتماماً كبيراً بالناحية الثقافية، والهدف من ذلك هو التقرب من الفرد الجزائري وإمتاع فكره بنصوص ثرية بالمعلومات والأخبار .

وجدت الرحلة في التراث مادة خصبة لما يحويه من قيم إنسانية تحمل الهوية الحقيقية لكل أمة بعاداتها وتقاليدها، فالأديب حين يكتب لا ينطلق من العدم بل لابد له من الاستناد على مرجعية ثقافية وتراثية سابقة تسمح له بالتعبير عن هويته، لأنّ توظيف التراث يمنح العمل الأدبي الأصالة في صورة تجمع بين الماضي والحاضر والتطلع

¹ - ينظر: أحمد علي مرسي: مقدمة في الفلكلور، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1975م، ص46/45.

للمستقبل، وهو ما سعى إليه أدباء الجزائر ومن بين هؤلاء الكاتب الجزائري أبو القاسم سعد الله الذي لجأ إلى استلهم مختلف الأنواع التراثية في رحلاته المختلفة، والتي وظف فيها كل من التراث الثقافي، والتراث العلمي، والتراث الشفوي... الخ ولاعم الرحالة بين هذه الأنواع بما يتناسب وموضوع الرحلات وشخصها .

يرتبط التراث الثقافي بالإنتاج الأدبي والفكري والعلمي الذي خلفه لنا علماءنا ومفكروننا سالفًا قبل عصور النهضة، وقد حصره مجدي وهبة «في ما خلفه السلف من آثار علمية وفنية وأدبية»¹، وتشمل مؤلفات الأسلاف المنشورة والمخطوطة.

ومن العناصر الفنية التي وظفها الكاتب لتأثيث فضاء الرحلة وتزيينها؛ هو الحديث عن التراث القديم، ولذا سنحاول الوقوف على ما ورد في رحلاته من هذا التراث.

1.1 التراث الثقافي الفكري: مقارنة بين الرحلتين المغربية والجزيرة العربية.

الموروث الثقافي كنز الأمة، به تفرض وجودها وتثبت ذاتها، وتحقق طموحها، هو الأساس التاريخي للشعوب التي تمسكت بترائنها وتناقلتها وأعدت تكوينه لتعزيز الروابط بين الماضي والمستقبل، وهو ما أشار إليه أبو القاسم سعد الله في رحلته المغربية فسعى إلى رصد مجموعة من الكتب المطبوعة والمخطوطة والتي احتوت على زخم كبير من المعلومات التاريخية والأدبية والثقافية، والتي تعد نفيسا وروحا للعصر الحاضر وهي جزء من الحضارة الإنسانية، وإن كان الغرض من الرحلة هو البحث عن المخطوطات النادرة لكتابه تاريخ الجزائر الثقافي، إلا أنه ذكر المخطوطات الأخرى التي صادفته أثناء رحلة البحث عليها تهم الباحثين في المشرق والمغرب يقول عن ذلك «وقد ذكرت في آخر

¹ - مجدي وهبة: كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، (مرجع سابق) ص93.

هذا البحث بعض المخطوطات التي لم تكن تهمني مباشرة لأنني أعرف أنها تهتمّ بعض الباحثين في المغرب العربي والمشرق»¹.

وفي المكتبة بدأ بطلب المخطوطات الجزائرية التي تحوي معلومات عن كتابه تاريخ الجزائر الثقافي «بدأت بطلب المخطوطات الجزائرية التي وجدت منها هناك ثروة لا تقدر بثمن، وكنت أعرف أسماء بعض المخطوطات من قبل، وأعرف أرقامها في الخزانة، ولكن بعضها قد اكتشفته بعد ممارسة للبطاقات والتّعرف على ما تحتويه المكتبة من نواذر وذخائر»².

التقى الكاتب في الخزانة العامة بمجموعة كبيرة من الباحثين والمتقنين الذين جاءوا من أجل البحث والإطلاع، أو الاستزادة من بحر العلم، ومن الشخصيات التي التقى بها «الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة، الذي التقيت به عند خروجنا من المكتبة منتصف النهار وقد سبق لي أن عرفت الكتاني في مؤتمر كتاب المغرب العربي الذي انعقد في طرابلس بليبيا سنة 1969»، ومن مؤلفاته التي أهداها له زميله الكتاني وهي على التوالي:

أبو عبد الله بن المناصف المجتهد المغربي، فصل من مجلة الباحث عدد 02 سنة 1972.

العثور على الورقات الأخيرة من كتاب البيان لابن عذاري المراكشي، فصل من مجلة تطوان، عدد 10/1965.

سلفية الإمام مالك، دراسة في 39 ورقة.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 204 .

² - المصدر نفسه، ص 209

بمناسبة مرور عشرين سنة على تأسيس جمعية العلماء، دراسة في 08 صفحات،
واجب الأمة نحو تاريخها وأبطالها .

وأطلعته على رسالة من الإبراهيمي كان قد أرسلها له سنة 1936 يخبره فيها بأنه
يصدر تحقيق كتاب الكتيبة الكامنة لابن الخطيب¹، وكل هذه المعلومات مهمة للدراس
ووفرت عليه جهدا كبيرا، وسهّلت عليه مُهمّة البحث.

وكان لابد من رد الجميل لهذا الصديق الكريم الذي استكثر خيره عليه، فأهداه هو
الآخر نسخة من كتابه دراسات في الأدب الجزائري الحديث «لأنني أعرف اهتمامه بأدب
المغرب ورجال الإصلاح فيه»²، كما أنّ الكتاني واسع الاطلاع فأخبره بمعلومات قيّمة
عن تاريخ الجزائر منها حركة حزب الشعب بالجزائر وأخبره عن رجال الإصلاح
والسياسة في المغرب، وعمل على ربط العلاقة بينهما، كما أخبره ببعض خطط ابن
باديس إن طال به العمر، وعن الإبراهيمي³.

كما عرفه الكتاني على محمد حجي الذي نال الدبلوم في التاريخ عن الزاوية الدلائية
ودورها في تاريخ المغرب، فسأله أبو القاسم إن كان له علم بكتاب العكازين الذي ألفه
القسنطيني خلال القرن السادس عشر إذ جاء للبحث عنه⁴، واغتمت فرصة وجوده بين
المتقنين فراح يستفسر المنوني عن رحلة ابن طوير الجنة⁵ التي تحدث فيها عن الجزائر

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 210.

² - المصدر نفسه، ص 211.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص.ن.

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 212.

⁵ - الطالب أحمد بن طوير الجنة بن عبد الله بن أحمد صائم الحجاجي من قبيلة أيديو الحاج إحدى القبائل الموريتانية العريقة علما
وتعلما، كان فقيها نحويا منطقيا حسابيا، وقد توفي 1256هـ/1849م، بمدينة فاس بالمغرب وتاريخ ولادته غير معروف كان عالما
جليلا وشيخا صوفيا، أخذ عن الشيخ سيدي أحمد التجاني وكان عالم وادان وإمامه. من مؤلفاته فيض المنان في الرد على مبتدعة
هذا الزمان، رحلاته المشهورة المنى والمنة. أنظر: سيد أحمد بن أحمد سالم: تاريخ ابن طوير الجنة الحجاجي الواداني، منشورات
معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، 1995م، ص 26-29

في بداية الاحتلال، لأنه كان بصدد دراستها، فقد حل بالجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي وسجل انطباعاته عن ذلك، ولعل ابن طوير الجنة هو أول عربي مسلم قد زارها في ذلك التاريخ المبكر للاحتلال، فاستغربها المنوني ثم ذكر أنه يعرف من يحمل هذا الاسم "طوير الجنة" من مراكش لكنه لا يعرف شيئاً عن الرحلة، وفي المؤتمر الذي انعقد بالرياض سنة 1977 بادرنى الأستاذ منوني بعد السلام بأنهم حصلوا على نسخة من رحلة ابن طوير الجنة فشكرته على ذلك، ورجوته أن يصور لي نسخة منها، لكن علاقات بلدينا لم تسمح لكلينا بإنجاز الوعد¹، ورحلته المشهورة المسماة "المنى والمنة" تمثل شهادة مهمة في وقتها وهي نص طويل وصف فيه رحلته إلى الحجاز منذ أن انطلق حتى عودته إلى مدينة وادان ومدّة هذه الرحلة قاربت الستة أعوام، حيث انطلق عام 1245هـ ورجع عام 1250هـ، وفي هذه الرحلة معلومات هامة عن علاقات ابن طوير الجنة بصلحاء المغرب بفاس ومراكش والرباط، كما تحتوي على معلومات عن اتصالاته بالجزائر لما مر بها عام 1831 ومن ذلك قوله: «وقالوا لنا بعض أهل الإسكندرية أن سبب علو النصرى في هذه الأقاليم هو أخذ النصرى للجزائر، وقد تكلم الأولياء والصلحاء المتقدمون كثيراً في عبد الرحمان المجدوب فبت بجانب قبة مولاي إسماعيل وقال لابد أن نأخذ الجزائر، فإن أخذها الرومي هو الأول فإنه يأخذها الفارسي وتبقى في يده أبداً، وإن أخذها الفارسي هو الأوّل فإنه يأخذها الرومي وتبقى في يده وكان من أمر الله أن أخذها الرومي هو الأوّل في أوائل العام السادس والأربعين بعد مائتين وألف، وهذا الرومي هو جنس الفرانسييس من النصرى»²، وتحدث عن احتلال فرنسا للجزائر وعن معاملة الفرنسيين له، كما أشار في رحلته إلى تونس ومصر والحجاز، كما مر بالعديد من البلدان العربية وغير العربية واتصل بكثير من أعيانها من رجال العلم والحكم والسياسة.

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، بصدد حديثه عن رحلة ابن طوير الجنة ص 65/67.

² - الطالب أحمد بن المصطفى بن طوير الجنة: رحلة المنى والمنة (نسخة مخطوطة)، الناسخ الحاج عمر بن سيدنا الحاج عمر الحاجي، تاريخ النسخ 1253هـ، ص 43.

ثم ذكر بعض الكتب التي رآها في مكتبة الطالب عبد القادر المكناسي ومنها:

الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني، رحلة مشهورة وتحدث فيها عن أخبار رحلاته الثلاثة والتي زار فيها مصر وتركيا والشام والحجاز، يقول عن ذلك: «إني لما رمت بي الأقدار وجلت في الأقطار، وشاهدت كثيرا من الأمصار... جمعت ما قيدته في رحلتي الثلاث، وما شاهدته من الأمصار والبحار، وما لقيت من السادات، جعلته رحلة واحدة على قاعدة النحاة، في جواز الجمع بين الأخوات وسميتها الترجمانة الكبرى»¹، والرحلة الأولى كانت مع والده إلى الحجاز وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وعشرين سنة بقصد أداء فريضة الحج والمجاورة بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما بلغ مدينة السويس حصلت له النكبة فكسر مركبهم وتلفت بضاعتهم ونفد مالهم، غير أن والدته كانت ادخرت لحادث الدهر ثلاثمائة دينار واصلوا بها سيرهم إلى جدة، ومنها إلى مكة المكرمة ومنها إلى المدينة، وكان والده يريد مجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما فقدوا أموالهم تراجع عن رغبته وعاد إلى موطنه ومن ذلك قوله: «ولما فرغنا من مناسك الحج ونوافله، وقضينا مهمات السفر وشواغله، سافرنا مع الركب المصري إلى المدينة، وزرنا تربة نبي الله وأمينه، ولما رأى والدي ما نواه من المجاورة بذلك المزار يحتاج إلى ذات اليد واليسار، تعين الرجوع إلى المغرب»².

والرحلة الثانية كانت إلى مصر في طريق عودتهم إلى المغرب نزلوا عند صديق والده فقد ترك عنده بضاعة أوصاه ببيعها وذكر أن ثمنها بلغ ما يفوق الستمئة ريال وهي التي أصلحوا بها أحوالهم، فلزم ابن صديق والده فشغف بفته، إذ كان له يد في علم الرمل وعلم السماء، وخواص المعادن، ومن جبل طارق ركبوا للمغرب «فانحدرنا

¹ - أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، في أخبار المعمور براً وبحراً، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، دار المعرفة للنشر، الرباط 1412هـ/1991م ص52.

² - المصدر نفسه، ص59.

للأسكندرية، فوجدنا المراكب معطلة للحرب التي بين الأفرنسيس والإنجليز، ولما وقع الصلح بينهم توجهنا من جبل طارق لتطوان ومنه لفاس، ولما استرحنا من السفر عدت للقراءة كما كنت»¹.

كما أشار في رحلته هذه إلى حدود المغرب، فقد ذكر جبل درن وما احتوى عليه من القصور والبساتين من جميع الجهات وفيه إشارة إلى بعض البلدان الجزائرية كتلمسان وورقلة وقسنطينة وغيرها، وبقي بتلمسان سبعة أشهر، وكانت رغبته أن يستقر بها لولا مكتوب السلطان مولاي سليمان بن مولاي محمد الذي وصله يأمره بالعودة إلى الوطن، واجتماع الشمل بالأهل والولد، يقول عن ذلك: «ولما يسر الله أسبابنا وجهت غلاما لي من الجزائر لفاس؛ يأتينا منها بجواري لنا كنا قد تركناهم بفاس ويلقانا بهم في تلمسان بقصد القرار بها ووجهت معه مكتوب للسلطان مولانا سليمان وعرفته ببلوغنا الجزائر وعزما على المقام بتلمسان، فلما وصله الكتاب أمر أن يكتب لنا أمرا شريفا يخصنا فيه على العودة للوطن»²، كما ضمن الزياني رحلته هذه أخبار دسمة كثيرة جادت بها قريحته عن تونس ومدنها ومدن الحجاز وعن فتح الهند، كما تحدث فيها عن أشهر الأنهار، وعن أنواع المعادن والأحجار الكريمة، كما أورد فيه أشعارا بعضها من تأليفه وبعضها الآخر لشعراء آخرين.

ومن الكتب المخطوطة المحققة ذكر: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، الذي حققه زميله عبد الكريم وأهداه نسخة منه، وهو من مطبوعات دار الأوقاف والشؤون الإسلامية لسنة 1973، وفي الكتاب أخبار كثيرة عن العلاقات المغربية الجزائرية خلال القرن السادس عشر³، وهو كتاب كبير لعبد العزيز الفشتالي، فُقدت منه أجزاء وهو

¹ - أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، في أخبار المعمور براً وبحراً، ص 60.

² - المصدر نفسه، ص 380.

³ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 216.

مصدر مهمٌ لمعرفة تاريخ السعديين عموماً، اعتمد عليه كثيراً من المؤرخين خاصة عهد الدولة السعدية فالمؤلف أرّخ لأحداث قريبة العهد به فتحدث عن حوادث عاشها، ووثائق شاهدها، فهو مؤرّخ الدولة السعدية وكاتبها الأول والرسمي في بلاط أحمد المنصور الذهبي، وقد كلفه بتدوين أخبار الدولة السعدية ووقائعها، فكتب عن الدولة السعدية منذ تأسيسها في القرن السادس عشر إلى ما بعد وفاة المنصور، وفي هذا يقول: «ويأمر لي أنا عبده ومن خصه من كتاب الإنشاء ببابه العالي؛ بكتب ما يجدد بعلامته الكريمة من رسوم أسلافه الكرام والأوامر القديمة»¹، هذا ويغلب على هذا الكتاب الطابع الأدبي فهو يمثل نموذجاً أدبياً للنثر الراقي وقد فضل كثير من النقاد والمحدثين نثر عبد العزيز الفشتالي على نثر لسان الدين بن الخطيب وقبل كل شيء هو أديب وشاعر يسجل بأسلوبه الراقي الأحداث البارزة للفترة التي أرّخها وكأنه يؤدي مهمة رسمية، كما أورد في كتابه أشعاراً كثيرة جديرة بالدراسة والبحث، مما يضيف على كتابه صبغة مزدوجة تاريخية وأدبية.

كما قدّم له الدكتور الجراري بعض الكتب منها: الزّجل في المغرب، الذي نال به شهادة الدكتوراه في مصر، طبع في المغرب 1971م، في 715 صفحة، ثم تتالت علي كتبه من وحي التراث، طبع في المغرب في 1971م، في 184 صفحة موشحات مغربية، 1973م وهو إذ ذاك أستاذ كرسي الأدب المغربي بجامعة محمد الخامس مع عناية خاصة بالأدب الشعبي²، فنلاحظ أنه لا يكتفي بذكر عنوان الكتاب فحسب بل يقدم شروحا مستفيضة عنه؛ مما ييسر على الباحث مهمته في الحصول على الكتاب أو البحث عنه.

¹ - أبي فارس عبد العزيز الفشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الآفاق والشؤون الإسلامية والثقافية، دت، ص 05

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 217/218.

وفي سلا في المدينة العتيقة؛ وقف على بعض باعة الكتب، فاستوقفته بعض العناوين ولفنت انتباهه، وهي كتاب "تنبيه الغافلين" وهو مصنف نفيس لأبي الليث السمرقندي¹ يتضمن مواعظ وآدابا وأذكارا قسمه إلى أبواب، نذكر منها الإخلاص، فضل الصدقة، النفقة على العيال، العمل بالعلم...إلخ.

وكتاب الرّحمة في الطّب والحكمة، وهو كتاب منسوب لجلال الدين السيوطي ذكر فيه الطبيعة وما أودع الله فيها من الحكمة، وأشار فيه إلى الأدوية وفضل بعض الأطعمة في الشفاء من العلل كالعسل والثوم والحلبة والقرنفل وغيرها، كما رأى كتاب الروض العاطر وديوان أبي نواس، وسجع الكهان في استحضار الجان، بالإضافة إلى مختلف الجرائد والمجلات الفكرية والأدبية التي تصدر بالمغرب، وما لفت انتباه الرّحالة في المغرب هو الثمن الزهيد للكتب وهو تشجيع للقراء على القراءة والاطلاع، بل إن دور العلم التي أحصاها خير دليل على ذلك.

وازدواجية هدف زيارته للمكتبات بين الاطلاع على الكتب والتعرف على كبار العلماء والنّهل من معينهم؛ جعلته يزور المكتبة الملكية، التي تعرّف فيها على محمد داود مؤلّف موسوعة تاريخ تطوان، وتذاكر معه حياة أحمد الورززي التطواني²، الذي زار الجزائر في القرن الثاني عشر للهجرة، ورحلة ابن حمادوش الذي زار فاس وتطوان خلال نفس المدّة³، فنلاحظ اهتمامه بالتراث وبالمخطوطات وتحقيقتها لتكون في متناول طلبة

¹ السمرقندي: أبو الليث الإمام والفقير المحدث الزاهد، أبو الليث، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي صاحب كتاب تنبيه الغافلين. أنظر شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ/1985م، 322/16.

² – الورززي(ت1179هـ/1766م)، أحمد بم محمد بن عبد الله أبو العباس الورززي نسبة إلى ورززة ناحية سوس الدرعي التطواني محدث، فاسي الأصل، كان شديد الشكيمة على أهل البدع، لايبالي بولاة زمانه، اتهم بالاعتزال وسجن وأطلق فازداد شأنه وحج وجاء من الحرم المكي وحده على رجليه إلى بيت المقدس، هو حبر تطوان وفخرها العلامة المحدث الأثري زار بيت المقدس ووقعت له مع علماء مصر مناظرة فأجازوه، توفي بتطوان. أنظر خير الدين الزركلي: الأعلام (مصدر سابق)، 243/1. وأنظر عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني فهرس الفهارس والإثبات، (مصدر سابق)، 1111/1.

³ – ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة (مصدر سابق)، ص220.

العلم، فكرّس قلمه وحياته للبحث والتنقيب عن كنوز تراثنا الثقافي والأدبي «فتراثنا جزء من التراث الإنساني، وعلينا أن نستوعب جيدا هذه الحقيقة، وتبعاً لذلك لا بد لنا من الانفتاح على هذا التراث الإنساني... وإنا مطالبون بالإنصات إلى صوت التطور والعصر، ونعمل على فهم تراثنا في ضوء ما يتحقق من معارف وعلوم حديثة، لأنّ بهذا التصنيع يمكننا جعل تراثنا عصرياً وإنسانياً في العصر الحديث، ونعمل في الوقت نفسه على قراءة تراث الأمم الأخرى دون أن نتأثر به، أو الانسلاخ من هويتنا والوقوع في برائين ثقافتهم»¹، وهو ما فعله المستعرب ماكسيم كيكتيف، وهو أستاذ الآداب العربية بجامعة موسكو الذي جاء للخزانة العامة بالمغرب؛ للبحث عن نسخة نادرة من ديوان المتنبي الذي يقوم بتحقيقه.

وذهب برفقة زميله الجراري إلى الدار البيضاء، واطّلع على مختلف المكتبات الموجودة بها نذكر منها على سبيل المثال: مكتبة دار الرشاد، مكتبة دار الوحدة، دار الثقافة، دار إحياء علوم الدين.. الخ، ومن باب الصدفة وجد هناك كتابين للكاتب الجزائري محمد المليي وهما: فرانس فانون والثورة الجزائرية، وابن باديس وعروبة الجزائر².

ولم يقتصر على زيارة المكتبات للاطلاع على مخزون المخطوطات؛ بل كان للجلسات العلمية أيضاً دور في ذلك فجرى على بساط مجلسه مع بعض الإخوان المغاربة الحديث «عن أثر الشيخ الجزولي صاحب دليل الخيرات»³، وهو كتاب جمع فيه المؤلف صيغ في الصلاة على رسول الله، صنفها المؤلف حسب أيام الأسبوع، إذ جعل لكل يوم من أيام الأسبوع ورداً خاصاً به بدءاً من الإثنين إلى الجمعة، وقد افتتح المؤلف كتابه بالدعاء بأسماء الله الحسنى وأسماء الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم وضع فصلاً

¹ - سعيد يقطين: السرد العربي، مفاهيم وتجليات، دار رؤية للنشر والتوزيع، ط1 القاهرة، 2005م، ص29

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص222.

³ - المصدر نفسه، ص225.

مخصصا لذكر فضل الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم. «والخزرجي صاحب الخزرجية»¹، هي منظومة مشهورة في علم العروض ومن أشهر مؤلفات ضياء الدين الخزرجي، التي ذاع استعمالها بين المعلمين والمتعلمين، نظرا لما تحويه من أبواب ومواضيع أساسية تخص علم العروض والقافية وتسمى أيضا بالرامزة في علم العروض، وتشتمل على البحور العروضية والمصطلحات الموجودة في علم العروض، وأشار فيها إلى الزحاف والعلل وألقاب الأبيات كما عرف علم العروض، وعدد أوزانه ومقاطععه، ومكونات البيت الشعري، ثم عرف القافية وعدد حروفها وأنواعها، ونظمها المؤلف لتحقيق هدف تعليمي ليتعلم منها طلاب العلم «وابن الونان»² صاحب القصيدة الشمقمقية». وهي قصيدة شهيرة وممتعة نال بها العالمية تجمع بين دفتيها كثيرا من فنون الأدب وجملة من الحكم والمواعظ ونالت إعجاب الكثير من الأدباء.

«وابن النحوي»³ صاحب القصيدة المشهورة المنفرجة»⁴، وهي قصيدة من أطول وأجود شعر ابن النحوي نظمها في أربعين بيتا على إثر ضائقة ألمت به، وهي قصيدة مشهورة ذاع صيتها بين الناس وكثرت العناية بها حفظا وشرحا وتخميسا.

ومن خلال اطلاعه على مختلف المراكز الثقافية في المغرب؛ أعجب بالحركة الثقافية النشيطة والمستوى الثقافي السائد عندهم، وبالاهتمام الذي يوليه المثقفون بالكتب،

¹ ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص.ن.

² ابن الونان: (ت 1187هـ/1773م)، أحمد بن محمد التواتي الحميري، شاعر من أهل فاس مولده ووفاته بها ينتسب إلى حمير كان أسلافه من سكان توات في صحراء المغرب، ثم انتقلوا إلى فاس، له قصيدة مشهورة من 275 بيتا عرفت بالشمقمقية مدح بها أمير المؤمنين عبد الله بن إسماعيل العلوي. أنظر الزركلي: الأعلام، 1/243.

³ ابن النحوي (ت 513هـ): يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل عرف بابن النحوي ناظم المنفرجة توزري الأصل من قلعة بني حماد، كان عارفا بأصول الدين والفقه يميل إلى النظرة والاجتهاد، أخذ صحيح البخاري عن اللخمي، ولما جاء سألته اللخمي ما جاء بك فقال حئت لنسخ تبصرتك، فقال له تريد أن تحملني في كفك للغرب يشير إلى أن علمه كله فيها، توفي بقلعة بني حماد ببجاية. انظر الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، (مصدر سابق)، ص 192. وانظر الغبريني أبو العباس أحمد: عنوان الدراية، تحقيق عادل نويبض، دار الأفاق الجديدة بيروت، ط2، 1979م، ص 326.

⁴ أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 225.

كما نفت انتباهه أن «الكتب عند المغاربة مجلدة بعضها بطريقة فخمة، والتجليد عندهم جيد ورخيص الثمن بخلاف عندنا، بالإضافة إلى أنه صناعة محلية رائجة يتفنن فيها الحذاق بالرسوم والخطوط العربية»¹.

لقد كان الرّحالة شديد الحرص أثناء إقامته بالمغرب على توفير كل وقته للبحث والمطالعة وملاقة أهل العلم والتّعرف عليهم، وطيلة رحلته لم يتوقف عن طلب المخطوطات الجزائرية، والتي وجد منها ثروة لا تقدر بثمن، ومن الكتب المخطوطة بالمكتبة التي لفتت انتباهه دون أن تكون هدف أساسي لبحثه نجد: كتاب فيض العباب وإفاضة قدامح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزّاب، لإبراهيم بن أبي عبد الله النميري المعروف بابن الحاج وقد ذكر فيه حملة ابن عنان على قسنطينة ونواحيها ومنطقة الزّاب وعنابة وتونس، وفي الكتاب قصائد كثيرة للشعراء المرافقين لابن عنان، وفيه أخبار عن البلاد المذكورة، وأخبارها العلمية والاقتصادية والسياسية، وقدم الرّحالة وصفا كاملا من حيث محتواه ونوع الخط، فهو بخط جميل وعنوان مكتوب بالأحمر وبأسلوب أدبي فضفاض، تضيع فيه أحيانا الحقائق التاريخية التي يهدف المؤلف إلى إيصالها².

كما لاحظ مخطوطا ضخما بعنوان "تحرير السياسة في تدبير الرّياسة"، وسمي أيضا (بدائع السلك في طبائع الملك)، من تأليف العالم محمد بن علي الأزرق الأصبحي الأندلسي³، وقدم الرّحالة تفصيل لهذا المخطوط والنسخة التي اطلعت عليها تعود إلى 1272هـ، وهي بخط جيد وفيه مقدمة وبابان تتناول في المقدمة محظورات تخل

¹ ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص224.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 230.

³ محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي (896هـ/1491م) عالم اجتماعي سلك طريقة ابن خلدون في التأليف، من أهل غرناطة، تولى القضاء بها إلى أن استولى عليها الإفرنج، فانتقل إلى تلمسان ثم إلى المشرق، له كتب منها (تحرير الرّياسة في تدبير السياسة). انظر إسماعيل باشا البغدادي: إيضاح المكنون في النيل على كشف الظنون، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، ط1، 1945هـ/1441م، 1/170.

بالمطلوب شرعا، وتناول في الباب الأول جوامع ما به السياسة المطلوبة من السلطان، أما الباب الثاني فتحدث عن الواجبات التي يلزم السلطان القيام بها سياسيا، ثم يتحدث عن أخلاق مؤلفه فقال عنه "عميق النظرة واسع الاطلاع، وهو من مؤرخي الحضارات.¹

بالإضافة إلى كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء لأبي مروان عبد المالك بن أبي القاسم التوزري المعروف بابن الكردبوس²، الذي نقل عنه ابن حمادوش الكثير كما قال الرحالة «وتذكر المصادر أن ابن الكردبوس كان حيا سنة 575 هـ، وكنت أعرف من قبل أنه توجد من هذا الكتاب نسخ في تونس، بلد المؤلف، وفي مدريد، وقد رأيت منه في المغرب نسخا كثيرة، منها واحدة في جزأين ضخمين في المكتبة الكتانية، والجزء الثاني غير التام يبدأ بتاريخ الدولة العباسية، وذكر بأنها توجد نسخة منه في تونس، وفي مدريد، وفي المغرب نسخا كثيرة.»³، وهو كتاب تاريخي مهم جدا يحتوي على أنفس الأخبار التاريخية، وقد حققه صالح بن عبد الله الغامدي، وقد قسمه إلى عدة عصور منها: عصر النبي صلى الله عليه وسلم عرض فيه حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وهجرته إلى المدينة المنورة، وذكر أهم الغزوات والسرايا، ومعجزاته، وتاريخ وفاته، ثم بنيه وزوجاته، وغيرها من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضمنه قسما آخر خاصا بعصر الخلفاء الراشدين فتحدث عن خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعن نسبه وكنيته، وكيفية دخوله الإسلام، ومنزلته في قريش، وذكر بعض أحواله الشخصية كصفاته الخلقية، وذكر سبب مرضه ووفاته وغسله ودفنه، واستخلافه عمر رضي الله عنه من

¹ - ينظر: تجارب في الأدب والرحلة، ص232. وانظر: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: فح الطيب من غصن الأندلس الرطيب 687/2.

² - ابن الكردبوس: كان حيا (575هـ/1176م). عبد الملك بن محمد بن أبي القاسم بن الكردبوس التوزري، المحدث المؤرخ، تلقى العلم بتونس، ثم رحل إلى الإسكندرية عن طريق البحر، والتقى بعلمائها، وبعد رجوعه من رحلته أقام مدة بمدينة تونس ثم رجع إلى مسقط رأسه توزر حيث توفي ودفن هناك. محمد محفوظ تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، ط1 بيروت لبنان 1404هـ/1984م، 158/4.

³ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص233.

بعده، ثم تناول خلافة عمر بن الخطاب بتفصيل أوسع، فتحدث عن حياته قبل الإسلام، ثم ذكر القصة المشهورة في إسلامه، وبعض مناقبه ثم أشار إلى بعض الجوانب الإدارية في عصره، ثم تناول خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبعدها خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

لينتقل إلى عصر بني أمية فتكلم بشرح مفصل عن معاوية بن أبي سفيان وأخلاقه وحبه لآل البيت وتقديره لهم وغيرها من الأخبار التاريخية المهمة.

كما نقل الرحالة ابن حمادوش عن الكثير من الكتب والمخطوطات، فنذكر «عبد الرحمن الحنبلي العليمي¹ صاحب تاريخ (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل)، ويقع في مجلدين تحدث فيه عن نماذج المدارس في بيت المقدس في العصر المملوكي، وقد ذكر أكثر من ستين مدرسة وزاوية مما يدل على الأهمية العلمية لبيت المقدس في عصر العليمي ومن هذه المدارس «المدرسة الكريمة، والمدرسة الأشرفية وعنها يقول: وبالمدرسة المشار إليها من الآت البسط والقناديل ما هو في غاية الحسن، وعلى ظاهرها الرصاص المحكم ومن أعظم محاسنها كونها في هذه البقعة الشريفة.»² كما أشار في الجزء الأول من كتابه إلى ذكر أول ما خلق الله سبحانه وتعالى وهو اللوح المحفوظ «فحفظه بما كتب الله فيه مما كان ويكون لا يعلم فيه إلا الله عزّ وجلّ وهو من درة بيضاء وهو في عظم لا يوصف»³ ثم ذكر خلق الأراضي والجبال والبحار، وخلق العقل، وذكر آدم عليه السلام وعدد ذريتهم أتى على ذكر إبراهيم الخليل وأبنائه الكرام عليهم السلام وأشار إلى مولده وهجرته، «أقول وبالله التوفيق إبراهيم خليل الرحمان وهو أبو الأنبياء

¹ عبد الرحمان بن محمد العليمي الحنبلي (860/928-1522/1456م)، مجبر الدين مؤرخ وباحث، من أهل المقدس نسبته إلى علي بن عليم المقدسي كان قاضي قضاة القدس، من مؤلفاته المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام، وفتح الرحمان في تفسير القرآن، أنظر الزركلي: الأعلام، (مصدر سابق)، 3/331.

² مجبر الدين الحنبلي العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد، مكتبة دنديس، 1999م،

³ مجبر الدين الحنبلي العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل مخطوط، ص 10

الكرام من أولي العوم من الرسل, وجعل له لسان صدق في الآخرين فليس أحد من الأمم إلا يحبه, وأكرمه الله بالخلة وجعل أكثر الأنبياء من ذريته»¹ وقصة بناء الكعبة, وفضل بيت المقدس والصلاة فيه, وغيرها من المواضيع المهمة.

كما ذكر في الجزء الثاني من كتابه صفة المسجد الأقصى الشريف بما هو عليه في عصرنا, كما عاين موضع محراب داود, ومهد عيسى عليه السلام, والصخرة الشريفة وقبة المعراج, ومقام النبي صلى الله عليه وسلم, فوصف هذه المشاهد بجمال فني وبراعة في التصوير وهناك عنوان آخر في ذكر غالب ما في البت المقدس من المدارس والمشاهد والزوايا, منها زاوية الطواشية زاوية المغربية وغيرها. وقال أبو القاسم سعد الله إن ابن حمادوش قرأ (كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ) لإبراهيم الأجدابي الطرابلسي², وقد عرفه الأجدابي بقوله: «هذا كتاب مختصر في اللغة العربية وما يحتاج إليه من غريب الكلام, أودعناه كثيرًا من الأسماء والصفات, وجنبناه حواشي الألفاظ واللغات وأعريناه عن الشواهد؛ ليسهل حفظه ويقرب تناوله, وجعلناه مغنيا لمن اقتصد في هذا الفن, ومعينا لمن أراد الاتساع فيه.»³, وقد نال هذا الكتاب شهرة كبيرة فطبع أكثر من مرة في بلدان عربية مختلفة, وقسمه المؤلف إلى عدة أبواب منها: باب في صفات الرجال المحمودة, ومن صفات الرجال المذمومة وباب في صفات النساء المحمودة, باب ما يحتاج إلى معرفته من خلق الإنسان, باب معرفة حلي النساء, باب في الولد. وغيرها. وتوجد من آثاره نسخ

¹ - مجبر الدين الحنبلي العليمي: الأوس الجليل بتاريخ القدس والخليل مخطوط, ص30

² - إبراهيم الأجدابي الطرابلسي: (ت290ه/1077م), إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله اللواتي الأجدابي, أبو إسحاق: لغوي باحث من أهل طرابلس الغرب نسبته إلى اجدابية, له كتب منها كفاية المتحفظ, وكتابان في العروض وغيرها, كان من أحسن الناس خطا وكان أحول. خير الدين الزركلي: الأعلام (مصدر سابق), 1/32.

³ - ابن الأجدابي شهاب الدين الخويي: كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ, تحقيق عبد الحميد محمد الدرويش, و دار النوادر اللبنانية, ط1435ه/2014م, ص26.

كثيرة من (كفاية المريد) و(الدرة في أصول الطريقة الزورقية) و(شرح صلاة ابن مشيش)، وغيرها من كتب الطريقة والأذكار¹.

أما محمد بن علي الخروبي الطرابلسي دفين الجزائر، والذي يقال إنه ذهب في سفارة جزائرية إلى المغرب، وليس معروفا أين ولا متى ولد؟ ولكن نسبته إلى طرابلس قد تكون فيها إشارة إلى موطنه الأصلي، أما وفاته فقد كانت بالجزائر سنة 963 هـ وقد خدم الخروبي الوجود العثماني في المغرب العربي بقلمه ودرسه وطريقته الصوفية، فبالإضافة إلى نشاطه الديني والمذهبي في الجزائر لصالحهم قام بعدة سفارات²، ومن الكتب التونسية المطبوعة الموجودة بالمكتبة المغربية: «نسختان من ديوان إبراهيم الرياحي التونسي؛ الشاعر السّفير العالم الذي تخرّج عنه الكثيرون منهم بعض الجزائريين، ولمحمد السنوسي³ التونسي أيضا (كناش) يحتوي على أشعار تونسية بخط السنوسي نفسه، والسنوسي رحالة وعالم تولّى عدّة وظائف في تونس خلال القرن الماضي، وله رحلة مشرقية مخطوطة سجل فيها مقابلاته مع الأمير عبد القادر، وهي رحلة مطولة ذات أجزاء ثلاثة قيد فيها خبر رحلته من يوم خروجه إلى عودته إلى دياره، فكان الجزء الأول منها فيما رآه بأوروبا ومنها إيطاليا المعبر وغيرها، فعرّف أوروبا بقوله: «أوروبا قارة من قارات الكرة الأرضية الخمس، أصغرها مساحة وأكثرها أهمية»⁴، والجزء الثاني أشار فيه إلى حركة العلم والأدب في الحرمين الشريفين ومن ذلك قوله: «ووجدت الحرم المكي فيه كثير من العلماء يقرأون الدروس من الفقه والتوحيد والنحو، ومن المبتدئين من يقرأ

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة (مصدر سابق)، ص234.

² - أنظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (مصدر سابق)، 498/1.

³ - محمد السنوسي: (1267-1318هـ/1850-1900م) محمد بن عثمان بن محمد بن أحمد الفقيه والأديب الشاعر والمؤرخ، الصحفي الرحالة صاحب المواهب الخصبية والقلم السيلال، درس بجامعة الزيتونة، وكان من المؤسسين للجمعية السرية الحاملة لاسم العروة الوثقى، من مؤلفاته الرحلة الحجازية الروض الزاهر، وغيرها، للاستزادة أنظر: محمد محفوظ تراجم المؤلفين التونسيين (مصدر سابق)، 73/3.

⁴ - محمد السنوسي: الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للنشر، دط، 1396هـ/1976م، 75/1.

مناسك الحج ووجدت مفتي مكة يومئذ وشيخ شيوخها العلامة الشيخ أحمد دحلان يقرأ تفسير البيضاوي، بعد صلاة الصبح ويحضر درسه كبار العلماء، وطريقة تدريسه التي تتعد عن الطريقة التونسية في إلقاءها أولاً ثم تطبيقها على الكتاب»¹.

وتوجد نسخة من كتاب "إتحاف أهل الزمان" في أربعة أجزاء للمؤرخ أبي الضياف²، وكنت قد رأيت أيضاً نسخة كاملة منه في إسطنبول سنة 1970³، وهو كتاب مهم جداً غني بالوثائق فيه من المعلومات والأخبار ما يجعله يتمتع بمرتبة خاصة، وهذا ما جعل الكاتب يقف عليه حيث أشار فيه إلى العلاقة بين الجزائر وتونس والهجرة الجزائرية إلى تونس، خاصة خلال الاحتلال الفرنسي وكان معظم المهاجرين طلبة لمواصلة تعليمهم بجامع الزيتونة، كما كانت تونس معبرا للجزائريين سواء لطلب العلم أو مرورا للبقاع المقدسة، ومن ذلك حديثه عن الأمير عبد القادر أثناء مروره بتونس وهو في طريقه لأداء فريضة الحج والاستقبال الكبير الذي حظي به هناك .

وكتاب تحفة العروس للجانبي نسخة من القسم الأخير، كتاب نزهة الأنظار في عجائب التاريخ والأخبار لمحمود الصفاقسي⁴ الذي توجد منه نسخة في باريس رآها

¹ - محمد السنوسي: الرحلة الحجازية، 177/2

² - ابن أبي الضياف: هو أبو العباس أحمد بن الحاج بن عمر بن أحمد بن نصر بن محمد سيدي أحمد الباهي العوني، ولد عام 1217هـ/1802م، أصله من قبيلة أولاد عون بسليانة، الفقيه الأديب السياسي والمؤرخ، تعلم على شيوخه إبراهيم الرياحي، وكان يميل إلى الأدب فكان يجتمع في أوقات الفراغ مع بعض زملائه لدراسة الكتب الأدبية، من مؤلفاته أنحاف أهل الزمان بأخبار عصر عهد الأمان في تاريخ أفريقية لاسيما تونس والقيروان في أربع مجلدات. محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، (مصدر سابق)، 264/3-267. وانظر: إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين وأسماء المؤلفين وأثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت لبنان، 1995م/190.

³ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة (مصدر سابق)، ص233.

⁴ - الصفاقسي: هو محمود بن سعيد مقديش، الفقيه والعلم والمؤرخ، ولد بصفاقس عام 1154/1742م، ونشأ في عائلة نبوية من أبناء بيوت صفاقس، تلقى تعليمه في بلده، ثم التحق بالأزهر فتعلم العلوم الرياضية، والفقه والحديث، وكان ينسخ الكتب الثمينة ليبيعها في بلده، ولما تزلزلت العلوم من العلوم رجع إلى بلده صفاقس فأفاد وأجاد ونفع العباد، ولبث في بلده مقسما وقاته بين التدريس والتأليف، توفي في سنة 1228هـ/1813م. أنظر: محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق محمد محفوظ، علي الزاوي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت لبنان، 1988م، 13/1-14.

سنة 1972م، وقد وصل فيه المؤلف إلى سنة 1818م، ويحتوي على أخبار العلماء وتاريخ صفاقس و«ترجمة لابن أبي الضياف في عشر ورقات لمؤلف مجهول في عشر ورقات لا تزال مخطوطة وأجوبة الشيخ التسولي التي أجاب بها الأمير عبد القادر حين سأل علماء المغرب عن بعض الفتاوى الفقهية، وكان التسولي قد أصدر إجابته باسم السلطان مولاي عبد الرحمان، وهي في مجموع من صفحة 2 إلى صفحة 94»¹.

الترجمان المغرب لأبي القاسم الزيّاني؛ الذي كان نصفه بخط المهاجر الجزائري أبي حامد العربي المشرقي، وكان الزيّاني قد أُلّفه في مدينة تلمسان، وقد بدأه بآدم عليه السلام والزيّاني هذا كان مشهوراً وصاحب مكانة في عهده، وهو صاحب الترجمانة الكبرى التي نشرها عبد الكريم الفيلاي، وصاحب "رحلة الحذاق لرؤية البلدان والآفاق"، التي توجد منه نسخة مخطوطة.

كما عثر على رسالة "المعادن والأحجار" للعالم الجزائري التونسي أحمد التيفاشي² و"أزهار الأفكار في جواهر الأحجار" له أيضاً، وهو كتاب مهم جداً كان له الأثر العظيم في نشأة علم المعادن الحديث في أوروبا، ويؤكد بعض علماء أوروبا أن الأوروبيين اقتبسوا الكثير من أبحاث التيفاشي ونظرياته التي حفل بها هذا الكتاب، ونسبوا لأنفسهم

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 233.

² - التيفاشي: أحمد بن يوسف بن أحمد هو الشيخ شرف الدين، قاضي ولغوي وطبيب وشاعر وجغرافي وفلكي، اشتهر كعالم معادن وحجارة، له مجلد جيد في "معرفة الجواهر". سماه أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، وله كتاب كبير في علم الأدب سماه "فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب" توفي بالقاهرة عام 651. انظر حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق محمد محفوظ، علي الزاوي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت لبنان، 1988م، ص 72-233 وانظر، صلاح الدين بن أبيك الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، ط1، 1420هـ/2000م، 188/8.

دون الإشارة إلى صاحبها الأصلي¹، وتوجد نسخة واحدة من معادن الأحجار ونسخ عدة من "أزهار الأفكار في جواهر الأحجار"، واعتنى بترجمة آثاره الأستاذ أبو القاسم كرو.

وإن كان أبو القاسم قد كتب في ذلك الزمن فإنه قد كتب لهذا العصر من خلال تقديمه للمعلومات المهمة عن الأعداد الهائلة من الكتب والأبحاث التي ذكرها، وعن عدد نسخها وأماكن وجودها مما يسر على الدارس عناء البحث عنها، ولو ذكر كل ما وقعت عليه عيناه لاحتاج إلى مؤلف خاص بذلك، ولن تكفيه هاته الرحلة لذلك، اكتفى بهذا القدر لهذا قال «ولعلي لو ذكرت هنا كل ما وقعت عيناى من كتب الرحلات والتاريخ والآداب خلال رحلتي؛ لأثقلت على القارئ، وحسبي هذه العجالة، أما ما طالعت أو قيده عن الجزائر بأقلام جزائرية «فحدثت على البحر ولا حرج» وهو بيت القصيدة من كل رحلة، ولعلي أقدمه في مناسبة أخرى بشكل أبجدي يفيد المستفيد، ويستزيد منه المستزيد»².

أما رحلته إلى الجزيرة العربية فشأنها شأن سابقتها فكانت بسبب علمي، وهو المشاركة في ندوة عن مصادر تاريخ الجزيرة العربية، غير أنه في هذه الرحلة استدعته جامعة الرياض، في حين أنه ذهب للمغرب بمبادرة منه فقط، فرحالتنا رجل عبقرى أفنى عمره في دروب البحث، وزيارة المراكز العلمية ودور المعارف الفكرية، فكان متعدد المشارب والاهتمامات، ملماً بجميع الفنون الأدبية، ونصح طلابه أن يفعلوا ما فعل ولا يستهينوا بالكلمة المكتوبة، وأن يسجلوا خواطرم ومشاهداتهم مهما كانت تافهة أو عديمة القيمة، فقد يكون لها شأن في مستقبل الأيام، وهكذا تعلمنا من التاريخ ومن رجاله ونسائه الذين يقدررون عنصر الزمن وأثره على الإنسان.³

¹ - صلاح عبد الستار الشهاوي: التيفاشي قمة سامقة في الجيولوجيا: مجلة حراء مجلة علمية ثقافية أدبية، تصدر عن دار الانبعاث بالقاهرة، العدد30، 14/01/2017م.ص03

² - أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، ص234.

³ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: مسار قلم، (مرجع سابق)، 07/7.

جاءت رحلته إلى الجزيرة بسبب المشاركة في الندوة السالفة الذكر، وكذلك بسبب تحقيق أمنيته القديمة وهي زيارة الحرمين الشريفين، وبما أن رحلته هذه جاءت ثقافية فهي تشير إلى كل الأمور الثقافية التي وقعت عليها عيناه أو همست في أذنيه، بداية بالموضوع الرئيسي للندوة وهو مصادر تاريخ الجزيرة العربية وهي ندوة عالمية، وإذا كانت الرحلة السابقة تحكي عن الشخصيات الثقافية التي التقى بها والمراكز الثقافية التي زارها؛ فإنه في هاته الرحلة تحدّث عن الباحثين الذين أتوا من كل حذب وصوب لحضور الندوة، وعن مادة المحاضرات الملقاة، فهي تختلف في جودتها حسب طبيعة الباحثين، ومن الأبعاد الثقافية التي وقف عليها الكاتب خلال الندوة من الحديث عن الأبحاث فقد تعدّدت مشاربه، واختلفت مستوياتها فقد تناول الباحثون مختلف عصور الجزيرة العربية، ولم يتركوا حجرا أثريا إلا حفروا تحته، ولا حرفا لغويا إلا تتبعوه، ولا مخطوطا إلا حقّوه.

ومن خلال جرأته المعهودة وعدم مجاملته لأحد؛ كانت أحكامه ومواقفه أكثر حدّة فوصف الندوة ومن شارك فيها بما يليق فأثنى على من يستحق الثناء، وذمّ من يستحق الذمّ ومن ذلك قوله: «ورغم أنّ الدعوات قد وجهت إلى عدد من الجزائريين، فإنهم لم يشاركوا لأسباب لا نعلمها، ولكن يبدو لي أنّ سبب ذلك هو الكسل العقلي الذي يعاني منه الجزائري»¹.

وفي موضع آخر لما يتحدث عن طبيعة الموضوعات: «وقد سمعنا أبحاثا في غاية الجودة والموضوعية، لكن سمعنا بعض الأبحاث التي حاول أصحابها تحريف التاريخ تملقا لهذه الجهة أو تلك»²، فهو يعرف الكاتب الحق قائلا: «إنّ الكاتب الحق يجب أن يقول كلمته الحرة المقتنع بها سواء أرضت الآخرين أو أسخطتهم، أما الكاتب الذي يجامل

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 242.

² - المصدر نفسه الصفحة نفسها.

بكلماته ويجاري التيار ويماشي الظروف؛ فهو كاتب دجال لأنه لا يصدر عن عقيدة واقتناع، فهو إذن كاتب انتهازي أو مأجور أو جبان»¹.

وإن كان البحث العلمي هو شغله الشاغل؛ فقد حفل سعد الله بهذه الندوة الثرية التي أفادت الإخوان السعوديين علميا وفكريا وثقافيا، «لأنّ هذه الندوة عن مصادر بلادهم (وبلادنا في الحقيقة)، قد جعلتهم يتعرفون على العديد من الوثائق والمخطوطات، في مظانها وأرقامها ومحتواها وقيمتها، وهي عملية شاقة ومكلفة لأموال طائلة؛ لو أراد الإخوان السعوديون أن يتعرفوا عليها بطريق آخر غير طريق الندوة»².

فالندوة كانت بمثابة مشروع علمي ضخم الزاد نفع الله به الملقين والمتلقين، فهذه المحاضرات شاهد على ما بذلوه في سبيل العلم وترقية المعرفة، من خلال الأفكار التي طرحوها، والمعلومات التي سجلوها، فكشفوا عن ذخائر وكنوز لم يكشف عنها من قبل، ومن بين تلك الكنوز التعريف بالمخطوطات، ولذا أبدى إعجابه بالمكسب الثمين لأهل البلد المضيف.

ثم شرع يفصل في توزيع الحضور خلال المؤتمر «وتوزع المؤتمر على قاعتين من قاعات الجامعة: قاعة المحاضرات العامة وخصصت للأبحاث المتعلقة بالعصر القديم والإسلامي، وفي هذه القاعة ألقى بحثي المذكور كما ترأست أحد الجلسات»³، كما أشاد بالتنظيم المحكم وبخصال السعوديين وما يتحلون به من أخلاق فاضلة وشيم عالية وبذل سخي في سبيل نهضة وطنهم، وتفاعل بمستقبل بلدهم وأبدى إعجابه بجامعاتهم، وتوفر مظاهر الحضارة والتمدن الثقافي العلمي، فكانت الوسائل الفنية متوفرة بشكل واضح فالترجمة الفورية من العربية إلى الفرنسية والعكس مضمونة، والمصورون وعمال التلفزة

¹ - بشير حمادي في حوار شامل مع الدكتور أبو القاسم سعد الله، جريدة الحقائق الأسبوعية العدد 21 الصادر في 17 مارس 2007م

² - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 242.

³ - المصدر نفسه، ص.ن.

والمشرفون على الكهرباء والصوت والتبريد ونحو ذلك يتخللون القاعات يؤدون مهمتهم بانتظام ودقة كما أنّ الانضباط في المواعيد كسر كل إشاعة من أنّ العربي لا يعرف معنى للوقت¹، فهذه الآلات المتوفرة وغيرها تدل على اهتمامهم بالعلم وهذا ما جعل الكاتب ينبهر بهذا التقدم ونقل لنا أحاسيسه، كيف لا وهو الرجل المحب للعلم وتطوره بل المنقب عنه في مظهره فطاف أصقاعا كثيرة للاطلاع على شتى فنون المعرفة، والوقوف على منشأ ونهاية الحاضرات، فكان المتقن المتحكم في الأداء العلمي بمهارة، المتخصص الذي خلق الإنتاج الفكري، وخلق الإنتاج له وكأنهما صنوان لا يفترقان.²

وإذا كانت زيارته الصيفية للمغرب لم تسمح له بزيارة مكاتب الجامعة؛ فإنه في هاته الرحلة زار مكتبة جامعة الرياض التي اعتزّ بها وافتخر بل انبهر بجمالها وتطورها فكانت «من أحدث طراز وفيها جهاز ذاتي لإطفاء الحريق، وتضم قسمين أحدهما للمخطوطات وآخر للمطبوعات، وتضم المكتبة أربعين ألف كتاب مطبوع وبين أربعة آلاف وخمسة الآلاف مخطوط»³، فجاء هذا الوصف الجميل للمكتبة حتى يبقى القارئ ساكنا متتبعا لأحداث الرحلة، ليكتشف دون عناء موقع المكتبة والعدد الكبير من المخطوطات التي تحويها.

واهتمام الكاتب بشأن المكتبة؛ دليل على حبه لطلب العلم حيث سلخ زهرة شبابه وكهوله وشيوخه في سبيل طلب العلم، لهذا أصبحت الكتابة عنده حرفة تلازمه ويلازمها، يكتب في كل مكان يصطحب معه كنانيشه أينما حل وارتحل، يدون يلاحظ يتساءل يبحث عن مخطوط يحاور من أجل الظفر بغائبة أو اكتشاف حقيقة علمية تنير دروب البحث⁴ كما زار مكتبة المدينة المنورة، ومكتبة مكة المكرمة فوجد فيها معلومات

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 243.

² - ينظر: عاشور يقمعون: أعمال الملتقى الدولي أبو القاسم مؤرخا ومفكرا، (مرجع سابق)، ص 28.

³ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 246.

⁴ - ينظر: عاشور يقمعون: أعمال الملتقى الدولي (مرجع سابق)، ص 30.

كثيرة عن كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، ولكنه لم يفصل في عناوين الكتب والمخطوطات التي اطلع عليها كما في رحلته المغربية.

ولهذا يقول عن المكتبة: «وكنت أرغب بزيارة القسم الثاني بالدرجة الأولى؛ ولكن ضيق الوقت لم يسمح لنا إلا بزيارة القسم الأول»¹، كما عدد أسماء الشخصيات الثقافية التي التقى بها من الجيل القديم والحديث، ولفت انتباهه امتلاك الشخصيات الثقافية من الجيل القديم مكتبات عديدة فكانت حاضرة تعزز بها وتفتخر بها، وعدّد أيضا أسماء الجامعات وأشاد بتطورها وتنظيمها المحكم، كما أعجب بالصحافة السعودية وشبّها بالصحافة الدولية وذكر أنها لا تختلف عن أي صحافة مماثلة في العالم كأخبار المرأة وصورها، وأخبار المطربين والمطربات، وأخبار الشعر والأدب... وهناك عناية خاصة بالرياضة، ويغطي التلفزيون السعودي الأخبار العامة، والأفلام العربية اللبنانية والأجنبية وغيرها².

لاشكّ أنه يشير إلى هاته الأمور باعتبار السعودية بلد الدين وبلد الحرمين الشريفين فلا يتوقع المرء أن يجد مثل هذه الأمور الفنية خاصة ما تعلق بصور المرأة، ولهذا أشار بل كما ذكر أنه ألحّ على ذكر ذلك حتى يبين للقارئ أنها رغم الدين لا تختلف من حيث الفنون عن غيرها من الدول.

2.1 التراث الفكري مقارنة بين رحلتي الخنقة وميزاب:

أشار أبو القاسم سعد الله في هاته الرحلة إلى بعض الموروثات التي قدمها له السيد الدريدي، وإن كانت لاتهمه بالمقدار الذي كانت بعض المخطوطات تهمه، وذكر أسماء تلك الكتب وهي: منار الأشراف لعاشور الحنفي، وتقدير مطبوع للسيد جوناو الوالي العام على الجزائر وقته نحو 1981، فشكرته وقلت إن هذه الآثار معروفة لدي وإنني أبحث عن

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 247.

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 254/256.

غيرها لاسيما المخطوطات¹، ثم ذكر أنه ذهب إلى السيد أحمد زروق بلمكي أحد علماء الخنقة الأحياء، وقدم له بعض الآثار المخطوطة منها قصيدة لوالده ولكنه لم يسجل عنوانها.

ثم انتقل إلى التفصيل في المساجد والمدارس التي حوتها الخنقة سابقا؛ فقدم من خلال رحلته معلومات تاريخية جد مهمة عن هذه المراكز الدينية كسنة البناء، وسنة التجديد... هذا إلى جانب بيانه للأثر الذي تركته، بل وقدم سبب تسميته والتي غالبا ما كانت تستمد من أسماء أعلام أو أسماء قبائل قديمة قد اندثرت، وقدم وصفا شيقا عن الزاوية الناصرية، كنا أشرنا إليه سابقا، غير أننا لم نفصل فيها رغبة في التفصيل فيها في هذا العنصر ومن هذه المراكز.

الجامع الكبير المعروف بجامع سيدي مبارك الموجود ضريحه في ملحق بالجامع، وهو جامع الجمعة العتيق الذي يعود تأسيسه إلى القرن السابع عشر ميلادي الحادي عشر هجري، ولم تقتصر مهمة هذا الجامع في العبادة وأداء الصلوات الخمس «بل كان مركزا لنشر العلم حيث تتحلق فيه حلقات الدروس من شيوخ قال عنهم الورتلاني: إنهم اشتهروا بالبحو والفقه والحديث، ولا يحبون تدريس التوحيد والمنطق، وطالما تبادل هؤلاء الشيوخ الرسائل والأجوبة في مختلف قضايا العلم»².

وكان الجامع الكبير مأثرة جليلة، فهو لم يكن فقط لأداء الصلوات؛ بل كان مركزا لنشر العلم حيث تتحلق فيه حلقات الدروس من شيوخ، والجامع واسع يحتوي على ست وعشرين عرصة، وله صحن ولهذا الصحن محراب أيضا كما للجامع صومعة عالية مازالت جيدة الصنع، وهناك تواريخ منقوشة على محراب وقبة الجامع، ومن ذلك ما وجدته منقوشا على المحراب أن باني الجامع هم محمد بن محمد الطيب سنة 1171،

¹ ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص258.

² المصدر نفسه، ص261.

وهناك أضرحة كثيرة في غرف خاصة تضم أجدات أولاد حسين وأولاد مبارك وأولاد بلمكي، بعضها مازال يحمل تاريخ الوفاة، وبعضها محت الرطوبة والبلى تاريخه.¹

أما عن الزوايا؛ فقد ذكر الكاتب زاويتين مشهورتين، وهي الزاوية المنسوبة إلى محمد بن ناصر تعود إلى القرن الحادي عشر الهجري، أما الزاوية الثانية هي الرحمانية فهي حديثة نسبياً، تعود إلى القرن الثالث عشر، ومؤسسها الشيخ عبد الحفيظ الخنقي، ثم يطنب في وصف الزاوية الناصرية وتاريخها، وقد طافوا بها وبجامعها ومدرستها التي أشعت على المنطقة بالعلم والمعرفة طيلة قرنين أو يزيد، وكانت موئل علماء الزاب والصحراء، والأوراس وقسنطينة وزواوة²، بل تونس وطرابلس، وبنيت «المدرسة الناصرية عام 1171هـ، من طرف الشيخ أحمد بن ناصر بن محمد بن الطيب، فكانت مركزاً لنهل العلم الشرعي وشتى العلوم وتخرج من هذه المدرسة العديد من العلماء منهم عبد الحميد بن باديس، محمد المدني بن المكي بن الصديق، والعربي التبسي»³ وغيرهم، ثم مضى إلى وصف زاوية الشيخ عبد الحفيظ، فليس هناك تاريخ مضبوط، وتوجد لوحة خشبية عند ضريح الشيخ، عليها كتابات بالسمق في اتجاهات مختلفة، ويبدو أن الزوار كانوا يسجلون تاريخاً أو حكمة في هذه اللوحة، ولا شك أن هذه الزاوية قد بدأت بنشر العلم وقراءة القرآن وإطعام الطعام، ثم اختفى دورها العلمي مع تقدم الاستعمار⁴، كما وصف بدقة مدرسة الزاوية، وذكر بعض الطلاب الذين تخرجوا منها وهي لا تزال قائمة تحتوي على خمس غرف، وتضم كل غرفة من خمسة إلى عشرة طلاب، ومن طلابها المرحوم أحمد السرحاني، والمرحوم العربي تبسي، وفي وسط المدرسة باحة وحولها الغرف لسكنى الطلبة في طابقين، ولها بابان: باب خارجي على الزقاق، وباب داخلي

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص262.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص260.

³ - مطوية التعريف الوجيز بتاريخ خنقة سيدي ناجي مسجد سيدي المبارك، 2018، ص02.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص263.

يؤدي إلى الجامع، ولهذا المدرسة بالإضافة إلى الغرف حمامات وكوشة وصخور منحوتة بأحواض ماء لمحو الألواح.¹

فالكاتب وهو يصور هذه المشاهد يجعل القارئ يرحل بخياله إلى صعيد الصورة الوجدانية عن طريق التخيل فكأنّ هذه المدرسة قريبة منه، ويعود ذلك إلى شخصية الكاتب وما يتحلى به من حس صحفي ودقّة ملاحظة، وصلاته الوطيدة بالمتقنين جعلتهم يحتفون به أينما حل، وييسرون له سبل الاتصال.

ثم ذكر أخبار ثقافية عن حاله الخنقة قبل دخول الاستعمار الفرنسي للجزائر ولكنها أخبار تقوم على الذاكرة فقط تحتاج إلى توثيق وتدقيق.

وإذا انتقلنا إلى حفل في ميزاب؛ نجده يشير في بدايتها إلى أنّ ميزاب من الشموع العلمية التي بقيت منيرة بعد انطفاء عدّة شموع بعد الاحتلال الفرنسي، الذي حطّم منارات العلم ورحل مخلفا وراءه الجهل والأميّة، ومن مراكز العلم القديمة تلمسان، تيهرت، بجاية قسنطينة، معسكر، والجزائر، ومن مراكز العلم الحديثة بسكرة وميزاب، ثم انتقل للحديث عن زميله محمد علي الذي دافع عن نظرية الشمال والجنوب قائلاً عنه: «كان المرحوم محمد علي دبوز يهدي إليّ كتبه عن النهضة الجزائرية وأعلام الإصلاح، وهي كتب تمثل بحق مجهوداً فردياً تنوء به العصبية أولو القوة، وكنت أخرج من مجاراته في الأطروحة العامة التي يبني عليها مؤلفاته، وهي التاريخ للنهضة الجزائرية بتطبيق نظرية شمال وجنوب... وكنت أقول لعله يبالغ في ذلك، ولكنني بعد أن عرفت بنفسني مدى النهضة العلميّة التي عرفتها المنطقة خلال حوالي قرن، عذرتّه فيما ذهب إليه وازداد جهده مكانة في نفسي»² فما قصده بالشمال يعني المدن الساحلية التي احتوت على مراكز العلم

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 261.

² - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية، (مصدر سابق)، ص 66.

والشخصيات العلمية وما قصده بالجنوب بسكرة وميزاب؛ لأنها مدينة أنجبت علماء كباراً، كما أنها تتغنى بتاريخ عظيم خلد اسمها، وبقي محفوراً في الذاكرة التاريخية.

ثم انطلق يصف الحفل فوصف كثرة الجموع التي حضرت الحفل التأييني القرادي، وأشاد بحبهم للعلم والثقافة ووصف مادة المحاضرات، وحالة المحاضرين فمنهم من يبكي لما يقف على ذكريات القرادي «فكانت المحاضرات الدسمة التي يحلل فيها المحاضر الوضع الاجتماعي والسياسي والأدبي؛ لميزاب على عهد القرادي، وكانت الكلمات الحافلة بالذكريات العطرة عن الفقيد وغالبا ما كان يتخلل هذه الكلمات الإجهاش بالبكاء وانهمار الدموع الحارة»،¹ كما عد أهل ميزاب بلابل الأدب العربي في الجزائر، وهذا بفضل صفاء سيرتهم، ودراستهم في المعاهد الجزائرية والمشرقية، ثم تحدث عن الجمعيات الثقافية التي لفتت انتباهه بفصاحتها ونشاطها الدؤوب، فذكر أسماء بعض هذه الجمعيات ومنها: جمعية الحياة، جمعية النهضة، جمعية الإصلاح، جمعية الفتح، جمعية الوفاق الجمعية الجابرية، مجموعة الفن والأدب الإسلامي... إلخ، «ألا يدل هذا على ذوق سليم، ألا يدل على الالتزام بالانتماء العربي الإسلامي»²، بل في هذا دلالة على حبهم للغة الضاد وحرصهم على تعلمها وتعليمها والمحافظة عليها، ونشاطهم الثقافي هذا أثلج صدر الرحالة وأدخل عليه السرور، واعتبرها بادرة خير على أهل ميزاب وعلى الجزائر ككل، وكل هذا دلالة على حرصهم وتمسكهم بالمبادئ العربية والإسلامية؛ التي منعتهم من الانسلاخ من شخصياتهم وهوياتهم.

كما عبر عن التواصل الفكري بين الأجيال في ميزاب، وخوفهم من عدم حفاظ الخلف على هذا التراث الضخم ومن ذلك قوله: «وأثناء الملتقى الذي نحن بصدده أحسست من كلام بعض الشيوخ أنّ هناك خوفاً من طفرات الشباب نتيجة للمؤثرات التي تعرفها

¹ - المصدر نفسه، ص 69.

² - المصدر نفسه، ص 70.

الجزائر في عمومها؛ ولذلك جاء خطاب الشيوخ مليئاً بالنصح والتحذير، والدعاء بأن يحافظ الجيل الجديد على تراث الأجداد»¹

كما أشار إلى مصدر الحركة الإصلاحية في ميزاب، «ألا وهو معهد الحياة بالقرارة أي النهضة التعليمية التي جاءت بعد غفوة طويلة، وفي هذا السياق يشار إلى البعثات العلمية التي توجهت إلى تونس للمزيد من العلم»²، فالمعهد يمثل منبع الحياة الثقافية بمنطقة الزّاب كما لم ينس أن يعطينا لمحة موجزة عن الشيخ القراي الفذ وعن نشاطه العلمي، وكان الشيخ القراي قد تعلم في عاصمة الجزائر، وفي تونس وفي معهد الحياة بالقرارة، حيث تتلمذ على إبراهيم بيوض³، ثم أصبح من معلمي هذا المعهد، كما أدى القراي أعمالاً مهمة في الحياة العامة، كان من النشطين في الكشافة الإسلامية، وفي إدارة دار الفكر الإسلامي بالعاصمة، وقد أصبح عضواً في جمعية القيم... الخ، أما نشاطه العلمي فيبدو أن الفقيد كان منصرفاً، مثل أغلب علماء الجزائر خلال المئة سنة الماضية إلى تكوين الرجال وأداء الأعمال العائدة بالفائدة على الحياة الثقافية، أما التأليف فلم يشتهر به، وإنما ترك مقالات وكتابات، وعلى الغيورين على تراثه بجمعها ونشرها.⁴ فهذا التعريف الموجز القراي كشف لنا عن أثر هذه الشخصية في الحياة الثقافية، وعن شهامة الرجل ووطنيته وإخلاصه للعلم.

¹ - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية، (مصدر سابق)، ص 72.

² - المصدر نفسه، ص 72.

³ - ولد إبراهيم بن عمر بن باية بيوض في أبريل 1899م بمدينة القرارة من وادي ميزاب جنوب الجزائر، لقبه بيوض أول من لقب به جده الثاني إبراهيم بن حمو الأول، لبياض وجهه وجمال هيئته فسارها اللقب إلى أسرته، يعد الشيخ إبراهيم من الرجال الذين تعددت نشاطاتهم العلمية والاجتماعية باعتباره رجل علم وتربية، ولم يقف عند هذا الحد بل كانت له إسهامات عظيمة وبقدر واسع في المجال السياسي، فكان واحد من بين مؤسسي جمعية العلماء المسلمين، كما أنشأ معهد الحياة سنة 1925م، وجعله مناراً للإشعاع المعرفي والإصلاحي والاجتماعي. أنظر: محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر مطبعة البعث ط1، قسنطينة، 1974م. 130/1. وانظر محمد بن موسى بابا عمي وآخرون معجم أعلام الإباضية، دار الغرب الإسلامي ط1، بيروت لبنان 2000، 20/2.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية مصدر سابق، ص 72/73.

2. التراث الاجتماعي:

ويقصد به تلك السلوكيات والأفكار والمعتقدات التي مارسها أجدادنا وانتقلت إلينا وهي تنحصر في:

1.2: العادات والتقاليد:

ترتبط العادات والتقاليد بسلوك الإنسان اليومي مع نفسه وعلاقته بالآخر وتكون مقدسة بالنسبة للمجتمع ويخضع لها كل أفرادها ويمارسونها بطريقة عفوية دون أن يجدوا لذلك مسوغاً أو سبباً، والأمر الذي ألبسها هو ذلك الامتثال الجماعي والقول والمراقبة الاجتماعية التي قد تصل في بعض الأحيان إلى الطاعة المطلقة وتتوقف العادات الاجتماعية على ظروف المجتمع فهي تختلف بحسب المجتمعات وبحسب الأزمنة المطلقة.¹

أما العادات والتقاليد الاجتماعية «فهي أنماط من السلوك تتضمن القيم الذاتية التي تعتر بها الجماعة كما تتضمن أنواعاً من التفكير والتصورات والمعتقدات الخاصة بها والسائدة فيها والتي تنتقل بينها من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل»²

2.1.2. الأنتلاف والاختلاف في العادات في رحلات سعد الله الخارجية:

كان لتوظيف التراث والعناصر الثقافية الأخرى صدىً بازرّاً لدى العديد من كتّاب النثر، ولعل ذلك يفسر كثرة الأعمال الأدبية التي اهتمت بالتراث في السبعينات، فهو جزء من ثقافة المبدع العربي لذا؛ فإن استثماره للتراث يعد إفادة من ثقافته الشخصية، ولا شك أن ثقافة المبدع التراثية ووعيه بهذا التراث ينعكس على عملية توظيفه لهذا التراث، ومن أشكال التراث التي وظّفها الرحالة في رحلاته العادات

¹ - فاروق أحمد مصطفى: الأنثروبولوجيا ودراسة التراث الشعبي، دراسة ميدانية، دار المعرفة الجامعية، ط1، 2008م، ص78.

² - فايزة أنور أحمد شكري: القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم، دار المعرفة الجامعية ط1، 2002م، ص300.

والتقاليد للبلدان التي زارها سواء كان ذلك داخل الوطن أو خارجه فهي تختلف من مكان إلى آخر، ومن العادات والتقاليد التي اطلع عليها وتحدث عنها في رحلته المغربية:

تعتبر الجلابة المغربية الزي التقليدي الأصيل الذي لا يستغني عنه المغاربة الرجال والنساء، مع شيء من الاختلاف في الشكل فمن عادات الشعب المغربي لبس الجلابة المغربية الأصلية، وخصوصا في المناسبات كالأعياد، ولذا نجدها أول شيء لفت نظر الرحالة في أيامه الأولى مشيرا إلى ذلك قائلا: «وخلال الأيام الأولى بالمكتبة رأيت شيئا طویل القامة، أسمر اللون يرتدي جلابة مغربية وطربوشا»¹، فالملابس هي من المستلزمات والضروريات الشخصية التي تؤثر في النشاط الاجتماعي، فلكل مجتمع لباسه الخاص به الذي يميزه عن باقي المجتمعات، إذ يحدد شخصية الإنسان ويوحى بمستواه الثقافي والاجتماعي، فلباس الطبيب مثلا ليس كلباس البناء، مما يدل على أهمية اللباس في تحديد هوية الفرد.

وتحظى جلسة التربيعة في الوسط المغربي بمكانة كبيرة أثناء احتساء الشاي والقهوة فهي الجلسة التقليدية التي يعتزون بها «كما في العهود السابقة يشربون القهوة والشاي ويلعبون الورق»²، كما أجمل الحديث عن عادة تناول الغداء المغربي التي كانت بالأيدي كعادة المغاربة، بالإضافة إلى التفنن في إبداع المآكل على مستوى يدل على الثراء والبذخ والرقي، في مأدبة غداء في بيت الدكتور الجراري دعا إليها أصدقاءه، وأصدقاء الكاتب جمعت بين شهية الطعام، وأمتع الكلام حيث «كانت جلسة ممتعة تناولنا فيها الطعام الشهية الذي تفننت في إعداده حرم الدكتور الجراري وأبرزت فيه كل محاسن الطبق المغربي»³ وهذا ما يدل على الكرم والجود وحسن الضيافة، فشدة فرحهم

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 213.

² - المصدر نفسه، ص 215.

³ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 218.

بالضيوف جعلتهم يتفننون في إبداع الأطباق، ويخصصون له هاته الأطباق المتميزة، ويبدون له شدة اهتمامهم به.

وقد حفلت زخرفت البيوت المغربية، والأثاث الفاخر والزرابي الرفيعة والرياش الكثير بجانب من الوصف في هاته الرحلة إلى جانب الطعام الشهي«فالزيارة الثانية للجراري جمعنا فيها بين لذيذ الطعام، وشهي الكلام فبعد الجلوس في قاعة مفروشة بالزرابي المنمقة والأرائك الهشة والمحلاة بالتحف الثمينة، والمناضد المنقوشة بالزخرفة المغربية الأصيلة، توجهنا إلى قاعة الطعام حيث تحلقنا حول مائدة دسمة تبدأ بالبسطيلاء المسكرة الملوزة وتنتى بالدجاج المحمر والتمبل¹، فعلى فخامة ذلك المنزل وعصرنته إلا أنه يحتفظ بالعديد من التحف الأثرية التي تحفظ تراثهم وتصونه من الضياع، كما أن الزرابي التقليدية الأصيلة ماثورة في كل نواحي المنزل، أبرزت موهبة صناعها، وهذا ما جعل الرحالة يصفها بكل إعجاب.

إنّ المبدع، وفق هذا التصور، أمام تجربة إبداعية خاصة ستقوده إلى استلها ما يغني هذه التجربة من نصوص تراثية تروي عطش القارئ، بما يمكن أن يحملها من إمكانات فنية جمالية ودلالات جديدة تعكس وجهات نظر المبدع اتجاه الموروث في حد ذاته، أو اتجاه الواقع الذي يعيشه.

ويحظى الكسكي المصفر بالزعفران بمكانة كبيرة في الوسط المغربي حيث يمثل الوجبة التقليدية الأصيلة التي يفتخر بها الجزائريون والمغاربة ويقدمونها كطبق لضيوفهم، وقد وصف الرحالة هذا الطبق الذي قدم له بالفخر قائلا:«وتنتقل إلى الكسكي المصفر بالزعفران الحر والمدهون بأصيل الدهان، وتختم بالفاكهة المنتقاة من خير ما تجود به حقول المغرب المعطاء، ومرة أخرى استغنينا بالأصابع عن الشوك والملاعق، وبالجلوس

¹ - المصدر نفسه، ص 224.

العربي على الجلوس الأوروبي، وبماء الإبريق عن ماء العين»¹، وعرفت هذه الأكلة عند المجتمع الجزائري منذ القدم واشتهرت أكثر في عهد الاحتلال الفرنسي حيث كانت تعده النساء للمجاهدين، كما يقدم في الأعراس والمناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف، وما زال الكسكس باعتباره أكلة شعبية تقليدية تشترك فيه معظم الأسر الجزائرية والمغربية محتفظا بمكانته إلى يومنا هذا، فمن أصالة الشعب المغربي الأكل بالأيدي بدل الملاعق وهي سنة النبي صلى الله عليه وسلم، بل جعل فضلا لمن يلحق أصابعه بعد الأكل، ففي صحيح البخاري في باب لعق الأصابع ومصها قبل أن تمسح بالمنديل، عن ابن عباس قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا أكل أحدكم فلا يمسح يده حتى يلعقها أو يلعقها»²، ولاشك أن هذه الموروثات بدأت تفقد وظيفتها شيئا فشيئا في المجتمع الجزائري، إلا أنها مازالت موجودة وحاضرة في المجتمع المغربي تمارس بطريقة أو بأخرى، كما أبدى إعجابه بالجلوس على الأرض بدل الكراسي، وهي شيم الشعب المغربي المحافظ على التراث والأصالة.

وبعد إنهاء العشاء على موائد الأانس انتقل للحديث عن الجلسة الحميمية في قاعة الجلوس، وما دار الحديث حوله من ندى عبق العلم، وإبداء الآراء عن العلماء، حول مائدة القهوة والشاي مما يبعث انتعاشا في الجسم ويجعله قادرا على مواصلة الحديث بعد وجبة العشاء بكل نشاط وحيوية، بل إنه لا يكون مجلس بين جماعة معينة إلا وكانت القهوة والشاي المشروب الأساسي الحاضر بينهم، «وعلى أثر الغداء عدنا إلى قاعة الجلوس حيث شربنا القهوة ثم الشاي، وطاب الحديث وتشجن حتى شمل بعض مواقف بعض العلماء التاريخ حتى شمل قضايا بلادهم ونظم حكومتهم»³، فالشاي هو المشروب التقليدي للمغاربة وصحراء الجزائر، فيقدم بعد الوجبات الدسمة حتى يذهب التخمّة وهو تقليد أجاد

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 225.

² - البخاري محمد بن إسماعيل البخاري أبو عبد الله: صحيح، دار ابن كثير دمشق، ط1 بيروت، 1423هـ/ 2002م، ص 5456.

³ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 225.

فيه المغاربة، ومن كل هذا وذاك نخلص إلى أن ذلك يدل على كرم الضيافة، وحسن الاستقبال ولعل إعجاب الرحالة بكل ذلك جعله يصوره في أحسن صورة.

و خلال تجولاته بين أحياء وشوارع المغرب؛ لاحظ كثيرا من الشوارع المغربية «تحمل أسماء المدن العربية العتيقة والعواصم الحالية مثل القاهرة وعمان ودمشق وجدة والطائف والقدس وبيروت وحلب وحمص. وهو تقليد أجاد فيه المغاربة، وهو بلا شك مظهر من مظاهر العراقة.»¹

كما لم ينس أخلاق وآداب أهل المغرب؛ فباعة السوق صدورهم رحبة، يتعاملون مع الزبائن بأدب جم، نفتقده نحن في أسواقنا، بل إن أهل المغرب كرماء فذكر أن زميله لم يبخل عليه بعلمه كما لم يبخل عليه بطعامه.

ولا يختلف أهل الجزيرة العربية عن أهل المغرب في لطافتهم، فهم مؤدبون جدا في معاملاتهم، ومن حيث الموروثات الاجتماعية فشأنها شأن الرحلة المغربية من حيث الأطعمة والأرائك، فهي تزخر بمجموعة من العادات والتقاليد التي ورثوها عن أجدادهم وحافظوا عليها، ولكن نجد اختلاف الأطباق من بلد إلى آخر، وكذلك موعد تقديم القهوة ففي «حفلة العشاء التي أقامها مدير جامعة الرياض في الموقع الجديد للجامعة حيث اصطفت الوفود على شكل قوس كبير على فُرُش، وقدمت لهم القهوة قبل تناول العشاء، ثم صفت جفان الأرز باللحم وأعقبوها بالشاي، وكان من المنتظر حسبا أخبرني بعض الزملاء أن تأتي فرقة سعودية تقليدية لتؤدي رقصة السيف، ولكنها لم تتمكن من الحضور، لأنها كانت تؤدي مهمتها في مناسبة أخرى رسمية»². فالأرز باللحم أكلة تقليدية سعودية معروفة في الوسط السعودي بل هي الوجبة الرئيسية بالنسبة لغالب الخليج العربي، ولا يزال أهل السعودية متمسكين ببعض العادات المتعلقة باحتفالاتهم كإحضار

¹ - المصدر نفسه، ص208.

² - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص244.

فرقة الرقص بالسيف، ولا يزالون يحتفظون بآلات الأجداد التي كانوا يستعملونها في أفراحهم كالسيوف والدف ورقصة الرأس، فهذه الآلات التقليدية التي يستعملونها في مختلف أفراحهم هي «آلات موسيقية بسيطة في تكوينها عميقة الأثر فيما تحدثه من إيقاعات يطرب لها الحاضرون»¹.

ولاشكّ أنّ الكاتب أغفل ذكر المعارض في الرحلة المغربية وأتى على ذكرها في هذه الرحلة فمعرض الفاو الذي يوجد بكلية الأدب ويضم آثارا عثرت عليها هيئة أثرية بقيادة عبد الرحمن الأنصاري في مدينة الفاو القديمة والعتيقة؛ يتميز بنظام المعرض وغلاوة الأشياء التي يحويها، لأنها تعود إلى ما قبل الإسلام وتكشف عن ماضي العرب، من ذلك أنواع العملة وأشكال من أواني زجاجية وتمائيل وأدوات منزلية وكتابات بالخط المسند تعود إلى القرن الثاني بعد الميلاد²، فهذه الموروثات التقليدية تعبر عن أصالة أهل البلد، وعراقة تراثهم ومدى تمسكهم بموروثاتهم وتقاليدهم.

وتحتوي منطقة الدرعية على معالم أثرية عميقة وضاربة في تاريخ العربية السعودية فهي عبارة عن قصور وقلاع ومقاصير وأبواب خشبية مزخرفة وأشكال هندسية جديدة بالدرس والمحافظة، لأنها جزء من تراث الجزيرة العربية³، ولاشكّ أنّ هذه الموروثات بدأت تفقد وظيفتها شيئاً فشيئاً، فلابد من المحافظة عليها من التلاشي والضياع، لأنها تحمل تراثاً أصيلاً، وحفظت الكثير من المعلومات عن الخليج العربي.

ولا مشاحة في أنّ المتحف الوطني قد جمع أروع الصور واللوحات الفنية، فهو على صغره تحفة من حيث التنظيم والتنسيق وطريقة العرض، بالإضافة إلى آثار الأنبياء والمواقع الدينية، التي تلفت انتباه السائحين من الحجاج وغيرهم.

¹ - فاروق أحمد مصطفى: الأنتروبولوجيا ودراسة التراث الشعبي، (مرجع سابق)، ص190.

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص244.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص245.

وأما الأسواق؛ فإنها تعد من الأماكن التي قصدتها الرحالة، كما في الرحلة المغربية ويقصدها سكان البلد لاحظ فيها مدى التطور والتقدم، وطريقة الترتيب التي كانت تشبه الطريقة الأوروبية والأمريكية، قائلاً عنها: «دخلت السوق العامة سوبر مارشي؛ فإذا فيها كل شيء على الطريقة الأوروبية الأمريكية، ورأيت هناك عدة أزواج عرب وغير عرب يشترون ثم يخرجون لسيارتهم التي تنتظرهم في الخارج، وفي الطريق مررت بعدة دكاكين تؤدي دورها الحيوي في الحياة الاقتصادية»¹، فهاته الأسواق نالت إعجاب الرحالة ولهذا قدّم لها هذا الوصف المستفيض، كما أشار إلى أنّ هناك مواسم تجارية تقام استعداداً لموسم الحج، حيث يأتي الناس من كل جهة لعرض منتوجاتهم.

هذه بعض العادات والتقاليد التي لفتت اهتمام الرحالة أثناء تجوله بين مدن وقرى المغرب والسعودية، فهي موروثات ذات أبعاد دلالية وثقافية، ولا بد من حماية الكتب والمخطوطات واللوحات الوثائقية والمنحوتات والمصنعات الثقافية الأخرى من عوامل التلف وحماية الموروث الموسيقي عبر الأشرطة، والحفاظ على البيوت التراثية من خلال شرائها من أصحابها، لئلا يهدموها ويُعيدوا بناءها، كما يجب توثيق كل ما هو على وشك الاندثار.

3.1.2. الانتلاف والاختلاف في العادات في رحلات سعد الله الداخلية

وإذا انتقلنا إلى خنقة سيدي ناجي؛ فنجد الزي التقليدي المحلي هو أول ما يميّز سكان هذه البلدة، وإذا الناس في زيهم المحلي (البرانس أو القشابية) يختلفون في الأزقة وعند الدكاكين القليلة² «واللباس يمثل هوية الشعب، ويختلف من شخص لآخر، ومن طبقة إلى أخرى في المجتمع، ومن منطقة إلى منطقة، وتتحكم فيه العوامل الجوية والبيئية والجغرافية

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 246.

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 258.

والتاريخية والدينية»¹، فكل مكان وطبيعته الجوية، والبرانس جمع برنوس، وهو لباس خارجي يستعمل عند الرجال عادة، وتشارك في كلمة برنس معظم الدول المغاربية مثل الجزائر وتونس وليبيا ولا تزال هذه التسمية إلى يومنا هذا في الجزائر وخاصة في المناسبات، وهو في شكله العام رداء ثقيل منسوج من الصوف أو الوبر دون أكمام، ومربوط في الرقبة²، فمن الألبسة التقليدية عند أهل بسكرة لبس البرنوس، بل يشتهرون به خاصة في فصل الشتاء، وهو زي تقليدي معروف في الوسط الجزائري، يعبر عن أصالة أهل المنطقة وعراقة تاريخها.

واللآفت للنظر في خنقة سيدي ناجي هو كثرة العمران القديم، والمنازل القديمة اندثرت في أكثر مدن الوطن الجزائري، لكن الخنقة لا تزال تحتفظ بهذه المباني التي تشكل معلما تاريخيا بعد هجرة سكانها إلى مناطق أخرى بعد الاحتلال الفرنسي.

وإذا كان البرنوس والقشابية هي اللباس المميز لأهل الخنقة فإنّ اللباس الأبيض أيضا واللحية العرقية هي العلامات المميزة للجموع المتراسة³ في ميزاب، فلا يزالون متمسكون بلباسهم التقليدي الأصيل، واللون الأبيض لم يتم اختياره بطريقة عشوائية، وإنما له دلالة وهي أنه يقي من حرارة الشمس، ثم هو لباس تقليدي مميز عند أهل المنطقة وأهل الجنوب عامة، فالكثير من سكان الصحراء يرتدون القندورة البيضاء ويعتزون بها، لأنهم ورثوها عن أجدادهم، وهو نفسه ما تميز به أهل الخنقة من اللباس.

كما مثلت جلسة التربيعة بين حضور الحفل معلما تراثيا أصيلا «في الجامع الذي شيّد في الإسلام على التقوى والجهاد والعلم؛ يجلس المسلم فيه متربعا إلى جانب المسلم،

¹ - عليّة أحمد عابدين: دراسات في سيكولوجية الملابس،: دار الفكر العربي، ط1 القاهرة، 1996م، ص43.

² - ثريا نصر: تاريخ أزياء الشعوب، عالم الكتب، ط1 القاهرة 1998م، ص13.

³ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية، ص 68.

الركبة بالركبة والكتف إلى جانب الكتف بدون منصة ولا كرسي»¹، فمن بساطة القوم اكتفاؤهم بالجلوس على الأرض، وحفاظهم على أصالتهم وعاداتهم، فكما أنهم لم يتكفوا في معيشتهم فإنهم كذلك لم يتكفوا في بهرجة الحفل والمبالغة فيه، واعتمادهم على ما هو تقليدي أكثر كما أن الجلوس على الأرض من طبائع أهل الصحراء عامة.

وفي الحياة الاجتماعية العامة للميزابين؛ يحتكمون فيها إلى مجلس عمي سعيد، وهو مجلس الحل والعقد عندهم أي يحتكمون إليه في جميع شؤونهم كحلول مشاكل أمور الزواج وبيع الأراضي وغيرها، وهذا ما جعل الرحالة يتفاعل بمستقبل ميزاب الحضاري، لأن هذه التقاليد أخذت تتلاشى في أماكن أخرى من الوطن تاركة مكانها لواردات غريبة، فأهل ميزاب مترابطون ترابطا اجتماعيا وثقافيا، بحيث يصدق عليهم الحديث كالبنيان المرصوص².

كما أن حرص المجتمع الميزابي على الأمن والاستقرار؛ جعلهم يشكلون ما يسمى بالعزابة» فلكل قرية عزابة أو جماعة تسهر على مصالحها، وتنظم شؤونها وتقرر حتى في المسائل الشائكة أو الخلافية... وبالإضافة إلى العزابة مجلس أعلى يحتكم إليه الناس، وهو كما سبق هيئة عليا ذات سلطة معنوية كبيرة، ولا يتولاه إلا من كان يتمتع بقوة علمية، فهذه المؤسسات التقليدية بالإضافة إلى روح التعاون تجعل مجتمع ميزاب كخلية النحل»³ وطبيعة الحياة جعلت الميزابي يحافظ على العديد من الموروثات التي بدأت تزول في بعض المناطق من القطر الجزائري، وسكان الصحراء معروفون بالنشاط والحيوية، فهم كالنحل يشتغلون منذ طلوع الفجر، فلا تمنعهم حرارة ولا ترهقهم مشقة عن عملهم، و إعجاب الكاتب بهذا الاتحاد الذي لا مثيل له في وطننا العزيز جعلته لا يتوانى في تشبيهه

¹ - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية (المصدر السابق)، ص 68.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 70.

³ - أبو القاسم سعد الله: هموم حضارية (مصدر سابق)، ص 70.

بخفية النحل، وهذا الانضباط والنية الحسنة في العمل هو الذي جعل أهل ميزاب يعيشون حياة سعادة وهناء رغم صعوبة الطبيعة.

ومما يزيد بهاء الرحلة الميزابية الموروث الاجتماعي المتمثل في دار العشيرة «وهي مبنى يتسع لعدد كبير من الزوار وله وسط واسع لم تتضد فيه الموائد بالطريقة المعروفة؛ ولكن يجلس الناس فيه على شكل حلقات من سبعة إلى عشرة أفراد، والمبنى مجهز لأنشطة ثقافية أخرى فقد رأينا فيه معلقات وصورا وغير ذلك»¹، وهذا ما يدل على محافظة أهل ميزاب على تراث أجدادهم، وسعيهم الجاد في الإصلاح ودعوة الشباب للتمسك بالمبادئ العربية والإسلامية، وللتعاون والاتحاد وكل ما فيه خيرا للبلاد والعباد.

هذا ويعتمد أهل ميزاب في زراعتهم على الوسائل التقليدية فقط التي تحتاج إلى بذل جهد عضلي كبير، ومع هذه الصعوبات التي تعترض الفلاح الميزابي إلا أنه لم يستسلم لها بل تحداها وكان لاستثمار بلادهم ما كان لغيرها من البلدان الأخرى من النخيل والفاكهة والبقول والخضروات، وقد أطلعنا على كيفية تفتيت بعض الصخور عن طريق الألغام².

2.2. المعتقدات:

المعتقدات «هي مجمل ما يؤمن به الشعب فيما يتعلّق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعة، وتتميز المعتقدات بخصائص مميزة منها أنها ميدان من ميادين التراث الشعبي، أو ما يعرف بالأفكار أو المواقف الإنسانية العامة أو ما يعرف بالأفكار الأساسية، كما تهتم بالبحث عن تصورات الناس حول بعض الظواهر الطبيعية والنفسية»³، ولقد شكّلت زيارة الأضرحة متنفساً وخروجاً عن العالم المادي إلى العالم الروحي ممثلاً في رمز

¹ - المصدر نفسه، ص 71.

² - المصدر نفسه، ص 72.

³ - فاروق أحمد مصطفى: الأنثروبولوجيا ودراسة التراث الشعبي، ص 32.

الولي الصالح، ومثلت هذه الظاهرة تواصلا بين الماضي الجميل والحاضر المفزع عند استذكار فضائل وكرامات أصحاب الأضرحة، وقد ارتبطت هذه الظاهرة بحل العديد من المشاكل سواء كانت عضوية أو نفسية، أو اجتماعية، وكلها أفكار خاطئة ومغلوبة، وزيارة الأضرحة عادة متوارثة لا يعرف بالضبط تاريخ ظهورها في العالم الإسلامي.

وفي الرحلة المغربية؛ وقف الكاتب على ضريح محمد الخامس الذي كان محكم الصنعة وذا جودة عالية في النقش والزخرفة، وهو ما أسحر عينه وأبهر لبه فوصفه قائلا: «وما زالت الأعمال جارية في ضريح محمد الخامس، ولكن الجزء الذي انتهى منه يمثل أعجوبة في الصنعة والذوق والمهارة، فهو يحتوي على فسيفساء نادرة ورخام ملون ونقوش مذهبة، وقد حفرت آيات من القرآن الكريم على مدار القبة الخضراء والصفراء التي يزيد لها لمعان الكهرباء جمالا وجلالا»، فهذه المعتقدات التي يؤمن بها المغاربة من تقديس للمقبورين واعتقادهم أنهم ينفعون ويضرون، «وكما هو معلوم أن بعض الأسر المغربية تلجأ إلى هذه الأماكن بغية البحث عن علاج لمجموعة من الاضطرابات النفسية، أو للبحث عن مجموعة من حلول للمشاكل الاجتماعية التي تعيق السيرورة العادية لحياة الفرد».¹

والمغرب من أكثر البلدان العربية احتضانا للأضرحة والزوايا، وخصوصا أن لها جذورا ضاربة في التاريخ، هذا وتستند هذه الأضرحة على كرامات الولي الذي يدفن في القبر ويشيد ببناء يغطي بأثواب خضراء عليها بعض الآيات القرآنية لربطه بالدين الإسلامي، ويبقى لكل ولي صالح قصصه الخاصة وكراماته الخارقة والخارجة عن المألوف في غالب الأحيان.

¹ - مجلة الثقافة الشعبية، معهد الشارقة للتراث، مجلة علمية متخصصة في التراث، العدد الثالث والثلاثون، 2016م، ص4.

وقدم الرحالة تخطيطاً هندسياً للضريح، فهو يتكون من عدة أبواب في الأسفل بعضها يقود إلى الجامع الملحق به، وبعضها يقود إلى الخارج، وقد عُلِّقَتْ بالضريح أيضاً مصابيح وثريراً نفيسة¹، وللأضرحة تاريخ قديم في المغرب، فحين تقرأ التاريخ القديم للمغرب تجد أن للجماعات الأمازيغية الأولية التي سكنت المنطقة عدداً من المزارات المقدسة، وفي الشريعة الإسلامية يُنهي عن بناء القبور وتجسيصها، ففي الحديث الصحيح نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تجسيص القبور فعن جابر قال: "نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه"²، رواه أحمد ومسلم.

وإذا انتقلنا إلى الرحلة الحجازية؛ نجد أيضاً بعض المعتقدات الخارجة عن المؤلف والتي لا يمكن للعقل تقبلها في مثل هذا المكان، فقد شاهد الكاتب في المدينة أمورا مبالغاً فيها، بل استغرب كيف أن الذين سبقوه لم يتأثروا أكثر لهذا الشرك «فقد كنت أتعجب وأنا أقرأ تاريخ الرحلات القديمة إلى الحجاز ووصف العلماء والرحالة لمشاهداتهم إزاء هذا المكان، ولكن عندما وقفت نفس الموقف عذرتهم في تأثرهم، بل استغربت كيف لم يتأثروا أكثر من ذلك حقا أن المرء يشاهد هناك أمورا مبالغاً فيها ليست من الدين في شيء... فأنت ترى الباكين والنائحين، والمُقبِّلين للحجر والحديد، والداعين غير الله»³.

فديننا نهى عن مثل تلك الأفعال الخرافية، وتقديس الحديد والحجر أمر لم يعرفه الإسلام، بل جاءت نصوصه الثابتة بالنهي الصريح عن كل شرك، ومن الأقوال القاطعة على حرمة ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «لا تجعلوا بيوتكم مقابر ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم»⁴، أخرجه الإمام أحمد، لهذا فإن تقبيل الحجر

¹ أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 227.

² مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم كتاب الجنائز باب النهي عن تجسيص القبر والبناء عليه، دار الخلافة، ط 1، 1330 هـ. 667/2.

³ أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 249.

⁴ أبو داود ناصر الدين الألباني: صحيح سنن أبي داود، كتاب المناسك باب زيارة القبور ط 1423 هـ/2002 م، ص 1769/2.

ليس من الدين في شيء وهذا ما لاحظته الرحالة بين المعتمرين وعابه عليهم الذين يظنون أنهم يتقربون إلى الله بهذه الأعمال، ولكنهم يشركون بالله دون علمهم.

والأمر نفسه نجده في خنقة سيدي ناجي؛ من أضرحة وكتابات عليها، ففي الزاوية الناصرية يشير إلى ضريح سيدي مبارك الذي حمل كتابات وتواريخ وغيرها، فلا يزال المجتمع الجزائري متمسكا بالعديد من المعتقدات كزيارة الأضرحة والتبرك بكرمات الأولياء وهذه المظاهر شهدتها المجتمع الخنقي كغيره من المجتمعات خلال الاحتلال وبعد الاستقلال، فيذكر أبو القاسم سعد الله ذلك بقوله: "أما زاوية عبد الحفيظ؛ فتوجد فيها لوحة خشبية على ضريح عليها كتابات بالسّمق، ويبدو أن الزوّار كانوا يسجلون عليها بيتا من الشعر أو حكمة، أو دعاء حتى أساءوا إلى السّطور الأصلية التي يبدو أن محمود دفين تونس ابن الشيخ عبد الحفيظ قد أرّخ لوفاة والده؛ وهو معتم ورطب، وعليه سبحة ضخمة ذات حبات بنية اللون الواحد منها في حجم حبة الكرز، وقد قيل لي إنه كان بها ألف حبة، غير أنّ الزوار أخذوا منها للتبرك، كما نقش أحدهم بيتين من الشعر أو أكثر على باب الضريح عن طريق التنقيب¹. إنّ هذه النقوش تحمل قيمة كبيرة في تأريخ بعض الحقائق، فقد أفادت المؤرّخين في كثير من المعلومات التاريخية كتاريخ الوفاة وغيرها، إذ تعد شواهد القبور من أصعب فروع الفنّ الإسلامي لما تشتمل عليه من نقوش كتابية وعناصر زخرفية تختلف في أساليب حفرها، ومضمون النقوش الواردة فيها تختلف من نصوص قرآنية إلى أدعية مأثورة، وعبارات تعزية وألقاب، وأبيات شعرية رثائية أحيانا.

وعلى ما تميّز به خنقة سيدي ناجي من أهمية تراثية وتاريخية وفنية كثيرة إلاّ أنّها تشهد إهمالا حقيقيا ومجحفا من طرف السلطات. أما الرحلة الميزابية فلم يذكر فيها الرحالة أي معتقدات لأهلها.

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 261/262.

3. الموروثات الشفوية والمادية مقارنة بين رحلات سعد الله الداخلية والخارجية:

1.3 الموروثات المادية:

لاشكَّ أنّ التّراث المادي يشمل المباني والأماكن التاريخية والآثار وغيرها مما يجب حمايته والحفاظ عليه، وعند زيارة أبو القاسم سعد الله لمدينة مراكش الأثرية رفقة زميل له يدعى الأخ شحلان؛ عرفه عن هذه المدينة «ومباهجها الماضية والحاضرة، وسورها القديم ومكتبتها الكبيرة، وصومعة المكتبة التي تعود إلى عهد الموحدين، وعن القصبة العتيقة»¹ كما تمكن الرحالة من الاطلاع على العديد من مآثر المغاربة، منها «سور الأندلسيين الذي يحيط بالرباط، وحارة اليهود القديمة التي يسمونها الملاح، وشارع سيدي فاتح وبعض الفنادق، حيث كان سفراء وقناصل الدول الأجنبية ينزلون في العهود القديمة... ورأيت هناك ميزانا ضخما معلقا في سقف البهو»².

كما رأى في مدينة سلا صناعا وحرفيين «يزوقون الخشب بشتى التزاويق ويتفننون في ذلك غاية التفنّن، وهذه الزخارف لا تشكل على الخشب فقط؛ وإنما كانت أبواب الحديقة هي الأخرى رسوما هندسية ملونة تأخذ من الطابع العربي الإسلامي القديم، من خطوط وزوايا ومنحنيات»³، فأعجب الرحالة بهذه الزخرفة وهذا الفن التشكيلي، فوصفها ونقل لنا صورة عنها، لندرك أن هذا مما جعل المغرب مركزا للثقافة الإسلامية والحضارة العربية.

وفي الجزيرة العربية؛ أشار إلى فندق زهرة مكة المطل على الحرم، وكثرة المشاهد كآثار الأنبياء، والمساجد والمكتبات، والطرق المعبدة، والأسواق الكبيرة وغيرها، فهي بلاد متطورة في مختلف المجالات.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 226.

² - المصدر نفسه، ص 216.

³ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 228.

وأما خنقة سيدي ناجي؛ فحالها يزداد سوء ويتردى يوماً بعد يوم «فهذه القرية التي كانت عروساً أصبحت عجوزاً»¹، بل إنها خلاف المدن والقرى الأخرى «لا تنمو، فالمباني الجديدة فيها قليلة وتوسعها جغرافياً محدود»²، كما لم يذكر أي موروثات مادية في رحلة ميزاب، سوى الجامع العتيق بالعطف الذي أشرنا إليه سابقاً، ومعهد الحياة بالقرارة الذي مثل مصدر الحركة الإصلاحية في ميزاب.

2.3 الموروثات الشفوية :

تعتبر الذاكرة الشفهية من أول الذاكرات التي حفظت لنا ذلك الماضي، فالشعوب التي لم تدون تاريخها بالكتابة؛ حفظت ثقافتها في أشعار وحكم وأمثال وأساطير وغيرها. اتّصل الرحالة بالشعب المغربي وأخذ عنهم بعض ألفاظهم، وأوردها في الرحلة مع تقديم الشرح في بعض الأحيان، ومن المفردات المغربية التي ذكرها في الرحلة لفظة (المغاني) التي تعني الفيلات، ولفظة أكدال التي تعني كثير الشجر أي الغابة، ولفظة زنقة التي تعني شارع، ومن الألفاظ السعودية قول الجمركي للرحالة جم، والتي معناها كثير.

كما نقل موروثات شفوية كثيرة عن بوغديري وقال إنها تحتاج إلى التوثيق، ومن هاته الأخبار التي ذكرها أن الخنقة في القديم كانت غابة، وأن سيدي مبارك قد جاء من الساقية الحمراء، وبعد أن قرأ بفاس جاء إلى ورقلة، ثم حلّ بزريعة الوادي، ثم حلّ بالخنقة يرافقه أربعة عشر عرشاً واستقروا، وأن سيدي مبارك هو الذي جاء بالطريقة الناصرية، وأخذ في نشر العلم، وسميت الخنقة بخنقة سيدي ناجي لأن سيدي ناجي هو جد سيدي مبارك، وقد توقفت المدرسة الناصرية عن نشر العلم منذ الاحتلال الفرنسي³، فهذه الأخبار غير الموثقة نقلها لنا الكاتب عن طريف الشفاهة من المدعو بوغديري، وهي

¹ - المصدر نفسه، ص206.

² - المصدر نفسه، ص259.

³ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص263/264.

بعض عناصر الموروثات الشفوية التي نقلها سعد الله في رحلته، فالنقل المباشر عن الشيوخ يعتبر مصدرا موثوقا للمعارف، كما أصبحت الرحلة مصدرا لكثير من آثار الماضي.

إن؛ نجد أن سعد الله يدعو القارئ إلى البحث عن هذا النوع من الآثار وكشف حقائقها، كما فعل هو حين أصر على تبليغ محاورته مع العلماء وما يقرأونه في الكتب، وما يتوخاه فيها من حقائق فهو محقق لا يسكت عن الخطأ أين وجده، وهذا ما يُمتنُّ الثقة بين القارئ والكاتب ويثمن مصداقيته، كما حرص على إفادة القارئ المغربي بصفة عامة، ولهذا قدم عناوين الكتب والرسائل التي قرأها أو التقى بأصحابها.

2.4 خصائص الرحلة عند أبي القاسم سعد الله:

بعد القراءة المتأنية لأعماله في مجال الرحلة؛ وجدنا فيها بعض الملامح والمميزات التي تميزها عن باقي الرحلات الأخرى نجملها فيما يلي:

- وصف سعد الله المناطق التي زارها وصفا جغرافيا، وعمرانيا، واجتماعيا وبشريا، كما ذكر ما لقيه من رجال العلم والأدب وما دار في مجالسهم من نقاشات.
- جاءت هذه الرحلات متنوعة ويغلب عليها الجانب العلمي الثقافي، فمعظم هذه الرحلات كانت لأجل البحث والتعلم أو لحضور ملتقى أو ندوة علمية، كما يقول عن رحلته لخنقة سيدي ناجي: «اهتمامي الآن بالمعالم الأثرية والمراكز العلمية لهذه المدينة التي عرفت ازدهارا علميا في القرن الثاني عشر للهجرة»¹.
- تحمل هذه الرحلات في طياتها فوائد علمية كثيرة من حيث ذكر المخطوطات والكتب الموجودة في المكتبات والرسائل الجامعية مثل «ذكره لنادية داودي وهي تعد أطروحة

¹ - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، (مصدر سابق)، ص 259.

الدكتوراه في النثر الفني الجزائري خلال القرن الماضي وأوائل القرن الحالي لنيل شهادة دكتوراه الدرجة الثالثة من جامعة الجزائر.¹

• هي عبارة عن رحلات واقعية وتجارب شخصية مستمدة من يومياته في هذه المناطق فيها نقل للواقع وبصورة وأمانة علمية صادقة.

• هاته الرحلات في عمومها تعتمد على الاختصار، فيقتصر على ذكر المراحل بإيجاز ويكتفي بتسجيل المهم من الرحلة فقط وما يمكن أن يعود على القارئ بالفائدة.

• اهتمامه بالمخطوطات وفهارسها والمكتبات الموجودة بها، ومن فهارس المكتبات التي تحوي المخطوطات والتي اطلع عليها مكتبة القرويين، وخزانة الجامع الكبير والمكتبة العامة تطوان، والمكتبة الملكية التي زارها رفقة صديقه الجراري، إذ يقول في هذا الصدد: « وقد اقتضاني البحث الاطلاع على ما في المكتبة من مخطوطات حول موضوعي وخاطبت صديقي الجراري في ذلك ورافقتني إلى هذه المكتبة الواقعة في حرم القصر الملكي نفسه»².

• ذكر الكثير من الفوائد العلمية، والدينية، والتاريخية، والأدبية، وبعض الإجازات.

• هذه الرحلات على قمة البلاغة والقوة فيها وصف جميل للندوات والاحتفالات، بالإضافة إلى الاعتناء بمسائل الأدب.

• تتفق هذه الرحلات على الإشادة بخصال أهل العلم، وما يتحلون به من أخلاق فاضلة وشيم عالية وكرم وإفادة وبذل سخي في سبيل العلم.

• اتسمت هذه الرحلات بالسرد العام والوصف، ومشاركة القارئ الكريم بإحساسه وشعوره اتجاه منظر طبيعي أو مخطوطات علمية.

• حرص الكاتب على أن يرسم بعض الملامح من تلك البلدان التي زارها، فوقف في المغرب على بعض مظاهر الطبيعة، كما وصف المدينتين الشريفتين (مكة والمدينة) وما

¹ - المصدر نفسه، ص211/212.

² - المصدر نفسه، ص219.

تشعر به فيها من طمأنينة القلب وسكينة الروح، كما نَوَّه بالتطور الجامعي بالرياض والجهود العلمية الجادة، والجامع العتيق بالعطف (ميزاب)، كما أعطى لمحة عن دار العشيرة، وعن اللباس التقليدي الذي لا يخرج عن القندورة.

• يتمتع الكاتب في هذه الرحلات بحرية الحركة والاختيار الذاتي، فهو ينتقل من مدينة إلى مدينة، ويتوخى الأماكن التي يستطيبها، فتارة يقصد مسجداً، وتارة مكتبة، وتارة أخرى يرتاد أثراً من الآثار كالمدافن وغيرها، وأحياناً يعمد إلى التأمل في مجال الكون فيخلو بنفسه أو يأنس مع بعض رففته بالحديقة أو بفناء منزل أحدهم.

• هذه الرحلات على محدودية صفحاتها؛ فإنها غنية بالمعلومات عن بعض الشخصيات من الجزائر، وعن بعض معالم مدنها، وشخصيات أخرى من خارج الجزائر، كما تبين لنا بعض ملامح التاريخ المعاش.

• عمد الرحالة إلى استخدام المفردات السهلة، واليسر والسهولة وعدم التكلف والميل إلى التزيين، وعدم استخدام الخيال والقصد المباشر إلى الهدف.

خاتمة رحلاته تختلف من رحلة إلى أخرى؛ فزيارته لميزاب ختمها بقول فيه مدح وإشادة وتفضيل لأهل ميزاب، ورحلته إلى السعودية ردد فيها قول عمر بن الخطاب "يا أهل المغرب مغربكم"، وزيارته لخنقة سيدي ناجي ختمها بشكر الإخوة الذين رافقوه وسهلوا عليه المهمة.

وفي خاتمة هذا الفصل نشير إلى أنّ الرحلة ذات أهمية بالغة، فالإنسان يرى من خلالها عجائب الأمصار ومحاسن الآثار، لأنها تزود الإنسان بمختلف المعلومات المهمة والتجارب المختلفة، وفيها فوائد جمّة لا تُعدُّ ولا تُحصَى، فهي منابع ثرية لمختلف العلوم، إذ يقدم فيها الرحالة أحوال المجتمعات، وعادات الناس وتقاليدهم، وملابسهم، وأطعمتهم وأشربتهم، وشعائيرهم الدينية بأسلوب أدبي بديع وبلغ وشيق، وأدب الرحلة هو بمثابة مدونة يلجأ إليها الباحث لاستخلاص العديد من المعارف بكل اطمئنان؛ لأنّ الرحلة أحياناً

تجسد بعض الحقائق المعرفية عن المرحلة التاريخية التي عايشها الرحالة، كما أنها سجلت معطيات عمرانية متباينة شهدها الرحالة فنقلها بأمانة كنوع العمران وزخرفته، وشكله ومادة بنائه، ثم إن الجانب الفكري هو الآخر تجلّى بقوة في مختلف الرحلات، خاصة في تلك الزيارات التي كان يقوم بها الرحالة إلى مختلف المكتبات، ولقائه بالأدباء والباحثين، فيذكر المؤلفات التي كانت هناك، أو التي سمع عنها.

كما لاحظنا أن بعض الموروثات الثقافية متشابهة بين البلدان التي زارها المؤلف؛ مثل ظاهرة زيارة الأضرحة والجلوس على الأرض عند الأكل، وغيرها من العادات والتقاليد، في حين نجد هناك اختلافا على مستوى المطابخ المحلية إذ تتنوع أطباق الأكل وتختلف الوجبة الرئيسية من منطقة لأخرى، ومن بلد إلى آخر فهناك الأرز بالدجاج وهناك الكسكس وهناك البسيطلاء وغيرها، مما يدل على أنه لكل بلد وجبة خاصة تقدم للضيف العزيز. كما أنّ هناك اختلافا كبيرا بين الأمكنة التي زارها سواء من حيث المناظر الطبيعية، أو المنشآت العمرانية إضافة إلى الأمكنة الدينية فلكل بلد أشكال هندسية خاصة به. في حين نلاحظ أنّ هناك تقارب كبير بين أزمنة رحلات سعد الله فغالب هذه الرحلات كانت في فصل الصيف.

ومجمل القول أن أبا القاسم أحد المجددين الذين رأوا من الأدب أنه لا بد له من مساندة العصر، وذلك لا يعني التحلل المطلق مما ورثناه عن أصالتنا وتراثنا وأما استفادة الأديب أو الشاعر من الأساليب المعاصرة فإنّها مثل الطبيعة التي تخلق تنوعا وأزهار و الربيع أنموذجا لها، إلا أنّ التشبّث بالأصول يظل أمرا ذا قيمة من لدن بعض الفئات.

إنّ هذه السطور ليست سوى محاولة بسيطة للغوص في أغوار ما تركه أبي القاسم سعد الله، الذي ترك لنا مكتبة غفيرة بالمعارف، وإننا نريد أن نحثفي بجهوده التي لا تزال

تحتاج منا البحث والتمحيص فيها كما الكشف عن مكنوناتها وأسرارها، فرحم الله الفقيد
واسكنه فسيح جنانه.

خاتمة

ومن خلال دراستنا لهذا الفن عند بعض الرحالة الجزائريين عامة، وأبي القاسم سعد الله خاصة؛ توصلنا إلى النتائج التالية:

- إنّ نصوص الرّحلات تتناول أحوال الشعوب والأقاليم حيث تتسع الرؤية، وفي نفس الوقت هو صورة لفكر وثقافة وذات المؤلف الرحالة، حيث نرى أحوال الشعوب الأخرى من خلال عينيه وفكره.

-إنّ أدب الرّحلة الجزائري استطاع أن يوثق ويحفظ الكثير من التّراث الجزائري، وينقله بصورة حية وصادقة، خاصة وأن العديد منه مهدد بالضياع.

- إنّ الأدب الجزائري قد حفل بالرحلة وآدابها تأليفاً ودراسة، غير أنّ المؤسّف؛ أنّ كثيراً من هذه الرّحلات لم يدونها أصحابها، أو لم تصلها أيادي المحققين، ولم تتصدّ لها أقلام الباحثين، كما أنّ معظم الرّحلات الجزائرية غير مدونة في مؤلف خاص، وإنّما معظمها منشور في الجرائد والمجلات، كالبصائر والشّعب والشّهاب.

_ تعتبر الرّحلة الجزائرية وثيقة تاريخية مهمة وصالحة لكل زمان ومكان، ومصدراً من مصادر المادة العلمية والأدبية؛ التي تبرز جوانب عديدة من الحياة العامة للجزائريين إبان الاحتلال الفرنسي.

- أبرزت لنا هاته الرّحلات قيمة الصداقة ومكانتها السامية في نفس الرحالة، فهو يردد أسماء أصدقائه الذين استقبلوه واحتفوا به، وأكرموه بكل مودة واحترام متبادل.

- تكشف لنا هاته الرّحلات عن معلومات تاريخية موثوقة، استقاها من مظانها المخطوطة والمطبوعة، وعن طريق المُدَارسة والمناقشة مع العلماء والباحثين.

- امتازت رحلات سعد الله بعاطفة صادقة وأسلوب متين، وحرصاً في اللغة، مما يدعو القارئ إلى تذوق هاته النصوص والاستمتاع بها.

- اتصفت هذه الرحلات بدقة الملاحظة والوصف، والتقصي في تسجيل المعلومات المستمدة من المشاهدة المباشرة، والمعاناة الشخصية لأحوال الثقافة والاجتماعية للبلدان التي زارها، ولطبائع أهلها ومعالم حضارتهم، وهذا ما يشكل جوهر العمل الإثنوجرافي.

- عني الرحالة في وصف المدن بثلاث نواحي وهي: المرافق والمشاهد والمساكن، وتضم المرافق: المساجد والمدارس والأسواق، والمنازل والشوارع والأبواب، وتضم المشاهد: المقابر، وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء، والمواقع الإسلامية، وتضم المساكن: الأحياء والضواحي، مع تقديم تقرير للمراكز الثقافية حول حالتها العلمية.

- كشفت لنا هاته الرحلات عن التنوع الثقافي بين البشر، والذي يشمل العادات والتقاليد في الطعام والشراب والتفكير والمعتقدات والنظم الاجتماعية.

- هذه الرحلات تقوم على هدف أساسي هو البحث عن المخطوطات والكتب، وجمع المعلومات ممن لقيهم في رحلاته لرصد المادة العلمية المتعلقة بكتابه تاريخ الجزائر الثقافي، وغيره.

- استوحى أبو القاسم سعد الله أمورا كثيرة من التراث وضمناها بصورة حديثة في عمله الرحلي، أي أن هناك تمازجاً بين الموروث والحداثي، وفي الرحلة سياقات لغوية جمالية، وهي برهان على نقاء المعجم الذي يُعدُّ من أهم خيارات الكاتب الجمالية والفلسفية.

- تميزت كتابات سعد الله بالصدق والأمانة في الأخبار التي يسجلها، وفي وصفه للمناظر، وعمق التفكير وإعمال التأمل والموضوعية وعدم التحيز.

– المشهد الديني من الأمور المهمّة التي نالت نصيبا كبيرا من اهتمام الرّحالة، فكوّنت رصيذا كبيرا من المشاهدات الدينية كالمساجد، والمدارس القرآنية، إذ تناول الرّحالة هذا الجانب أداء وممارسة وتفاعلا إيمانا منه بأهمية تلك الأمكنة.

– لقد أثار الفضاء المقدس لدى الرّحالة؛ مشاعر الشوق والحنين الروحاني، نظرا لما يحمله من قدسية في نفسه، فكان الشوق إلى زيارة البقاع المقدسة يلتهم مسافة الزّمن، ويزيل عنه ثقل الأسفار.

– نال الموروث الفكري الحظ الأوفر في رحلات سعد الله، إذ مرّ بكثير من المكتبات المشهورة بالبلدان التي زارها، وتحدث عن الكتب والمخطوطات التي رآها، بالإضافة إلى وصف الجلسات العلمية مع أصدقائه، وجلسات الندوة.

. ومجال أدب الرّحلة الجزائري ميدان بكر يحتاج إلى جهود الباحثين والمهتمين به من أجل إثرائه وفتح آفاق جديدة للبحث فيه , وعليه فإننا ندعو الباحثين المقبلين على إعداد مذكراتهم أن يتجهوا نحو الأدب الجزائري القديم وخصوصا مجال الرّحلة ففيه من الرّحلات ما يستوجب نفض الغبار عنها ومحاولة إخراجها إلى الوجود بتحقيقها ودراستها.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم.

1. إبراهيم الكوني: بنية الشخصية في رواية التبر، دار التنوير للطباعة والنشر، ط3 لبنان، 1992م.
2. ابن الأجدابي شهاب الدين الخوي: كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، تحقيق عبد الحميد محمد الدرويش، و دار النوادر اللبنانية، ط1 1435هـ/2014م.
3. ابن بطوطة محمد بن عبد الله: تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم محمد السويدي، دط، الجزائر 1989م.
4. ابن حمادوش: رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1 بيروت، 1983م.
5. ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تح، درويش جويدي المكتبة العصرية، ط2، بيروت 2000م.
6. ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، قراءة محمود شاکر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، 2000 م
7. ابن عربي: قانون التأويل، دار الغرب الإسلامي، ط2 بيروت، 1990م.
8. ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقيير، تصحيح محمد الفاسي وأدولف، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ط1 الرباط 1965م.
9. ابن مسايب، ديوان ابن مسايب، جمع وتحقيق محمد بن الحاج الغوثيخوشة، ابن خلدون للنشر والتوزيع، ط1 تلمسان 2001م.
10. أبو العباس أحمد بن محمد المقري: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1995م.

11. أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، دار المعرفة للنشر، ط1 الرباط 1412هـ/1991م.
12. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط1 بيروت، 1998م.
13. أبو القاسم سعد الله، سعة خضراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1986م.
14. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر الجزائر، ط3 الجزائر، 2007م.
15. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1996م.
16. أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
17. أبو القاسم سعد الله: حوارات، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت 2000م.
18. أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد، ط5، الجزائر 2007م.
19. أبو القاسم سعد الله: في الجدل الثقافي، عالم المعرفة الجزائر في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، ط1، 2011م.
20. أبو القاسم سعد الله: قضايا شائكة، دار العرب الإسلامي لبنان، ط1، بيروت 1989م.
21. أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، ط1، تونس 1982م.
22. أبو القاسم سعد هموم حضارية، عالم المعرفة الجزائر، ط1 الجزائر، 2011م.
23. أبو حامد أحمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، 1986م.

24. أبو داوود ناصر الدين الألباني: صحيح سنن أبي داوود، كتاب المناسك باب زيارة القبور ط1، 1423هـ/2002م.
25. أبو راس الناصري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط الجزائر 1988م.
26. أبو عبد الله محمد بن علي العبدري: رحلة العبدري، حققها وقدم لها علي إبراهيم الكردي، وشاكر الفحام، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط2 دمشق، 2005م
27. أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401هـ/1981م.
28. أبي فارس عبد العزيز الفشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الآفاق والشؤون الإسلامية والثقافية، دت.
29. أحمد أبا الصافي جعفري الحركة الأدبية في أقاليم توات من القرن 7هـ حتى نهاية القرن 13هـ، منشورات الحضارة ط1، 2009م.
30. أحمد أبو العباس الغبريني: عنوان الدراية، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة بيروت، ط2، 1979م.
31. أحمد أبي يعقوب إسحاق بن جعفر: البلدان دار الكتب العلمية بيروت، ط1 لبنان (1422هـ/2002م).
32. أحمد بن المصطفى بن طوير الجنة: رحلة المنى والمنة (نسخة مخطوطة)، الناسخ عمر بن سيدنا الحاج عمر الحاجي، تاريخ النسخ 1253هـ.
33. أحمد بن حسن المقرئ التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ط1، بيروت لبنان 1388هـ-1986م
34. أحمد بن حسين الجعفي المتبني أبو الطيب ديوان المتبني، دار بيروت للطباعة والنشر، ط1، 1403هـ/1983م.

35. أحمد بن عمار: نحلة الحبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب , تح, ابن أبي شنب مطبعة فونتانة – دط, الجزائر 1320هـ / 1920 م.
36. أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني, تحقيق المهدي بوعبدلي منشورات عالم المعرفة للنشر والتوزيع, ط1 الجزائر 2013م
37. أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الجزائري, تقديم محمد بن عبد الكريم, المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
38. أحمد توفيق المدني محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791) سيرته حروبه وأعماله, المؤسسة الوطنية للكتاب, ط1 الجزائر, 1986م.
39. أحمد تيمور باشا, أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث, دار الأفاق العربية, ط1, القاهرة, 1423هـ/2003م.
40. أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي, دار النهضة, للطباعة والنشر, ط2 القاهرة.
41. أحمد دوغان: في الأدب الجزائري الحديث, منشورات اتحاد الكتاب العرب ط1, دمشق, 1996م. —
42. أحمد علي مرسي: مقدمة في الفلكلور, دار الثقافة للطباعة والنشر , ط1, القاهرة, 1975م.
43. إدريس الكويري: بلاغة السرد في الرواية العربية, دار الأمان الرباط, ط1 , 1435هـ/2014م.
44. أسعد لهالي: الشيخ خير الدين وجهوده الإصلاحية في الجزائر 1902-1993م.
45. أسماء أبو بكر, ابن بطوطة الرجل والرحلة, دار الكتب العلمية, ط1 بيروت, 1992م.

46. إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين وأسماء المؤلفين وأثار المصنفين, دار إحياء التراث العربي, ط1, بيروت لبنان, 1995م.
47. الأغواطي: رحلات جزائرية رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية (مجموع رحلات), تحقيق أبو القاسم سعد الله, المعرفة الدولية للنشر والتوزيع, ط1 الجزائر, 2011م.
48. أكرم اليوسف: الفضاء المسرحي دراسة سميائية, دار مشرق, ط1 دمشق, 2010م.
49. الإمام الشافعي محمد بن إدريس: ديوان الشافعي الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس, جمع إميل بديع يعقوب, دار الكتاب العربي, ط3 بيروت, 1996م.
50. امرؤ القيس: ديوان, شرح عبد الرحمان المصطاوي, دار المعرفة, ط2, بيروت, 2004/1425م.
51. باعزیز بن عمر رحلتي إلى البقاع المقدسة, ط2, الجزائر 2007م.
52. ثريا نصر: تاريخ أزياء الشعوب, عالم الكتب, ط1 القاهرة 1998م.
53. جمال الدين بن فالح الكيلاني: الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي دراسة تاريخية, دار الزنبقة ط1 القاهرة, 2014م
54. حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون, دار إحياء التراث العربي, بيروت لبنان.
55. حبيب مونسي: فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية, منشورات اتحاد الكتاب العرب, 2001م..
56. حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء الزمن الشخصية), المركز الثقافي العربي ط1 الدار البيضاء, 1990م.
57. حسن حنفي: التراث والتجديد, موقفنا من التراث, المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع, بيروت ط4, لبنان, 1412هـ/1992م .

58. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب, دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع, ط2, بيروت, 1983م
59. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب, دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع, ط2 بيروت, 1403هـ/ 1983م.
60. الحسين بن محمد الورتلاني: الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار, مكتبة الثقافة الدينية ط1 القاهرة, 1429هـ/2008م.
61. حسين محمد فهيم: أدب الرحلات عالم المعرفة, سلسلة كتب شهرية ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب الكويت يوليو 1989.
62. حسين نصار: أدب الرحلة, الشركة المصرية العالمية للنشر, ط1, الجيزة مصر, 1991م.
63. الحياة الثقافية في الجزائر, خلال العهد العثماني, منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر, 1954, ط1, دت, الجزائر.
64. خير الدين الزركلي: الأعلام, دار العلم للملايين بيروت لبنان, ط13, 1998م.
65. ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة: عبد الله كنون, دار ابن حزم مركز التراث الثقافي المغربي, 2007م.
66. سعيد الغانمي: الكنز والتأويل قراءات في الحكاية العربية, مكتبة الفكر الجديد, ط1 بغداد, 2014م.
67. سعيد سلام: التناسل التراثي في الرواية الجزائرية أنموذجاً, عالم الكتب الحديث, ط1, الأردن, 1431هـ/2010م.
68. سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي- من أجل وعي جديد بالتراث- دار رؤية للنشر, ط1 القاهرة, 2006م

69. سعيد يقطين: السرد العربي , مفاهيم وتجليات, داررؤية للنشر والتوزيع , ط1 القاهرة, 2005م.
70. سعيد يقطين: الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي, المركز الثقافي العربي, ط1 الدار البيضاء المغرب, 1997م.
71. سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري , دار الهدى, الجزائر 2009م
72. سيد أحمد بن أحمد سالم: تاريخ ابن طوير الجنة الحجاجي الواداني, منشورات معهد الدراسات الأفريقية, الرباط, 1995م.
73. شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء, تحقيق الأرنؤوط مؤسسة الرسالة, ط3, 1405ه/1985م.
74. شوقي ضيف: الرّحلات: دار المعارف, ط4, مصر (1987م).
75. صابر عبد الدايم: الأدب المقارن بين التراث والمعاصرة, دار الكتاب الحديث, ط1, 1432ه/2011م.
76. صلاح الدين بن أبيك الصفدي: الوافي بالوفيات, تحقيق أحمد الأرنؤوط, دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان, ط1, 1420ه/2000م,
77. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر, مؤسسة نويهض الثقافية بيروت, ط2, 1980م.
78. عباس محمود العقاد: الرّحالة عبد الرحمن الكواكبي, المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية, مطبوعات المجلس الأعلى 1959م.
79. عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكّي بن باديس, آثار عبد الحميد بن باديس, تحقيق عمار طالبي الشركة الجزائرية, ط3 الجزائر, 1417ه/1997م.

80. عبد الرّحيم مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء، 1996م.
81. عبد الرحيم مودن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدي للنشر والتوزيع ط1، المملكة الأردنية، 2006م.
82. عبد الرّحيم مودن: الرحلة في الأدب المغربي، أفريقيا الشرق، دط، المغرب، 2006م.
83. عبد الرزاق المواقفي: أدب الرحلات عند العرب الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة الوفاء الجامعة المصرية ط1، 1415هـ/1995م.
84. عبد الصمد عزوزي: الرحلة في المغرب العربي دوافعها، أنواعها، روادها، مجلة دراسات أدبية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع الجزائر، ع08، 2010.
85. عبد القادر نويوة: قراءة التراث السردى العربي تجربة عبد الفتاح كليطو، دار الروافد الثقافية، ط1، 2012م.
86. عبد القادر نويوة: قراءة في التراث السردى العربي تجربة عبد الفتاح كليطو، دار الروافد الثقافية، ناشرون ط2، 2012م.
87. عبد الله الركيبي: الأعمال الكاملة، دار الكتاب العربي، دط، 2011م.
88. عبد الله الركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2009م.
89. عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع ط1، أبو ظبي، 2006م.
90. عبد الله كروم: الرحلات بإقليم توات، بابا حسان، الجزائر، 2007م.
91. عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردى معالجة تفكيكية سميائية مركبة لرواية زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية دط، الجزائر.

92. عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية بحث في تقنيات الكتابة الروائية, دار الغرب للنشر والتوزيع, دط, الجزائر.
93. عبد الملك مرتاض: معجم الشعراء الجزائريين في القرن 20, دار هومة, دط, الجزائر, 2007م, ص452.
94. علي بن الحسين المسعودي أبو الحسن: مروج الذهب ومعادن الجوهر, المطبعة التجارية الكبرى ط4 مصر, 1964م.
95. علي عشري زايد: الرحلة الثامنة للسندباد: دراسة فنية عن شخصية السندباد في شعرنا المعاصر, دار ثابت, ط1 1404هـ 1984م.
96. علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية, علي عشري زايد, في الشعر العربي المعاصر, دار الفكر العربي القاهرة, دط, 1417هـ/1997م.
97. علية أحمد عابدين: دراسات في سيكولوجية الملابس, دار الفكر العربي, ط1 القاهرة 1996م.
98. عمر الدسوقي: في الأدب الحديث, دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع, ط8. القاهرة.
99. عمر بن قينة رحلات ورحالون في النثر العربي الجزائري الحديث, دار الأمة, ط2, الجزائر, 2009م.
100. عمر بن قينة: أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب منشورات اتحاد الكتاب العرب, ط1, دمشق 2000م.
101. عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث, تاريخا, وأنواعا, وقضايا وأعلاما, ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون ط2, الجزائر 2009م.
102. غسان كنفاني: جماليات السرد في الخطاب الروائي صبحية عودة زعرب, دار مجدلاوي للنشر والتوزيع 2006م.

103. فاروق أحمد مصطفى: الأنثروبولوجيا ودراسة التراث الشعبي , دراسة ميدانية, دار المعرفة الجامعية, ط1, 2008م
104. فايزة أنور أحمد شكري: القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم, دار المعرفة الجامعية ط1, 2002م.
105. فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي, مكتبة الدار العربية للكتاب, ط2, القاهرة, 1423 هـ/2002م.
106. قاسم سيزا أحمد: بناء الرواية دراسة مقارنة ثلاثية نجيب محفوظ سلسلة دراسات أدبية, دار التنوير, ط1, بيروت, 1985م.
107. لسان الدين بن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار, صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارات المتحدة, دط, دت.
108. مازن عوض الوعر: التفكير اللغوي عند الجغرافيين و الرحالة العرب في ضوء اللسانيات الجغرافية المعاصرة « مجلة التراث العربي, الدار العربية للكتاب, ط2, القاهرة, 1423 هـ/2002م.
109. مجبر الدين الحنبلي العلمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل مخطوط.
110. مجبر الدين الحنبلي العلمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل, تحقيق عدنان يونس عبد المجيد, مكتبة دنديس, 199م.
111. محمد إبراهيم: تجليات المكان في السرد الحكائي, فضاءات للنشر والتوزيع عمان, ط1, الأردن, 2009م.
112. محمد أبي القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف, مطبعة ببيروفونتانة الشرقية الجزائر, دط1906م.
113. محمد الأمين بلغيث: رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين, أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه, البصائر الجديدة للنشر والتوزيع الجزائر, 1436 هـ/2014م.

114. محمد الحسن فضلاء: من أعلام الإصلاح في الجزائر, دار هومة , ط1, الجزائر, 2000م.
115. محمد السنوسي: الرحلة الحجازية, تحقيق علي الشنوفي, الشركة التونسية للنشر, دط, 1396ه/1976م.
116. محمد الصالح: من وحي الرحلة, دار الحضارة للطباعة والنشر و التوزيع, ط1, 2007م.
117. محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, دط, الجزائر, 1969م.
118. محمد العبدري بالبنسي: الرحلة المغربية, تح أحمد بن جدو مطبعة البعث نشر كلية الآداب الجزائرية قسنطينة
119. محمد العبدري بالبنسي: الرحلة المغربية, تحقيق أحمد بن جدو مطبعة البعث نشر كلية الآداب الجزائرية ط1 قسنطينة
120. محمد بن أحمد ميارة المالكي: الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر, ط1, دار الفكر بيروت 2005م.
121. محمد بن إسماعيل البخاري البخاري أبو عبد الله: صحيح البخاري, دار ابن كثير دمشق, ط1 بيروت, 1423ه/2002م.
122. محمد بن عيسى الترمذي: سنن الترمذي الجامع الكبير, دار الغرب الإسلامي, ط1, 1996, رقم الحديث 2228.
123. محمد بوعزة: تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم, الدار العربية للعلوم ناشرون ط1, 2010م.
124. محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية المعاصر اتحاد الكتاب العرب, ط1 دمشق 2002م.

125. محمد صالح الجابري: رحلات جزائرية دار الغرب الإسلامي, ط1الجزائر, 2001م,
126. محمد عباس إبراهيم: الثقافة الشعبية والثبات والتغير, دار المعرفة الجامعية, ط, الإسكندرية, 2009م.
127. محمد عبد المؤمن خفاجي: الأزهر خلال ألف, عالم الكتب, ط2, بيروت, سنة 1408هـ/1988م.
128. محمد عزام: شعرية الخطاب السردي, منشورات اتحاد الكتاب العرب, دمشق 2005م.
129. محمد علي باشا: الرحلة الشامية, تحرير: علي أحمد كنعان, سيكو للطباعة والنشر, ط1, بيروت, 2002م.
130. محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير, مؤسسة تاوالت الثقافية, ط2, 2010م.
131. محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر مطبعة البعث ط1, قسنطينة, 1974م.
132. محمد محفوظ تراجم المؤلفين التونسيين, دار الغرب الإسلامي, ط1 بيروت لبنان 1404هـ/1984م.
133. محمد مصايف, النثر الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب, ط1, الجزائر, 1983م.
134. محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925/1975م.), دار الغرب الإسلامي, ط1 لبنان 1985م.
135. محمود أحمد حسن المراغي: دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث, دار العلوم العربية بيروت, ط1, لبنان, 1411هـ/1991م

136. محمود الشيخ:رجال الإصلاح, دار اليازوري العلمية للنشر و التوزيع, دط,عمان 2007م.
137. محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري جار الله: الجبال والأمكنة والمياه,تحقيق أحمد عبد التواب عوض, دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير, دط,دت.
138. محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار, تحقيق محمد محفوظ, علي الزاوي, دار الغرب الإسلامي, ط1, بيروت لبنان, 1988م.
139. مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية), دار المدار الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع ط1 1430هـ 2009م.
140. مسلم بن الحجاج :صحيح مسلم كتاب الجنائز باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه, دار الخلافة, ط1, 1330هـ.
- 141.مها حسن قسراوي: الزمن في الرواية العربية, المؤسسة العربية للدراسات والنشر,بيروت لبنان,2004م.
- 142.مولاي بالحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني,الشركة الوطنية للنشر و التوزيع, الجزائر 1979م.
- 143.نبيل راغب فنون الأدب العالمي, دار نوبار للطباعة والنشر, ط1,القاهرة 1996م.
- 144.نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلة الأندلسية والمغربية, حتى نهاية القرن التاسع الهجري, دار المأمون للنشر والتوزيع ط1, 2008م.
- 145.يمنى العيد: في معرفة النص, منشورات دار الأفاق الجديدة ط3 بيروت. 1985 م.

المعاجم والموسوعات:

أ – المعاجم

146. إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية, دار محمد علي الحامي للنشر, صفاقس, تونس, ط1988م.
147. إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية, دار محمد علي الحامي للنشر, صفاقس, تونس, ط1988م.
148. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط تحقيق مجمع اللغة العربية, مكتبة مؤسسة الصادق للنشر, ط6 إيران 1384هـ مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة, عالم الكتب ط1 القاهرة, 1429هـ/2008م.
149. ابن منظور: لسان العرب, دار صادر بيروت لبنان, ط2, 1992م.
150. ابن فارس: معجم مقاييس اللغة, تحقيق عبد السلام محمد هارون, دار الفكر للطباعة والنشر التوزيع, ط, دت.
151. ابن فارس: معجم مقاييس اللغة, تح عبد السلام هارون, دار الجيل بيروت لبنان, 1999م.
152. أحمد رضا: معجم متن اللغة, دار مكتبة الحياة, ط, دت, 1960م.
153. إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية, تحقيق أحمد عبد الغفور, دار العلم للملايين ط2 بيروت 1979
154. إميل بديع يعقوب: المعجم المفصل في اللغة والأدب (نحو صرف, بلاغة, عروض,), ميشال عاصي, دار العلم للملايين, ط1, بيروت, 1987م
155. الزمخشري جار الله محمود بن عمر: أساس البلاغة, دار الكتب العلمية بيروت, ط3 لبنان, 1419هـ/1998م
156. الزمخشري: الكشاف, المكتبة البهية ط1 القاهرة, 1925م

157. سعد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة, دار الكتاب اللبناني بيروت, 1405هـ/1985م
158. شهاب الدين أبو عبد الله الرومي ياقوت الحموي البغدادي: معجم البلدان, دار صادر بيروت 1397هـ/1977م,
159. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر, مؤسسة نويهض للثقافة والتأليف, ط2 بيروت لبنان, : 1400هـ/1980م.
160. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات, دار الغرب الإسلامي بيروت, ط2 1402هـ/1928م.
161. مجد الدين الفيروز آبادي: القاموس المحيط, تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة, بإشراف محمد نعيم العرقسوسي, مؤسسة الرسالة, ط8, لبنان, 2005م
162. مجدي وهبة كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب, مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح ط2 بيروت, 1984م
163. محمدّ التونجي: المعجم المفصّل في الأدب, دار الكتب العلمية, ط1 بيروت, 1419هـ/1999م.
164. محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: مختار الصحاح, دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع, عين مليلة, ط4 الجزائر 1990م
165. محمد بن موسى بابا عمي وآخرون معجم أعلام الإباضية, دار الغرب الإسلامي ط1, بيروت لبنان 2000م.
166. محمد بن موسى بابا عمي وآخرون: معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر قسم المغرب الإسلامي, منشورات جمعية التراث ط1, غرداية, 1420هـ/1999م.

167. مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جوهر القاموس, دار الهداية, ط2 الكويت.

الموسوعات:

168. رباح خدوسي: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين, دار الحضارة, ط1, 2003م

169. فواز الشعار: الموسوعة الثقافية العامة, إشراف: إميل يعقوب, دار الجيل, ط1, بيروت, 1420هـ/1999م.

الرسائل الجامعية:

170. إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم, أطروحة دكتوراه, جامعة الحاج لخضر باتنة, 1426هـ/2005م.

171. إسماعيل زغودة: بنية المكان في الرواية الجزائرية المعاصرة عبد الجليل مرتض أنموذجا, رسالة دكتوراه, جامعة تلمسان 2013/2014م.

172. جميلة روباش, أدب الرحلة في المغرب العربي, أطروحة دكتوراه في الأدب الجزائري القديم, جامعة محمد خيضر بسكرة 2014-2015م.

173. حسيني الطاهر: أطروحة دكتوراه الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناؤها الفني أنواعها وخصائصها, جامعة قاصدي مرباح ورقلة, 2013/2014م.

174. حصة بنت زيد سعد المفرح توظيف التراث الأدبي في القصة القصيرة في الجزيرة العربية, رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة الملك سعود, 1425/1426هـ.

175. سعد عودة حسن عدوان: الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية دراسة في ضوء المناهج النقدية, رسالة ماجستير, الجامعة الإسلامية غزة فلسطين, 1435هـ/2014م.

176. عبد الجليل شقرون: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أبي العباس سيدي أحمد دراسة وتحقيق, رسالة دكتوراه جامعة تلمسان, 2016/2017م.

177. عبد السلام ضيف: الكتابة الأدبية عند أبي القاسم سعد الله، مذكرة دكتوراه في الأدب الحديث جامعة الحاج لخضر باتنة 2004/2005م..
178. عمر بن قينة: أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث، رسالة دكتوراه، معهد الأدب العربي جامعة الجزائر 1412/
179. عمران بن محمد الأحمد: أدبية الرحلة عند العبودي رحلاته إلى البرازيل أنموذجاً رسالة ماجستير جامعة القصيم المملكة العربية السعودية، 1436/1437هـ.
180. عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، سياق النص وخطاب الأنساق، أطروحة دكتوراه، جامعة تلمسان ، 2015/2016م.

المجلات والدوريات

181. أحمد حنطور الشخصية التراثية في الشعر العربي المعاصر بين التوظيف والتحرير، بحوث ومقالات نادي أبها الأدبي العدد 21 سبتمبر 1997م.
182. أحمد عبد العزيز أبو عامر: الشيخ محمد الخضر حسين، مجلة البيان، ع3، المنتدى الإسلامي، الإصدار الأول، ربيع الآخر 1407هـ /ديسمبر 1986م.
183. بشير حمادي في حوار شامل مع الدكتور أبو القاسم سعد الله، جريدة الحقائق الأسبوعية العدد 21 الصادر في 17 مارس 2007م
184. بن بوعزيز وحيد: رحلة جيرار دونيرافال إلى الشرق، مجلة علمية متخصصة في الدراسات الأدبية والنقدية، الآداب واللغات جامعة الجزائر 02 العدد الرابع جوان 2010.
185. حنفي هلايلي : التاريخ لمسار قلم أبو القاسم سعد الله مؤرخاً لعلاقة التفاوت والتاريخ من خلال المذكرات والاعترافات مجلة الحوار المتوسطي، جامعة سيدي بلعباس، العدد السابع ديسمبر 2014.

186. زهوري وليد: أدب الرحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة دراسة وصفية تحليلية مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، العدد الأول 2012م.
187. صلاح عبد الستار الشهاوي: التفاشي قمة سامقة في الجيولوجيا: مجلة حراء مجلة علمية ثقافية أدبية، تصدر عن دار الانبعاث بالقاهرة، العدد30، 2017/01/14م.
188. الطاهر حسيني: الشخصية المركزية في الرحلة الورتلانية ملامح بنائها وعلاقتها مع الآخر، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، لبنان، العدد 20، جوان 2016م.
189. قاسمي فاطمة: فن الرسالة وأدب الرحلة قديماً في توات، مجلة الحقيقة جامعة أدرار ع10.
190. كارين صادر: دمشق في عيون الرحالة الفرنسيين، مجلة التراث العربي، ع11، إتحاد الكتاب العرب بدمشق، جمادى الثانية 1430هـ 2009م.
191. كنده طباع: المكان في أدب الرحلة دراسة في المعاني وأساليب التصوير النصي، مجلة لورناد للفن والعمارة بلندن المملكة المتحدة العدد السابع، 23 يناير 2012م
192. مجلة الثقافة الشعبية، معهد الشارقة للتراث، مجلة علمية متخصصة فالتراث، العدد الثالث والثلاثون، 2016.
193. محمد حسين فهيم: الرّحلات اكتشاف للعالم والإنسان، عالم المعرفة أدب الرّحلات، ع138، المجلس الوطني للثقافة
194. محمد رضا الرحمان القاسمي: الرحلة وآدابها في اللغة العربية دراسة تاريخية، مجلة الداعي الشهرية، العدد6-7 عن دار العلوم ديوبند، 2013/1434م،

195. مصطفى باجو: من أعلام الفكر في الجزائر أبي يعقوب يوسف اللورجلاني, مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة العدد الرابع.
196. مصطفى عبيد: النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله, 1960/194م, مجلة عصور الجديدة في عددها الخاص بأبي القاسم سعد الله, مخبر البحث التاريخي جامعة وهران, العدد 13 أبريل 1435هـ/2014م.
197. معتصم الحاج عوض الكريم: مدينة بربر السودانية والروابط الثقافية للرحلة الحجازية دراسة وثائقية لرسائل السادة الكنتية, مجلة رفوف, جامعة أدرار العدد الحادي عشر, مارس 2017م.
198. هلايلي حليفي: مجلة الحوار المتوسطي, التاريخ لمسار قلم أبو القاسم سعد الله, العدد 07 ص جامعة جلايلي الياس سيدي بلعباس.
199. والفنون والآداب, الكويت يونيو 1989م.
200. وردة سلطاني: التشكيل المكاني في النص الثوري قصص زهور ونيسي أنموذجاً, مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية العدد أربعون 1428هـ.
201. يوسف وغليسي, رسائل العلامة محمد الخضر حسين قراءة في التواصل اللغوي ووظائفه, مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق, مج 84.

الملتقيات:

202. عاشوري قمعون: أعمال الملتقى الدولي حول سعد الله مؤرخا ومفكرا, جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي يومي 13/14 ديسمبر (2015م).

المواقع الإلكترونية:

203. مثنى العبيدي التراث الثقافي العربي تحديات عدة, مقال منشور إلكترونياً على

الرابط <http://WWW.ALEPH LAM.COM>

204. مسعود فلوسي: مقالاتي المنشورة في جريدة البصائر الشيخ محمد المنصوري
الغسيري, حياته وآثاره,

205. مقالات منشورة على الرابط الجامعي -fac-sciences-isiiamiques-
.ar.univ-batna.dz

206. الموقع الإلكتروني/ poet -html/ http://www.poetsgate.com

207. أبو القاسم سعد الله: مجلة الشروق العربي مقال منشور إلكتروني على
الرابط <https://www.echroukonlin.com>

فهرسة المحتويات

فهرس المحتويات

إهداء

مقدمة.....أو

المدخل: تحديد مصطلحات البحث

- تمهيد.....08
1. مفهوم التراث في اللغة والاصطلاح.....09
2. مفهوم الثقافة في اللغة والاصطلاح.....16
3. مفهوم الرحلة في اللغة والاصطلاح.....20
4. مفهوم المقارنة في اللغة والاصطلاح.....24
5. نبذة عن حياة أبي القاسم سعد الله.....24

الفصل الأول: الرحلة في الأدب العربي

- تمهيد.....40
1. مفهوم أدب الرحلة نشأته ومراحل تطوره.....40
- 1.1 مفهوم أدب الرحلة.....41
- 2.1 جذور الرحلة في التراث العربي.....44
- 3.1 نشأة آداب الرحلات.....46
- 1.3.1 نشأة أدب الرحلة في العالم.....46
- 2.3.1 نشأة أدب الرحلة عند العرب.....48
- 3.3.1 نشأة أدب الرحلة عند الجزائريين.....51
- 4.1 مراحل تطور أدب الرحلة.....55
2. دواعي الرحلة أهميتها وأنواعها.....61
- 1.2 دواعي الرحلة.....61
- 2.2 أهمية أدب الرحلة.....70
- 3.2 أنواع الرحلة.....74

أ. الرحلة الشعرية.....	74
ب. الرحلة النثرية.....	75
ج. الرحلة الواقعية والخيالية.....	76
4.2. أنواع الرحلات الجزائرية.....	77
أ- الرحلة الشعرية.....	77
ب. الرحلة النثرية	79
ج. الرحلات الاستكشافية.....	79
د. الرحلات السياسية.....	80
هـ. رحلات ثقافية.....	81
و. الرحلات الاجتماعية.....	81
3. أهم الرحلة والرحلات الجزائرية.....	82
1.3. الرحلات الجزائرية إبان الحكم العثماني.....	83
2.3. الرحلات الجزائرية إبان الاستعمار الفرنسي.....	97
3.3. الرحلات التراثية والثقافية.....	110

الفصل الثاني: الجماليات الفنية والمضامين الثقافية في رحلات سعد الله دراسة

مقارنة

1. ماهية الرحلة وخصائصها عند أبي القاسم سعد الله.....	116
1.1. ماهية الرحلة عند أبي القاسم سعد الله.....	116
2.1. دوافع وأهداف الرحلة عند أبي القاسم سعد الله.....	118
2. جماليات توظيف التراث الثقافي في رحلات سعد الله دراسة مقارنة.....	120
1.2. جماليات توظيف الشخصيات.....	121
1.1.2. تعريف الشخصية لغة واصطلاحا.....	121
أ. الشخصية لغة.....	121

121.....	ب. الشّخصية اصطلاحا.....
122.....	ج. الشّخصية في القرآن الكريم.....
122.....	1.1.2. استدعاء الشّخصيات والشّخصية التّراثية مقارنة بين رحلتي المغرب والجزيرة العربية.....
125.....	1. الشّخصية المركزية.....
129.....	2. الآخر الرئيسي في رحلتي المغرب والجزيرة العربية.....
138.....	3. الآخر الثانوي.....
142.....	4. الآخر التراثي.....
145.....	3.1.2. استدعاء الشخصيات والشخصية التراثية في رحلتي خمنقة سيدي ناجي وحفل في ميزاب.....
146.....	1. الآخر الرئيسي.....
149.....	2. الآخر الثانوي.....
149.....	3. الآخر التراثي.....
153.....	2.2. جماليات الفضاء المكاني عند سعد الله مقارنة بين رحلاته.....
153.....	1.2.2 مفهوم المكان.....
156.....	2.2.2. المنشآت العمرانية.....
156.....	1. العمران في رحلات أبي القاسم سعد الله الخارجية.....
180.....	2. العمران في رحلات أبي القاسم سعد الله الداخلية.....
187.....	3.2.2 . المساجد والزوايا والأضرحة.....

191.....	1. المكان الديني في رحلات سعد الله الخارجية.
192.....	2. المكان الديني في رحلات سعد الله الداخلية.
195.....	3.2. جماليات الابداع الزماني دراسة مقارنة بين رحلات سعد الله الداخلية والخارجية.....
195.....	1.3.2 مفهوم الزمن
197.....	2.3.2. الزمن الطبيعي التاريخي.
197.....	1. زمن الانطلاق والمسير
197.....	أ. زمن الانطلاق في رحلتي المغرب والجزيرة والعربية.
206.....	ب. زمن الانطلاق في رحلتي الخنقة وميزاب.
208.....	2. زمن الوصول.
209.....	3.3.2. زمن السرد.
209.....	1. زمن السرد في رحلاته الخارجية.
211.....	2. زمن السرد في رحلاته الداخلية.
212.....	4.3.2. الوقف.
215.....	4.2. جماليات الأسلوب واللغة.

الفصل الثالث: أشكال التراث الثقافي في رحلات أبي القاسم سعد الله

229.....	1. التراث الثقافي الفكري.
230.....	1.1. التراث الثقافي الفكري مقارنة بين الرحلتين المغربية والجزيرة العربية.
251.....	2.1. التراث الثقافي الفكري مقارنة بين رحلتي الخنقة وميزاب.

257.....	2. التراث الاجتماعي:
257.....	1.2. العادات والتقاليد.....
258.....	2.1.2. الائتلاف والاختلاف في العادات في رحلات سعد الله الخارجية.....
264.....	3.1.2. الائتلاف والاختلاف في العادات في رحلات سعد الله الداخلية.....
267.....	2.2. المعتقدات.....
270.....	3. الموروثات الشفوية والمادية مقارنة بين رحلات سعد الله الداخلية والخارجية:.....
270.....	1.3. الموروثات المادية.....
270.....	2.3. الموروثات الشفوية.....
274.....	3.3. خصائص الرحلة عند أبي قاسم سعد الله
277.....	الخاتمة.....
285.....	قائمة المصادر والمراجع.....
301.....	فهرس المحتويات.....
	ملخص

ملخص المذكورة:

مَثَل أدب الرحلة موضوعاً ممتعاً وشيقاً لكثير من الرّحالة و المغامرين, وشكّل محور العديد من الكتب المعرفية الموسوعية, كما استقطب اهتمام الكتّاب الرّحالة الذين وصفوا ما انتابهم من مشاعر وأحاسيس, وعَبّروا عن ميولاتهم و انطباعاتهم الفكرية, وشيئاً من معارفهم المتعدّدة, حتى يصدق القول على أدب الرحلة بأنه الأخذ من كلّ شيء بطرف, لأجل ذلك صارت الرحلة بعد تدوينها كشكول معارف, يجد فيه كل ذي رغبة ضالته الدينية, والسياسية, و الاجتماعية, و الثقافية, و الاقتصادية... الخ.

ومن ثمّ فإنّ الرحلة باتت تشكّل لوحدها وثيقة هامة, يجد فيها الباحثون كثيراً من الإجابات عن التساؤلات العديدة, التي كانت تراودهم حيناً من الدهر.

الكلمات المفتاحية:

رحلة، أدب الرحلة، أبو قاسم سعد الله، التراث، ثقافة.

Abstract:

The travel Literature was a very interesting and pleasurable subject for many travellers and adventurers. It was the theme of many books and encyclopedias. This sort of literature allowed the writers to show their attitudes and feelings. It also showed the writers thoughts as well as their knowledge. Actually, it 's true to say that the travel literature is a variety of knowledge and science , in which the audience can find all what they need in religion, politics , social affairs, culture ,economy,.....

Hence, travel literature is considered as a crucial reference. The researchers of the various domains can use it as a reference. To answer.

key words:

Journey, travel literature, Abu Qassem Saadallah, heritage, culture.